جامعة الخرطوم

كلية الدراسات العليا

قسم اللغة العربية

ضروب الملاهي في الحياة الجاهلية

بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه الفلسفة في اللغة العربية

إعداد الطالبة / سناء مصطفى عبد الله محمد

إشراف الدكتور / عبد الله محمد أحمد

ديسمبر 2008م

بسم الله الرحمن الرحيم

(وما الحياةُ الدنيا إلا لَعب ولَهو وللدار الآخِرةُ خير للذين يتقُونَ أفلا تعقِلُونَ)

صدق الله العظيم
سورة الأنعام – آية
32

(قل إِن صلَاِتي ونسكِي ومحياي ومماتيِ لِلهِ ربِّ العالِمين)

صدق الله العظيم
سورة الأنعام – آية 162

إهـــداء

أبي ... الذي غرس فيّ حب العلم والعلماء
وأمي ..نبع الحنان التي جاهدت لكي أصل إلى تلك المرحلة
إلى زوجي العزيز
إلى إخواني و أخواتي
وإلى كل من حمل لواء العلم والمعرفة

وما توفيقي إلا بالله

الشكر والتقدير

الشكر لله عزّ وجل قبلا وبعدا على عونه وتوفيقه وما أصدق قول الله عزَّ وجل: (وقال ربِّ أوزعني أنْ أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعملَ صالحاً ترضاهـ وأدخِلني برحمتك في عِبادك الصالِحِين)

صدق الله العظيم

سورة النمل – آية 19

شكري وتقديري وجليل امتناني للأستاذ والعالم الجليل الدكتور/ **عبد الله محمد أحمد** الذي قام بإشراف هذا البحث منذ أن كان فكرة وحتى مناقشته متعه الله بالصحة والعافية، وجعله الله لواءً للعلم والمعرفة.

وكلمات شكر أخص بها:

علماءنا الأجلاء الذين يقتطعون من وقتهم وجهدهم ويتفضلون بمناقشة الرسالة فهذا شرفٌ عظيمٌ لي. متعهم الله بالصحة والعافية وجعلهم نبراساً ينير الطريق لي ولغيري.

والشكر أيضاً:

لأسرة مكتبة جامعة الخرطوم

لأسرة مكتبة جامعة النيلين

وأيضاً الشكر موصول لجميع الزملاء والزميلات لوقوفهم معي سواء بالرأي أو التشجيع.

مستخلص الدراسة

موضوع هذه الدراسة يتناول دور الملاهي فى الحياه الجاهلية , وتجىء اهميتها من كونها تتطرق الى أثر اللهو فى الحيا الجاهلي وانعكاسة على حياتة بصورة خاصة تناولت هذا الموضوع عدة دراسات اهمها كتابة (بلوغ الادب فى اشـعار العـرب) وكتاب (المراة فى الشعر الجاهلي) للدكتور أحمد الحوفى , وكتاب (الفروسية فى الشعر الجاهلى وغيرها من الدراسات .

جاءت هذه الدراسة فى ستة فصول , وكل فصل حول عدة مباحث , حيث تعمل هذه الفصول والمباحث متعاونة فى فى إ ستيعاب المادة .

تناول الفصل الاولى أساسيات البحث , والثانى جاء على مثنة دراسـة تاريخيـة موجزة عن الحياة فى المجتمع الجاهلي .

اما الفصل الثالث فقد شمل الملاهى وانماطها .

الفصل الرابع ساط الدراسة على الملاهى شعرآثم جـاء الفـصل حـاملآ الاسـس الجمالية للملاهى , واخيرآ كان الفصل السادس وعلى طب نتائج البحـث وخاتمـه الدراسة أو المصادر والمراجع والفهارس .

Abstract:

This study tack les the role of place of entertainment in the pre-Islam area.

The study is important as it touches on the impact of place of entertainment in lives of people in the pre-Islam area and reflected on his life, in particular.

The objectives of this study addressed by several studies the most important of it is (The achievement of complacency in Knowledge of the Arab poetry) wrutten by AlAlosi and (woman in the pre—Islam poetry) written by Dr. Ahmed Mohamed and (Equestrian in the pie—Islam poetry) written by Niri Hammodi and other studies.

This study comes out with six chapters and' each of it contained many investigation, where the chapter and investigations cooperative in accommodating the article.

The first chapter dealt with the basics of research and the second came on board, a brief historical study on the pre—Islam community.

The third chapter has covered entertainment and similar.

Chapter fourth highlighted the study to entertainment poetry.

Then came the fifth chapter a theme of the aesthetic foundations.

Finally, the sixth chapter attached the results of research, conclusion, the sources, references and indexes.

مقـدمـــة:

الحمد لله الكريم المتعال والحمد لله الذي هدى العرب بالقرآن، وميـزهم على غيرهم من الأمم بحسن البيان، والصلات والسلام على طيـب الخـصال وخير الأنام سيدنا وحبيبنا محمد – صلى الله عليه وعلى آله وصـحبه وسـلم- الذين اتبعوا نهجه فيما فعل وقال:

أما بعد: ففي هذا البحث الذي جاء تحت عنوان (ضروب الملاهـي فـي الحياة الجاهلية)، والتي تحسب أن فيها ما هو أصيل كريم أقره الإسـلام بـدليل قوله: - صلى الله عليه وسلم- (إنما بعثت لأتتم مكارم الأخـلاق). جـاء هـذا البحث على عمد وقوائم تمثلها ستة فصول ينضوي تحت كل فـصل مبحثـان فأكثر بحيث تنهض هذه الفصول والمباحث متعاونة متآزرة في استيعاب المادة.

ففي التفاصيل نقول ونوجز الآتي:

إن الفصل الأول نهض وتكفل بالحديث عن أساسيات البحث. فالمبحث الأول كان مختصاً ببواعث الدراسة، من أسباب اختيار الموضوع، وأهميته، ومنهجه، وحدوده، والمشاكل التي واجهت الدراس.

أما المبحث الثاني منه جاء متضمناً التمهيد والتعريـف للملاهـي والمتـع الجاهلية، وأصل العرب وتعريف لجزيرتهم.

أما الفصل الثاني فقد شاءت له الدراسة أن يفتتح بإضاءة تاريخيـة مـوجزة معنونة بعنوان (ملامح الحياة في المجتمع الجاهلي) جاء المبحـث الأول منـه متضمناً الحياة القبلية (طبقات القبيلة، حياة البدوي "ميلاد، ختان، زواج، طلاق، ومواقفه من الموت").

أما المبحث الثاني منه تحدث عن علاقة القبائل مع بعضها "سياسياً" ونـوع الثقافة "فكرياً ودينياً"، وأثر الأسواق في اللغة.

أما الفصل الثالث فخصص للملاهي وأنماطها فجاء فيه (الملاهي أنماطها).

المبحث الأول المرأة، فجاء الحديث عنها تفصيلاً، مـن أعمالهـا وزينتهـا ولبسها، وكذلك السيدة والأمة.

المبحث الثاني عن الخمر والميسر: الخمر صناعتها وموادها وأوقات شربها. والميسر كلهو للأغنياء وسد رمق الفقراء.

المبحث الثالث: تحدث عن الفروسية وارتباطها بمتعة الصيد، وسباق الخيل.

المبحث الرابع عن الثأر دواعيه ودوافعه وأنواعه.

فالمبحث الخامس والأخير من هذا الفصل تحدث عـن الكـرم والـشجاعة ودواعيهما والمروءة.

أما الفصل الرابع: والذي جاء تحت عنوان (الملاهي شعراً) قسم إلـى عـدة مباحث كسابقه بالإضافة للسفر والشعر.

فالحديث في هذا الفصل عن ما يوثق لهذه الملاهي من شعر ومن حياة أناس صاروا في ذمة التاريخ، فأخذ هذا الفصل جانب النصوص الشعرية للملاهي مع التحليل لهذه النصوص الشعرية.

الفصل الخامس جاء تحت عنوان (الأسس الجمالية للملاهي) ففـي المبحـث الأول منه تحدث الباحث عن جمال اللغة من (سلاسة، ومرونة، وجودة للألفاظ).

أما المبحث الثاني منه فقد تكفل بالحديث عن جمال اللغـة وبلاغتهـا مـن (تشبيه، استعارة، مجاز وكناية) في تلك الملاهي من خلال النصوص الشعرية، لا سيما التركيز على المرأة والخمر.

أما الفصل السادس والأخير فتضمن: نتائج البحث، وخاتمة، وفهرسة فقد أخذ الباحث نتائج جميع الفصول واختصرها في هذا الفصل مع كتابة خاتمـة لهـذا البحث، والتي اتبع فيها تلخيص البحث.

وأخيراً فهرسة للبحث وفهرسة لقائمة المصادر والمراجع.

أسباب اختيار البحث:

يعد العصر الجاهلي العصر الأدبي الأول بكل ضروب الأدب من نثر، وشعر، وخطابة، وحكم، ووصايا وثقافة أدبية كاملة، فقد أرخ لأدبه بمائة أو مئة وخمسين عاماً قبل الإسلام.

أما الشعر فحديث الميلاد، صغير السن وأول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه أمرؤ القيس بن حجر والمهلهل ابن ربيعة[1].

وفي هذه البيئة المتنوعة التضاريس من صحراء قاحلة، وتلال وجبال شاهقة، عاش الإنسان البدوي فذال الصعاب، وسلك طريقه عبر طريق وعر محف بالمخاطر؛ رغم كل هذا فقد أثبت وجوده وخُلد في التاريخ والأدب. على مدى الأزمان.

ونحن بصدد دراسة عصر مهم في حياة العرب ونوعية المتع فيه، ألا وهو العصر الذي سبق عصر الإسلام، أو عصر ما قبل الإسلام أو العصر الجاهلي.

لذا يأتي اختيار هذا البحث؛ لمعرفة حياة البدوي فيه، من ميلاد وختان وزواج، وصنعة، وكذلك موقفه من الموت، والوقوف على قيمها عموماً، والطقوس المعمول بها في ذلك العصر.

كما يجئ الدور الأساسي لاختيار هذا الموضوع لتقديم نموذج للحياة العربية، والتعرف على المتع التي كانت موجودة لديهم، وما هو سلبي منها، وما هو إيجابي أقره الشرع الإسلامي، ونتعرض لكل ذلك من خلال نماذج الشعراء، وكتب التاريخ العربي قديمه وحديثه. كما يجئ اختيار هذا الموضوع في زمن كثر فيه اللغط عن المجتمع العربي والحقوق المسلوبة، والدعوة السافرة على القيم والعادات العربية السمحة.

أهمية البحث:

تأتي أهمية هذا البحث في أنه يتناول جانباً مهماً في المجتمع وحياة الناس عموماً ألا وهي المتع، وتجئ أهميته في المحاور الآتية:

---

[1]) الحيوان، الجاحظ (عمرو بن بحر الحافظ)، ت ش، عبد السلام هارون، الحلبي، ط2، 1965م، 74/1.

أولاً: المتع الإيجابية والسلبية في المجتمع البدوي.

ثانياً: تقديس البدوي لهذه المتع وترتيبها حسب أهميتها بالنسبة لهم.

ثالثاً: الفرق بين المتعة والعادة في المجتمع الجاهلي.

رابعاً: في المجال الاجتماعي فإن بعض المتع تمثل التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع.

كما نجئ أهمية البحث في وقت تلاشت فيه القيم والمثل والأخلاق، ولتنظر ما كانت عليه التقاليد في الجاهلية وما عليه التقاليد الأوربية فيما يسمى بالعصر الحديث.

منهج البحث:

هذا بحث تكاملي، فهو أدبي، لأن الأدب مرجعه، والأدب مرآة الحياة التي تعكس الجوانب المختلفة في كل عصر خلال ما نطقت به أفواههم وتناقلته عنهم الرواة من أجل الوصول إلى الحقائق والمعلومات المرجوة؛ وذلك من خلال النصوص الشعرية وشرح آراء الأدباء بالمصادر العلمية المحققة والموثوقة بغية الوصول لتحقيق النتائج المطلوبة. وتاريخي لأنه يؤرخ لظاهرة من الظواهر الاجتماعية في حقبة معينة.

إذن فالمنهج الذي سلك في هذا البحث مفصل كالآتي:

المنهج التاريخي في الفصول التي تعالج قضايا تاريخية كما في الفصل الثاني منه.

المنهج الأدبي: في الفصول والمباحث التي تعالج قضايا أدبية.

المنهج الوصفي: في الفصول والمباحث التي تعالج قضايا فلسفية

حدود البحث: زمانية ومكانية

الحد الزماني: الحد الزماني لهذا البحث هو العصر الذي سبق عصر الإسلام، أما أدبياً فهو تلك الفترة التي حدها الجاحظ بمائة أو خمسين ومئة عام قبل بعثة المصطفى –صلى الله عليه وسلم- وُأرخ لهذه الحقبة من الزمن بالشاعرين: أمرؤ القيس، والمهلهل بن ربيعة.

الحد المكاني: هو بلاد شبه الجزيرة العربية بأكملها صحاريها، وفيافيها، وجبالها وسهولها، ورمالها ونخيلها، ونجدها ونفوذها.

أما فترة الجاهلية فقد حدها البعض بأنها الاسم الذي أطلق على ما كانت عليه جزيرة العرب قبل الإسلام، أو بعبارة أدق الاسم الذي أطلق على الفترة التي خلت من الرسل بين عيسى –عليه السلام- ومحمد –صلى الله عليه وسلم-.

دراسات سابقة:

لم أجد دراسة عن هذا الموضوع كاملة، بل وجدت بعض من المواضيع لها صلة بالموضوع في بعض الكتب، وبعض الباحثين الذين قد تطرقوا للأدب الجاهلي في مواضيع مختلفة.

مشاكل البحث:

ومن أهم المشاكل أن بعض أنواع المتع لم تتوفر لها المصادر التي اعتبرها كافية، حتى تخرج بالصورة واللوحة الجميلة الكاملة لهذه المتعة. غير أن بعض المتع –وأظن أغلبها- توفر لها المصدر والمرجع الذي أخرجها في الصورة التي أتمنى أن تكون حسنة.

تمهيد:

الأسباب التي أدت إلى تشوه صورة العصر الجاهلي:

إن الصورة التي استقرت في أذهان الكثيرين عن العصر الجاهلي فيها كثير من الضلال والخطأ والإجحاف بحق ذلك العصر[1]. ومن يقرأ ما كتب عن الجاهلية يخيل إليه أن الأمة العربية أمة جهل وعدم وعى، أي أنها عزلتْ عن العالم، وعاشت غارقة في بحر من البداوة والفوضى والتوحش[2].

وقد تضافرت عوامل عديدة أدت إلى تشويه تاريخ ذلك العصر وأدبه بحيث صرنا في أشد الحاجة إلى القيام بالأبحاث الضرورية لتدوين هذا التاريخ والأدب على وجه منطقي معقول تطمئن إليه النفوس[3]. فقد عد أحد الباحثين هذا التشويه جناية حرمت الباحثين عن الوقوف على حقيقة هذا العصر[4].

ومن هذه العوامل:

1- اسم العصر نفسه[5] مما أوهم كثيراً من الدارسين والباحثين بأن ذلك العصر كان عصراً بدائياً، ويجب أن تُصحح بعض المفاهيم الخاطئة عن هذا العصر، فقد درج أكثر القدماء والمحدثين على تفسير معنى الجاهلية بالأمية[6]، ووصموا العصر الجاهلي بالتخلف الحضاري والجاهليين بالتخلف الثقافي[7].

بيد أن النظرة الموضوعية أسهمت في إزالة الغبار العالق بهذا المصطلح، فرأى "فليب حتى" أن الحقيقة خلاف ذلك. فالجاهلية -في المعنى الصحيح- هي ذلك العصر الذي لم يكن لبلاد العرب فيه وازع ولا نبي ملهم، ولا كتاب منزل. فمن الخطأ أن نصف بالجهل والهمجية هيئة اجتماعية امتازت بما امتاز به عرب الجنوب من ثقافة وحضارة، قطعت في ميدان التجارة والأشغال شوطاً بعيداً قبل الإسلام بقرون بعيدة[8].

---

1) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري، دار التربية، بيروت، ص 89.
2) انظر: فجر الإسلام، أحمد أمين، ص 35-58. ودائرة المعارف الإسلامية مادة (جاهلية) 264/6 – 267.
3) المرأة في الشعر الجاهلي، على الهاشمي، دار المعارف، بغداد، ط. 1960، ص 17.
4) الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً، عفيف عبد الرحمن، دار الفكر للنشر والتوزيع عمان، ط1، 1987، ص 13-14.
5) المرجع نفسه، ص 14.
6) الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية، إبراهيم عبد الرحمن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1980م، ص 22.
7) دائرة المعارف الإسلامية، يصدرها: أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي، عبد الحميد يونس، راجعها: محمد مهدي علام 264/6 – 267، مادة (جاهلية).
8) تاريخ العرب "مطول"، فليب حتى، بروكمان، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف مصر 1959م، 117/1.

وينتهي المؤلف إلى تفسير فكرة الجاهلية على أساس ديني محض، فالعرب لم يكونوا أميين، ووصفهم بالجاهلية إنما هو تفسير عن أميتهم الدينية[1]. وشبيه ذلك ما ذهب إليه الدكتور ناصر الدين الأسد حيث يقول نافياً تجهيل الجاهلية: إن حياة العرب في الجاهلية –فيما بدأ لنا- بعيدة كل البعد عما يتوهمه بعض الواهمين، أو يقع فيه بعض المتسرعين، الذين لا يتوقفون ولا يتثبتون، فيذهبون إلى أن عرب الجاهلية لم يكونوا سوى قوم بدائيين يحيون حياة بدائية في معزل عن غيرهم من أمم الأرض. ويذهب إلى أن عرب الجاهلية الأخيرة كانوا من الحضارة بمنزلة لا سبيل إلى تجاوزها ولا مزيد عليها لمستزيد." [2]

وقد وردت مادة "جهل" في القرآن الكريم بمعنيها اللغوي والديني، بما يفيد أن الجاهلية متصرفة إلى الجهل بالإسلام[3].

لقد رأى الباحثون المنصفون أن يستبدلوا عصر ما قبل الإسلام بالعصر الجاهلي؛ لأن مصطلح الجاهلية قد يلقى بظلاله المعتمة على فهم واقع الأمة يؤمئذٍ بما لا يوافق حقيقة واقعها الثقافي والحضاري[4].

العامل الديني: إن المؤلفين الذين كتبوا عن تاريخ العرب قبل الإسلام كتبوا ذلك وهم يعيشون في ظلال الإسلام، فكان طبيعياً أن تتأثر نظرتهم بواقعهم المسلم، مما جعلهم ينظرون إلى تاريخ ذلك العصر بعين امتلأت بنور الإسلام ومعطيات هذا الدين، وما ينجم عن ذلك من مواقف من قضايا ما قبل الإسلام وأحداثه على أساس ما يتوافق ومصلحة الدين الجديد ومعاييره وقيمه[5]. وهذا ما أدى إلى حرص العلماء كل الحرص على تباين أثر الإسلام في المجتمع العربي.

أصل كلمة جاهلية:

أصل كلمة جاهلي: لقد وردت لفظة "جاهلية" لمصدر صناعي لأول مرة في القرآن الكريم في قوله تعالى:(أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ

---

1) الشعر الجاهلي وقضاياه الفنية والموضوعية، إبراهيم عبد الرحمن، ص 24.

2) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، دار الجيل بيروت، ص 18.

3) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (جهل)، محمد فؤاد عبد الباقي، (جهل)، ط دار الكتب المصرية، القاهرة، 1364هـ، ص 184.

4) تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، نوري حمودي القيس وآخرون، ص 3.

5) تاريخ آداب اللغة العربية، جورجي زيدان، مراجعة شوقي ضيف، ط دار الهلال، 29/1، (د.ت).

مِنَ اللهِ حُكْمَاً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)[1] وقال جل ثناؤه: (وَقَرْنَ فِي بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)[2] كما جاء ذلك في الحديث النبوي الشريف قال: -صلى الله عليه وسلم- لأبي ذر وقد عير رجل بأمه: (إنك أمرؤ فيك جاهلية) [3]. ومنهم من أرجع ذلك لكثرة الحروب وسفك الدماء[4]. وجميع هذه الصفات لا تتفق وتقاليد الإسلام السمحة.

وقد ُأطلقت كلمة الجاهلية على العصر السابق للإسلام، وذلك لانتشار الوثنية، واقتراف المحرمات والثارات، وكثيراً من العادات والتقاليد المنافية لمبادئ الإسلام فأصبح مصطلح الكلمة يدل على عصر معين.

فقد شدد المتعصبون من المسلمين وغيرهم في الانتقاص والتهوين من أمر هين العهد الذي سبق عصر الإسلام، وأطلقوا شتى النعوت التي يراد بها أن الباطل كان سمة العصر، والضلال طابعة فقالوا عنه: إنه الزمان الذي كثر فيه الجهل، وهو عهد الجهل الذي لا علم فيه، وقد قسم الأولوسي ذلك الجهل إلى: جهل بسيط وجهل مركب فقال: (فأما من لم يعلم الحق جاهل جهلاً بسيطاً، فإن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلاً مركباً، فإن قال خلاف الحق عالماً بالحق أو غير عالم بالحق فهو جاهل أيضاً)[5] كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً وإذا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامَاً)[6] ومن هذا قول عمرو بن كلثوم أحد شعراء هذا العصر، وهو تغلبي وصاحب إحدى المعلقات السبع. يقول في معلقته:

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

---

[1]) سورة المائدة، آية 50.
[2]) سورة الأحزاب، آية 33.
[3]) صحيح البخاري، الإمام البخاري (أبو عبد ا لله الحسين بن اسماعيل البخاري) مكتبة الثقافة الدينية، مج2، 41/4.
[4]) تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، ص 52، بدون (ط،ت).
[5]) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمد شكري الألوسي البغدادي، القاهرة ط3، تحقيق محمد بهجت، 15/1.
[6]) سورة الفرقان، آية 63.

أي لا يسفه أحد علينا فنسفه عليهم فوق سفههم، والسفه أيضاً هو الجهل، والجهل هو نقيض العلم. وكثيراً من الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة تحث على العلم والتعلم وفضله.

وكذلك ذهب كاتب مقال مادة "جاهلية" في دائرة المعارف الإسلامية، زعم أن المعنى الدقيق لكلمة "جاهلية" هو زمن الجهل، أما الإسلام فهو زمن النور والمعرفة، وكلمة جهل ضد العلم وردت بهذا المعنى كثيراً في اللغة القديمة، كما أنها وردت في الأزمنة القريبة من الإسلام، ومن ذلك قول عنترة بن شداد في معلقته[1]:

هلا سألتِ الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

على أن الواقع قبل الإسلام يعد ما ذهب إليه المتعصبون جميعاً فليس من المعقول أن يقصد بالجاهلية معناها اللفظي الذي هو الجهل الذي هو ضد العلم والفهم، فمذهب أولئك يتصيد كل ما ورد من مادة "جهل" في القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، الشعر، وكلام العرب؛ لأن ما كانت فيه صفاتهم صفات العرب قبل الإسلام لا يصح وصفهم بكلمة جاهلية أو جهلاء، وعندهم الحضارة العريقة الممتدة من أعماق الزمان، ولهم ذلك الفن القولي الممتاز متمثلاً في القوافي التي قل أن يجود بها الزمان مرة ثانية، وكذلك الخطابة التي وضع أساسها إلى اليوم قيس بن ساعدة الأيادي، والأمثال والرسائل والحكم، وفي ذلك أكبر الظن حين أطلقت في أول الأمر وأريد بها الدلالة على شيوع عبارة الأوثان بينهم، فلا شك أن من العرب من كان يركع لصنم، ومنهم من عبد الكواكب أو اعتنق المجوسية، ومنهم من كان دين إبراهيم حنيفا، وقد أشار لها القرآن الكريم في عدة مواطن كما أسلفنا. فالجاهلية المعنى الأرجح لها هو تلك الوثنية السائدة قبل شريعة الإسلام. ولا يفوتنا أن نذكر في هذا العهد كثيراً من الناس وصفوا بالحلم والصبر والتسامح، والحكمة، وإصلاح ذات البين، كقيس بن عاصم وحلمه، وهرم بن سنان وسخائه، وزهير بن سلمى وحكمته، وعنترة بن شداد وشجاعته، وحاتم الطائي وكرمه وغيرهم.

---

[1]) شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، دار الآفاق بيروت لبنان، ط4، ت: فخر الدين قباوة، 1989م.

وعلى العموم أن المراد من المعنى الجاهلي هو ما يتمثل في الذهن من مفهوم ديني متعلق بالعبادات الدينية، فالعهد الجاهلي كان قائماً على الشرك والوثنية وفيه ضلال وظلام وظلمات في العقيدة، رغم وجود أناس لا يعبدون تلك الأوثان، والعهد الذي تلاه هو عهد النور والهداية وقد وضح لنا هذا العهد أن العهد الذي سبقه هو عهد الضلال والظلام، ومصداقية ذلك قوله عز وجل: (يُخْرِجُهُم مِنْ الظُلُمَاتِ إلى النور) [1] وأيضاً وردت كلمة جاهلية في القرآن الكريم وأريد بها الحط من القيم الخلقية والاعتقادية قال الله جل ثناه: (يَظُنوُنَ بِالله غَيْرَ الْحَق ظَنَّ الجَاهِلِيَّة) [2].

بعد هذا ينبغي أن نعرف أن كلمة الجاهلية التي أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل. بمعنى السفه والغضب وغيره، بل المعنى الشامل لها هو موازنتها بكلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله عز وجل وحده، وما ينطوي تحتها من سلوك خلقي كريم، كما أن هذه الكلمة "جاهلية" وردت في القرآن الكريم عدة مرات توضح وتشير إلى هذا المعنى قول الله تبارك وتعالى: (خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بِالْعُرْفِ وأعْرِضْ عَن الجَاهِلينَ) [3]

المتع:

أما الملاهي فهي الأشياء التي يجد فيها المرء اللذة واللهو ويملأ بها وقت فراغه، وأما البدوي ففراغه شاسع وعريض، وأهم هذه المتع التي تملأ فراغه هي:

المرأة والتغزل فيها، والخروج للصيد والفروسية، شرب الخمر والاستمتاع بها، والميسر، والثأر، الكرم، وكذلك السفر والشعر وغيرها.

بعد هذه النصوص الواضحة يتضح لنا جلياً أن الكلمة قد أخذت تطلق على العهد القريب للإسلام أو على الأخص العهد الذي سبقه مباشرة، وكل ما فيه من وثنية أخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرمه الدين الحنيف من موبقات[4].

---

[1]) سورة البقرة، آية 257.
[2]) سورة آل عمران، آية 154.
[3]) سورة الأعراف، آية 199.
[4]) العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، ط7، ص 38-39.

أما من حيث التقسيم الأدبي للشعر ومعرفة ما هو جاهلي وغير ذلك إلى موضوعات فقد ألف فيها أبو تمام ديواناً[1].

العرب:

جاء في تعريف المجمع اللغوي بالقاهرة: "العرب: أمة من الناس سامية الأصل، كان منشؤها شبه جزيرة العرب"[2]. وقال الجوهري: "العرب: جيل من الناس والنسبة إليهم عربي من العروبة وهم أهل الأمصار، والأعراب منهم سكان البادية خاصة. وجاء في الشعر الفصيح: الأعاريب والنسبة إلى الأعراب أعرابي لأنه لا واحد له: وليس الأعراب لعرب وإنما العرب اسم جنس. والعرب العاربة هم الخُلّص منهم وأخذ من لفظه فأكد به كقول ليل لائل. وربما قالوا العرب العرباء وتعرب، أي تشبه بالعرب. وتعرب بعد هجرته أي صار إعرابياً، والعرب المستعربة هم الذين ليسوا بخلّص، وكذلك المتعربة والعربية: هي هذه اللغة. والعرب والعرب واحد، مثل العجم والعجم، والعريب تصغير العرب"[3]

كما يرى بعض المؤرخين: أن العرب جميعاً من أبناء اسماعيل عليه السلام- والصواب غير ذلك، قال ابن هشام: "فالعرب كلها ولد اسماعيل ويقول اسماعيل أبو العرب كلها"[4]

وقد فصل ابن اسحق القبائل العربية التي كانت قبل سيدنا اسماعيل –عليه السلام- ثم ذكر أبناءه فقال: (عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عرب كلهم، فولد نابت بن اسماعيل: يشجب بن نابت، فولد يشجب يطرب، ابن يشجب، فولد يعرب تيريح بن يعرب، فولد تيريح ناحور بن تيريح، فولد ناحور مقوم بن ناحور، فولد مقوم أدد مقوم فولد عدنان بن أدد". قال ابن هشام: "ويقال عدنان بن أدد"[5]

أصل العرب

العرب هم إحدى الأمم السامية التي تنتسب إلى سام بن نوح. ومن الأمم السامية الأخرى كذلك (البابيليون، والأشوريون والأرميون والعبرانيون والفينقيون)

---

1) المصدر نفسه.

2) المعجم الوسيط، معجم اللغة العربية، دار الدعوة استانبول (عرب).

3) تاريخ اللغة العربية وصحاح العربية، الإمام الجوهري، ط2 دار العلم للملايين (عرب) 1979.

4) السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام، ط دار المعرفة بيروت، 120/1.

5) المصدر نفسه.

وتطلق كلمة ساميين على مجموعة من الشعوب في الشرق الأوسط ذات القرابة بين لغاتها تتكلم بلهجات متقاربة، وتطورت إلى لغات سميت جميعها باسم السامية، وقد استخلصت هذه التسمية من التوراة.

أما القبائل العربية فهي

(أ) قحطانيون: وهم عرب الجنوب، فقحطان هو الجد الأول للقبائل القحطانية، وأبوهم يعرب بن قحطان.

(ب) عدنانيون أو اسماعيليون، أو حجازيون أو عرب الشمال، وينتهي نسبهم إلى سيدنا اسماعيل بن سيدنا إبراهيم –عليهما السلام- الذي بنى مع والده البيت الحرام.

لكن هذه القبائل العدنانية انقسمت من: نزار، ومعد ابن عدنان ومن بطونه (أياد ومضر وأشهرهم وأكثرهم ربيعة) [1].

أما اللغة: فقد سادت اللغة العدنانية، لغة أهل الشمال على جميع لهجات العرب، وكذلك سادت لهجة قُريش على جميع اللهجات العدنانية؛ لما اكتسبته من زخيرة لغوية في مواسم الحج والتجارة، (رحلة الشتاء والصيف إلى الشام واليمن)، وكذلك الأسواق الرائجة "ذي المجنة وذي المجاز وأشهرها سوق عكاظ"

ثم جاء القرآن الكريم بلغة قريش فتم لها السيادة على جميع اللهجات العربية، كما كانت لها سيادة على القبائل في الشرق، وداخل قبيلة القرشيين كانت السيادة الأولى للهاشمين "آل البيت" فهم الذين بنوا الكعبة وهم عمارة البيت وسقاية الحاج وإطعامه. كما اكتسبوا منزلة دينية واجتماعية، وأدبية كبيرة في أرض شبه الجزيرة العربية وغيرها من البلدان.

موطن العرب

موطن العرب في مجتمع ما قبل الإسلام جغرافياً، يمتد في رقعة واسعة[2] من الكرة الأرضية، ذات بقاع متباينة مختلفة بيئياً يكاد يجعل منها مواطن متعددة، وإن كانت مع ذلك وطناً واحداً، فمن البحر الهندي جنوباً إلى دمشق شمالاً، وبلاد

---

[1]) العصر الجاهلي، شوقي ضيق، مصر 1960. ص 17

[2]) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، دار الجيل بيروت – لبنان ، ص 2.

فارس ونهر دجلة غرباً[1]. فهي أكبر شبه جزيرة، وليست من تضاهيها من شبه الجزر حجماً، فهي أكبر من شبه جزيرة الهند، ومساحتها ثمانية أضعاف الجزر البريطانية، وأربعة أضعاف فرنسا، وربع أوروبا، وثلث الولايات المتحدة.

فقد وجدت تلك الأمة العربية تسوح بين السهول وفي الأغوار والأنجاد، وفوق غنن الجبال، وفي أجواف الصحاري والمتباعدة. وتحديد البلاد التي سكنها العرب ليست بالأمر اليسير المتفق عليه، وإنما يحتاج إلى تحديد المراد بلفظ العرب أولاً.

المناخ:

اختلف مناخها لاختلاف طبيعة الأرض من لهيب حر يشوي الوجوه، وسموم تلوح بالأبدان، وبين ثلوج تكلل الجبال، وصقيع يجمد الدم في الأطراف. وما بين هذا وذاك يوجد مناخ معتدل. هذا هو التباين الجغرافي لهذه الرقعة من الأرض.

بعد ذلك يمكن أن تتخيل كيف تكون الحياة والتعسيف البشري في هذه المنطقة[2]. وهي أكبر شبه جزيرة في العالم ومساحتها ثلاثة ملايين كيلو متر مربع، أما أرضها غير الجبال ففي الغالب صحاري، تربتها ذات رمال بيضاء متموجة تميل إلى الحمرة، تكثر فيها الرياح مسببة للكثبان والتلال، فالجزء الشمالي يغطيه الربع الخالي، ويمكن تحديد النفوذ[3] بوادي السرحان شمالا وجبال أجا وسلمى جنوبا، وعلى العموم جافة إلا في مناطق قليلة هي الواحات.

ثانياً: الدهناء: وهي الأرض المتكونة من رمل ناعم لا تصلح للنبات، وهذه تحتل وسط شبه الجزيرة، وقد عرف الجانب الغربي منها بالأحقاق[4].

ثالثاً: الحرار: جمع حرة وللعرب حرار معروفة، والحرة: هي أرض ذات حجارة نخرة سوداء تتكون من الحجارة والمعادن التي تسيل البراكين[1] ووسط هذه

---

[1]) أ/ الفراعنة والأشوريون: يقصدون بالعرب أهل البادية.

ب/ حدها الهمدناني بقوله: (جنوبها باليمن، وشماليها الشام وغربيها وشرقيها عمان إلى البحرين. وتسمى جزيرة العرب؛ لأن اللسان العربي شائع فيها كلها).

[2]) المصدر السابق، ص 1.

[3]) النفود أو النفوذ بالذال المعجمة: هي التي يصعب اجتيازها، والطريق النافذ هو السالك، انظر اللسان والقاموس: مادة (نفذ)

[4]) الحقف: المروج من الرمل، والرمل العظيم. انظر اللسان مادة (حقف) وهي منطقة الشجر قرب حضرموت اليمن، وفي الأحقاف منازل عاد وثمود وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم وبالاسم (الأحقاف) (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ) سورة الأحقاف، آية 21.

الصحاري نجد هضبة نجد، والتي تتكون من طبقة من الحجارة تتخللها بعض البقع الرملية[2].

هذا التقسيم الطبيعي لتلك الأرض، أما التقسيم الجغرافي من حيث أثر البيئة الجغرافية في الحياة الاجتماعية، والاقتصادية أو السياسية، فإنهم يقسمون بلاد العرب إلى مناطق وأقاليم هي:

الحجاز: وهي أرض جبلية تكثر فيها المياه، وبها الأودية وأشهرها وادي القرى، أما شمال الحجاز فيقع في العلا والمدينة، ومن جبالها إرم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: (إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) [3]، وتكثر الآبار والعيون به خاصة في المدن والقرى حيث الزرع والمروج الخصبة، وبها مداين صالح وقومه ثمود. أما أشهر مدن الحجاز فهي: مكة المكرمة ذات المركز التجاري والديني. وتقع جنوبها مدينة الطائف وهي مصيف تحيط به الآبار والأودية.

تهامة: عبارة عن سهول تمتد من البحر الأحمر، وتسمى بالغور لانحدارها[4]، وتعرف من الجنوب (بتهامة اليمن).

اليمن: وبها مدن كثيرة مثل: حضرموت، وعدن، ومهرة الشمر وغيرها فالجنوب بأكمله كان يسمى اليمن وبه سهول وأرض خصبة وأمطار موسمية، لذلك نجده يعمه الخير، وقامت عليه الحضارات القديمة التي وصفها الله عز وجل في كتابه العزيز بقوله: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)[5].

العروض: وهي صحاري وسهول ساحلية وتشمل اليمامة[6] والبحرين وقطر والإحساء، والكويت. وكانت تعرف بكاظمة.

---

1) ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مادة (حرر)، 829/2.
2) تاريخ العرب، فليب حتى، 19/1.
3) سورة الفجر، آية 7.
4) معجم البلدان، ياقوت الحموي، مطبعة السعادة، مصر، 516/8.
5) سورة سبأ، آية 15.
6) معجم البلدان، ياقوت الحموي، 516/8.

نجد: تقع في الوسط، ويشمل وداي الرمة، الذي يحازي الحجاز وتهامة، ويسمى بنجد العالية، وما جاورها يعرف بنجد السافلة، أما شرقها فيعرف باسم الوشم، وشمالها يوجد جبل طئ ويسمى بالقيصم أما نجد اليمامة[1] فمدنها: منفوحة: ويوجد بها قبر الشاعر الأعشى، ومن الشرق صحراء النفود بين نجد والبحرين وتسمى بالدهناء أو (رملة عالج) وهي منازل تميم وضبة في الجاهلية والإسلام.

الجبال: توجد شاهقة حتى استخدم عمرو بن كلثوم علوها مثلاً لعلو كتائبهم الحربية، وهذا الجبل الذي لفت نظرهم لم يكن نكرة، وإنما كان معرفة كما هو واضح في قول ابن كلثوم[2]:

نصبنا مثل رهوة ذات حد   محافظة وكنا السابقينا

النبات:

أهم تلك النباتات هي:

النخل: ويكثر في الحجاز، ويعتبر أهم طعام للبدوي، فإن قوام الحياة في البادية التمر واللبن، أما الجنوب فيزرع الشعير في وادي خيبر والمدينة، وتكثر الحنطة في اليمن.

وفي نهاية هذا الفصل أجمل القول بالحديث عن خاتمة قصيرة أوضح صورة الوطن والطبيعة المتميزة بنقاط وهي:

1- حددت معالمها بأسماء معلومة حتى اليوم مثل: نجد وتيماء والطائف ومكة والمدينة وغيرها من مناطق الحجاز.
2- إن الجزيرة العربية هي مهد العروبة والإسلام، وقد جاء في القرآن الكريم ذكر بعض أسماء المدن والمواضع مثل: مكة "بكة"، وأم القرى، وبدر وحنين وغيرها، كما ورد ذكر أسماء من الأماكن في كتب التفاسير والفقه والسيرة النبوية.
3- كشف النقاب عن طبيعتها الصماء من جبال ورهاد وتلال وصحاري.

[1]) المصدر نفسه والصفحة.
[2]) رهوة: اسم جبل، ذات حد: كتيبة ذات شوكة. ولانتشار الجبال في تلك المنطقة استعملت نذيراً للحرب، بإيقاد النيران علىقممها لتأتي النجدة.

4- حددت طبيعتها الحية من حيوان (سباع، بقر وحش وظباء) وكذلك النبات.

5- حدد طقسها، ببرده ومطره، وحره، وربيعه.

6- حددت الأماكن المتاخمة بأسمائها من: يمن، وعراق، وشام.

وهذا هو توضيح البيئة لمجتمع ما قبل الإسلام بشقيه البدوي والحضري. والذي جعلته تمهيداً ونافذة لأطل من خلاله على الأبواب القادمة.

المبحث الأول

الحياة القبلية وطبقاتها في المجتمع الجاهلي

الحياة الاجتماعية (الميلاد، الختان، الزواج، الطلاق، ومواقف الإنسان الجاهلي من الموت)

1/ نوع المكان المفضل لنزول البدوي:

إن حياة البدوي تفتقر لكثير من الخدمات التي يتمتع بها الحضري، فهو يقوم بوقاية نفسه من سيول الأمطار، ببناء بيت الشعر، وحماية نفسه من الوحوش الضارية، وجلب المياه لسقاية نفسه وصغار حيواناته، لهذا فإنه بدأ يتخير لمضارب خيامه الأمكنة التي يتيسر له منها بسهولة وقاية نفسه من المخاطر، واجتلاب المنافع. فكانت الأرض الصلبة المرتفعة أنسب الأمكنة لتكون داراً للعشيرة ويلقون عندها عصا الترحال؛ ليسهل لهم من هذا المكان المرتفع تصريف المياه إلى الوهاد ويستطيعون في تلك الأرض الصلبة تثبيت أوتاد الخيام التي تقاوم الرياح العاصفة، وتدفع الأمطار المنسكبة –وليكون حفر الجداول- التي تكون حول الخيمة منفذ لدخول السيول إليها- في تلك الأرض الصلبة حامياً لها فتؤدي مهمتها في تصريف المياه بسهولة ويسر.

إن هذه الأماكن العالية تكون غالباً مكشوفة في تكاثف الأشجار، مليئة بالعرصات؛ ليتخذها الفتيان أندية، وتساعد في حماية الماشية من هجمات الوحوش الضارية، وهذه الأماكن المكشوفة تتعرض لأشعة الشمس، وهذا يخفف كثيراً من تعفن روث الدواب، التي تتخذ من عرصات الحي مرقداً لها، ومأوى لصغارها، وأيضاً يقلل من توالد الذباب الذي ينفر منه اليدوي نفوراً شديداً. فهذه دار أمرئ القيس صلبة ينقطع عنها الرمل ذات عرصات حيث يقول[1]:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنـ ـزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومـ ـل[2]

ترى بقر الآرام في عرصاتهـ ـ ـا   وقيعانهـ ـا كأنه حب فـ ـلفـ ـ ـ ـل[3]

---

[1]) الديوان امرئ القيس، دار المعارف القاهرة، ط4، 1993م، ت. محمد الفضل إبراهيم، ص 8.

[2]) السِقط والسَقط: منقطع اللوى حيث يلتوي ويرق. حومل والدخول: موضفان.

[3]) الآرام: الظباء البيضاء. عرصات: البقعة الواسعة التي ليست فيها بناء. قيعانها: جمع قاع وهو المستوى من الأرض

وهذه دار طرفة مرتفعةعند مجاري المياه قريبة منها صلبة[1]

لخولة أطلال ببرقـ ـة ثهمـ ـ ـد تلوح كباقي الوشـ ـم في ظاهر اليد[2]

ولست بحلال التـ ـلاع مخافـ ـة ولكن متى يسترفد القوم أرفـ ـد[3]

وزهير يخبرنا بأن دار زوجته التي رحلوا عنها في مكان مرتفع عال. غليظ أي حومانه من الأرض وإنهم نزلوا بالقرب من مناهل المياه التي شبه سهوله الوصول إليه بوصول اليد إلى الفم:

أمن أم أوف دمنه لم تكلـ ـ ـم بحومانـ ـة الدراج فالمتكلـ ـم

بكرن بكوراً واستحرن بسحره فهن ووادي الرس كاليد للفـ ـم[4]

ولبيد يظهر حزنه، على الديار التي كانت مستقراً لعواطفه، وعامرة بأنس الأحباب، ولم تتوحش الهضاب وحدها وإنما توحش معها مكان الماء في منحدر الهضاب حيث قال[5]:

عفت الديار محلها فمقامهـ ـا بمنى تأبد غولها فرجامهـ ـ ـا[6]

وهكذا فإننا نجد هذه الأوصاف تغنى بها كل شاعر من الشعراء الجاهليين، فبدأت قصيدته بذكر ديار الأحبة فعنترة وصفها بأنها واسعة في قوله:

يا دار عبلة بالجواء تكلمـ ـي وعمي صباحاً دار عبلة وأسلمي[7]

وإذا تتبعنا مطالع القصائد الجاهلية يتضح لنا أن اختيارهم لتلك الأماكن مبنى على قصد وإصرار، وإن غيرها لا يصح في نظر البدوي أن يكون مستقراً. وما البدوي إلا راحلٌ.

والرحيل ظاهرة اجتماعية في مجتمع ما قبل الإسلام، حيث أنها عبارة عن نماذج من العمل والتفكير، والإحساس، التي تسود مجتمعاً من المجتمعات، يجد

---

1) شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، ط4، ص 94.
2) خولة امرأة من كلب. البرقة كل رابية فيها رمل وطين. ثهمد: اسم موضع. أطلال ما شخص من آثار الديار.
3) التلاع: ما ارتفع من مسل المياه وانخفض عن الجبال.
4) الرس: الماء. شرح ديوان زهير، الدار القومية للطباعة والنشر، ط1962م، ص 97.
5) ديوان لبيد بن ربيعة، ت: إحسان عباس، الكويت، ط1962م، ص 97.
6) عفت: درست. بمنى: جبل أحمد عظيم. تأبد: توحش. الرجام: جبل آخر مستطيل. وقد تكون الرجام بمعنى الهضاب.
7) الجوى: هو بطن من الأرض الواسعة في انخفاض. التبريزي ص 95.

الأفراد فيه أنفسهم مجبرين على إتباعها في عملهم وتفكيرهم، بل وهي تفرض على إحساسهم[1].

ومما يؤيد هذا قول ابن خلدون واصفاً لهذا المجتمع: (إن أهل البدو وهم المرتحلون للمعاش الطبيعي، والقيام على الأنعام وإنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس، والمساكن، وسائر الأحوال والعوائد. مقصرون عما فوق ذلك من حاجي، أو كمالي، يتخذون البيوت من الشعر والوبر والشجر[2].

الأسواق: وأهمها عكاظ، ذو المجنة، وذو المجاز.

عكاظ: وتقام من أول ذي العقدة إلى اليوم العشرين منه، وقد أقيمت تلك السوق بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة. وبقيت إلى ما بعد الإسلام حتى سنة تسع وعشرين ومائة. وتجمع أكثر أشراف العرب بها للمتاجرة ومفاداة الأسرى، والتحكيم في الخصومات، وللمفاخرة بالشعر والخطب، في الحسب والنسب والكرم والفصاحة والجمال والشجاعة. ومن أشهر المحكمين في الشعر "النابغة الذبياني" ومن أشهر خطبائها "قيس بن ساعدة الأيادي" وقد ذكرها الشعراء، وحضرها منهم الرجال والنساء، ولقريش عظيم الأثر فيما نجم عن اجتماع العرب بتهذيب لغتهم[3]، فسارت بها القبائل، وعندما جاء الإسلام بلغتهم تمت لها السيادة.

2/ طبقات القبيلة في مجتمع ما قبل الإسلام

تتكون القبيلة في مجتمع ما قبل الإسلام من ثلاث طبقات هي: أبناء القبيلة، الموالي، والعبيد.

أ/ أبناء القبيلة: وتربطهم صلة الدم، وهم عماد القبيلة وقوامها، وعليهم واجب حمايتها والدفاع عنها والتعصب لها، ومنهم سيد القبيلة وشيخها.

ب/ الموالي[4]: وهم الضعفاء والخلعاء، وأدنى منزلة من أبناء القبيلة، وهؤلاء إما أن يكونوا موالي بالجوار أو الحلف، وهو أن يحتمي بعض الأفراد بقبيلة أخرى غير قبيلتهم، فتتعهد بحمايتهم، أو يحتمي بفرد من أبناء القبيلة فيكون مولاه ويعيش

---

1) أسس علم الاجتماع، عبد الرحمن بن محمدين خلدون، حسن شحاتة، النهضة المصرية، ط2، 1955م، ص 109.

2) المقدمة، ابن خلدون، ت و ش علي عبد الواحد وافي، المطبعة الأسرية بولاق 1332هـ، الباب الثاني، ص 121.

3) جواهر الأدب، أحمد الهاشمي، مؤسسة المعارف، بيروت 14/2.

4) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ط8، 1997، ص 61-62.

في ظل القبيلة، ولكل منهما أن يرث صاحبه إذا مات وحقوق المولى على أي حال –لا تبلغ حقوق الأصيل "ابن القبيلة"، فلا يستطيع المولى أن يجير على القبيلة كما يفعل بعض أبنائها، وسرعان ما تنعقد بين المولى وجاره رابطة قوية، فالحامي يحافظ على عهده وجواره، ويحرص على الوفاء له، فمن أقبح العيوب عندهم نقض العهد والغدر، فهم يحقرون من يعقد ويتوانى من نصرة جاره أو يغدر به، حتى أنهم كانوا يرفعون بذلك لواءاً في الأسواق تعبيراً وتشهيراً.

أما الخلعاء: هم الذين تخلعهم القبيلة لأسباب تصدر من الفرد لكثرة جناياته، فيستجير بقبيلة أخرى فتجيره، ويكون فرد منها وأحد أبنائها له ما لهم وعليه ما عليهم، أو يتصعلك ويصير صعلوكاً نتاج الظلم.

التعريف بالصعلكة: في لسان العرب[1]: "الصعلوك الفقير الذي لا مال له، وزاد الأزهري ولا اعتماد وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك.

وتصعلكت الإبل: خرجت أوبارها، وانجردت وطرحتها، ورجل مصعلك الرأس مدور. والتصعلك الفقر، وصعاليك العرب فقرائها. وكان عروة ابن الورد وهو أحد الصعاليك يسمى عروة الصعاليك؛ لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنم.

ومن هذا النعت اللغوي الذي سجله ابن منظور في كتابه لسان العرب، وكذلك سجله كثير من اللغويين في معاجم تستطيع أن نتبين أصل المادة العام الذي تشترك فيه في المعنى فالإبل تتصعلك: إذا انجردت أدبارها وطرحتها.

والخيل: تتصعلك إذا دقّْن وطار عِفاؤها عنها[2].

الأسباب التي أدت إلى الصعلكة "ظلم العشيرة للفرد"

إذا كان الجوع أقسى ما يصبه الفقر من سياط على جسد الفقير، فإن هناك سياطاً أخرى لا تقل قسوة من سياط الجوع، ولكنها سياط نفسية بسببها الفقر على نفس الفقير. وإذا تتبعنا أخبار الصعاليك وأشعارهم، نجد شعور حاد بالفقر، وإحساساً مريراً يوقعه على نفوسهم، وشكوى صارخة من هوان منزلتهم الاجتماعية، وعدم

[1]) لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، مادة (تصعلك)، 2451/4.
[2]) المصدر نفسه، ص 2452.

تقدير المجتمع لهم وعجزهم من الأخذ بنصيبهم من الحياة كما يأخذ سائر أفراد المجتمع، أو الوقوف معهم على قدم المساواة في معترك الحياة، لا يعجزهم، وإنما لظلم المجتمع لهم، وحرمانهم من تلك العدالة الاجتماعية التي يطمح إليها كل فرد في مجتمعه.

أما نظرة هؤلاء الصعاليك الفقراء، المحتقرون من مجتمعهم، المنبوذون من إخوانهم، لابد لهم من شق الطريق بأنفسهم، بعد تجريدهم من كل حقوقهم في القبيلة. فلا يجدون أمامهم إلا أمرين: إما أن يقبلوا هذه الحياة الذليلة المهينة والتي يحيونها على هامش المجتمع، في أطرافه البعيدة خالف أديار البيوت يخدمون الأغنياء، وينتظرون فضل ثرائهم، أو يستجدوهم في ذلة واستكانة. وإما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة أبية، يفرضون فيها أنفسهم على مجتمعهم، وينتزعون لقمة العيش من أيدي من حرموهم منها، دون أن يبالوا في سبيل غاياتهم، كانت الوسائل مشروعة، أم غير مشروعة، فالحق للقوة والغاية تبرر الوسيلة.

وقد سلك الصعاليك السبيلين أو –بعبارة أدق- انقسموا إلى طائفتين: طائفة قبلت الوضع الاجتماعي الذليل، وطائفة رفضت ذلك الوضع، وأبت أن نعيش تلك الحياة الساقطة المهينة، كما وجدت في القوة؛ قوة النفس، وقوة الجسد، وسيلة تشق بها طريقها في الحياة. وتتجلى قوة نفوس هذه الطائفة من الصعاليك في استهانتهم بالحياة في سبيل الوصول إلى الغاية التي يسعون إليها. وإنهم يريدون أن يجعلوا لهم مكانة في هذا المجتمع الذي يحتقرهم عن طريق فرض أنفسهم بالقوة، وفي سبيل هذا لا يبالون بشيء، فهم جميعاً يؤمنون بفكرة الفناء في سبيل المبدأ، وما قيمة الحياة إذا عاش الإنسان فقيراً محتقراً، منبوذاً من مجتمعه، مجفواً من أقاربه؟ إن الموت في هذه الحالة خير من الحياة، فإذا قست عليهم الحياة فإنهم لا يستكينون لها، أو يشنون عليها حرباً لا هوادة فيها، وإذا كانت قد ألفت بهم في الرغام فإنهم سينهضون برغم كل شيء. وبرغم الفقر وما يلاقونه من مجتمعهم، كرماء حتى ليضرب بهم المثل في الكرم[1] أما مادة هذا الكلام فهي –بطبيعة الحال- ما

---

[1]) "كل صعلوك جواد". مجمع الأمثال، الميداني، ت: أبو الفضل أحمد النيسابوري، دار مكتبة الحياة بيروت 1961م، 90/2.

يغنمونه في غزواتهم في أرجاء الجزيرة العربية، وغاراتهم على القبائل، أو هجومهم على القوافل التجارية، أو على طبقة الأغنياء البخلاء. فقد كانت هذه الغنائم تتيح لهم فرصة – مهما كانت قصيرة- لكي يتشبهوا بالسادة الأغنياء في البذل والعطاء واكتسابهم المحامد. والصعاليك هؤلاء لهم رابطة قوية تجمعهم ومنهم شعراء كذلك كالشنفري، وتأبط شراً، وعروة بن الورد وغيرهم. وللصعاليك صفات يعرفون بها وهي: سرعة العدو والجري، طول القامة، وضخامة الجسم.

والصعلوك قد ينضم لقبيلة أخرى يدافع عنها فتحميه وتعطيه حق الانتماء لها. على أن الخلع لم يكن ميسوراً، وما كان يحدث إلا في حالات نادرة فالفرد عزيز على قبيلته، وحريص عليها حرصه على حياته.

ومن الموالي أيضاً العبيد المعتوقون، فهم في حماية القبيلة، وتكون العلاقة بين المعتق والعتيق ولاء، فلا ينسى العتيق فضل سيده وحسن صنيعه[1].

ج/ أما الطبقة الثالثة فهم العبيد المملوكين، ويقومون بخدمة الأسياد، وهؤلاء أقل مكانة من الموالي، يقومون بالأعمال الشاقة المرهقة، وكانت حالتهم بائسة لا سيما الذين كانوا في ملك أناس قساة القلوب غلاظ الأكباد، وكذلك من العبيد أسرى الحروب.

تخضع القبيلة لكلمة شيخها وتسمع مشورته. وهذا الشيخ يكون محل التقدير والطاعة بمقدار التزامه بمقدساتهم وعلى رأسها: الكرم، والنجدة، نصرة أفراد القبيلة وغير ذلك من القيم، وكل فرد منهم تتوق نفسه لخدمة القوم، سمح الخلق، طيب العشرة، حامي العشيرة كما يتضح من قول طرفة:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني عنيت فلـم أكسل ولـــم أتبلـد[2]

وهذا المحيط القبلي ما قال به علماء الاجتماع بقولهم: "فالفرد الاجتماعي هو ذلك الذي يستجيب لحكم العادة لرغبات الآخرين دون نظر إلى جزاء أو ثواب" ولكن هذا الشخص المثالي، السمح سرعان ما يثور وينقلب وحشاً كاسراً، كما قال فارسهم عنترة بن شداد:

---

[1]) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، دار المعارف القاهرة ، ط3، 1959م، ص 41.

[2]) إذا قالوا من فتى لهذه المغارة خلت أنهم يعنونني.

أثنى علي بما علمت فإنــــني   سمــح مخالقتي إذا لم أظلــم[1]

إذن الظلم في مجتمع ما قبل الإسلام أقوى باعث للحرب، والظلم غريزة في الإنسان، وظاهرة ولدت مع المجتمع أياً كان. كما يقرر ذلك ابن خلدون بقوله: (ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض –امتدت عينه إلى متاع أخيه، امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصده وازع، كما قال:

والظلم من شيــم النفــوس   فإن لم تجد ذا عفة فلعله لا يظلــم[2]

وكل مجتمع في الجاهلية يتكون من هذه الطبقات الثلاث إلا مجتمع قريش[3].

3/ العلاقات الاجتماعية

القبيلة: "وحدة الحياة في المجتمع الجاهلي

تقوم الوحدة الاجتماعية في البادية على وحدة القبيلة، وهي عبارة عن مجموعة من مضارب الخيام، وكل فرد فيها يعرف جلسته بالآخر وهي صلة الدم أو النسب. يقفون وقفة رجل واحد ومستجيبون لصيحة واحدة. وفي اعتقادهم أن المكارم إليهم انتهت وعندهم وضعت رجلها، وطبيعة العلاقة في هذا الوسط الاجتماعي، تقوم على أساس الإحساس بقيمة الفرد واحترام حقوقه والاعتراف بمكانته وسط ا لجماعة، وأي تهاون في رعاية هذه الحقوق تعرض حياة الجماعة للزعزعة والانقسام. والقيادة في هذا المجتمع، تأتي بطريقة تلقائية، نتيجة لرصد تصرفات الفرد وسط الجماعة، في كل الحالات، شدة، رخاء، أمن، خوف، والسلم والحرب، فيجد نفسه قد كلفته القبيلة بأعباء.

ويستطيع الدارس لأحوال المجتمع العربي في عصر ما قبل الإسلام أن يعزو الأسباب التي دعت إلى تكوين القبيلة، وإلى اضطراب الحياة، وعدم استقرارها، لعدم نظام موحد يحفظ للناس أرواحهم[4]، وإلى قسوة الحياة في تلك الصحراء، فقد كان النظام القبلي في شبه الجزيرة العربية ضرورة اجتماعية، فرضتها الطبيعة بما

---

[1]) المخالقة: المفاعلة من الخلق أي إذا بارزني أحد في الأخلاق وجدني سمراً.
[2]) المقدمة، ابن خلدون، ص 127.
[3]) في أدب ما قبل الإسلام، محمد عثمان علي، دار الأوزاعي بيروت ط2، 1984-1986م، ص 45 يتكون مجتمع قريش من أربع طبقات هي قريش البطاح، وهم أبناء قريش المتفرعون من قبيلة كنانة. وقريش الظواهر وهم القبائل التي نزلت مكة مخالفة بطنا من بطون قريش مثل أسد وغيرهم نزلوا مكة وخالفوا بني عبد شمس ومناف، والثالثة وهم ا لموالي، والرابعة طبقة العبيد.
[4]) تاريخ النقائض في الشعر العربي، أحمد الشايب، ط3، النهضة المصرية 1966م، ص 37.

فيها من جفاف وجدب وشظف لعيش، وصراع دائم حول موارد الماء والكلأ من أجل حفظ الحياة والبقاء[1]. فلا مقام للفرد مستقلا، ولا غنى للقبيلة عن أي فرد منها، فقد كانوا متضامنين أشد ما يكون التضامن وأوثقه، وهو تضامن أوثق عراه حرصهم على الشرف، وتكونت حوله مجموعة من الصفات الكريمة، ولعل خير كلمة تجمعها كلمة المروءة التي تضم "الحلم، الكرم، القوة في الصبر عند البلاء والنجدة، حماية الجار، وسعة الصدر، والأعراض عن شتم اللئيم، والغض عن العورات"[2]. وأبرز خصلة يعتز بها البدوي ويتميز بها عن غيره هي الكرم.

ولعل هذه القيم التي سادت عصرئذٍ، كانت الدافع الرئيسي الذي دفع الإنسان إلى التمسك بالقبيلة؛ لأنه وجد في ظلالها ما يروى به ظمأه من الحب والعطف والحنان. والقبيلة أشبه ما تكون بدولة مصغرة، وهي دولة الإعرابي، ومؤنة في تلك الصحراء[3].

وعلى أبناء القبيلة أن يخضعوا لواحد منهم يرشحونه للرئاسة والسيادة عليهم، مهتمة الإبقاء على وحدتهم، وحفظ تماسكهم، وعلى المرء أن يمنح انتماءه وولاءه لهذه الوحدة الاجتماعية، بحكم ما يربطه بها من روابط القربى والدم، وقل من ينتسب إليها من لم يشاركها النسب، إلا إذا دخل القبيلة عن طريق الحلف أو الولاء. ويرتبط أبناء القبيلة بمصير مشترك، وتحكمهم مصالح مشتركة، وتجمعهم شبكة واسعة من الخصائص النفسية والعاطفية والوجدانية؛ لأن الإنسان كائن حي اجتماعي لا يستطيع أن ينأى بنفسه عن الآخرين.

القبيلة: سكان الجزيرة العربية يعيشون عيشة قبائل، فالقبيلة هي الوحدة التي يبني عليها نظام حياتهم، وأفرادها ينتسبون إلى أب واحد. والقبيلة تنقسم إلى أسر ونظام الأسرة كان في هذا الطور هو المعروف عند علماء الاجتماع: بطور السلطة الأبوية، إذا كان الأب فيها واسع السلطان نافذ الكلمة على كل أفراد الأسرة يتصرف في مالهم وفي شئونهم، ويقطع في الأمور دونهم، وهو المرجع الأعلى لهم جميعاً،

---

[1]) أدب العرب في عصر الجاهلية، حسين الحاج حسن، مؤسسة النشر بيروت 1984، ص 217.

[2]) العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف مصر، ط7، ص 67.

[3]) تاريخ العرب مطول، فليب حتي، مطابع الغندور، ط4 1965، 28/1.

كما أن بعض الأسر تمتاز بصفات، تجعل لها الرياسة والشرف كبيت هاشم، وبيت أمية في قريش، وبيت زرارة في تميم[1]. والنظام السائد في معظم الجزيرة العربية هو النظام القبلي حيث تشكل القبيلة وحدة إدارية منفصلة، وتتفاوت أقدار هذه القبائل قوة وضعفاً بحسب عدد أفرادها وقوتهم فمنهم من يقول:

كأنا والسيوف مسـ ـللاتُ ... ولدنا الناس طِراً أجمعينـ ـا
ملأنْا البر حتى ضاق عنّـا ... كذلك البحر نَملؤه سفينَـ ـا[2]

أ/ الانتماء للقبيلة

والانتماء للقبيلة ظاهرة إنسانية يعزز بها المرء كيانه، ويقوي وجوده، وبينها وبينه علاقة تلازمية تتنوع بتنوع العلاقات الإنسانية وقد يضيف نطاق هذه الظاهرة لينحصر في الأسرة – بوصفها أصغر وحدة اجتماعية- وقد يتسع ليشمل القبيلة كلها، أو الشعب كله.

ولكل قبيلة نظمها وتقاليدها وعرفها الأخلاقي، الذي يجب على كل فرد من أفرادها أن يعلن أعلى درجات الانتماء إليه، وأن تخضع الفردية إلى الجماعة، ويقابل هذا الانتماء من الفرد، توفير الأمن والحماية له، والدفاع عنه إذا مسه ضيم، ولهذا كان الخلع- إسقاط القبيلة لهذا الفرد- الذي تعددت جرائمه عقاب من يخرق هذا العقد الاجتماعي[3].

إن مجتمع القبيلة في عصر ما قبل الإسلام، بعلاقته ونظمه وعاداته وأعرافه هو المجتمع الذي يولد فيه الإنسان العربي، ثم ينشأ متشرباً بهذه العادات التي تبني على دعامة أساسية هي النسب. وحينما يفتح المرء عينيه على ما حوله يجد كل أمرئ من قبيلته يتغنى بانتمائه، ويعتد به بدءاً بأبيه وأخوته، وانتهاءاً برهطه وعشيرته، أما سيد القبيلة فعليه واجبات، تتمثل في: قيادته لها في الحروب، واستقبال وفود القبائل وعقد الصلح وغيرها.

---

[1]) جواهر الأدب، أحمد الهاشمي، 2/7-8.
[2]) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ت: أحمد محمد شاكر، دار المعارف القاهرة 1966م، 1/331.
البيان والتبيين، الجاحظ، القاهرة، ط4، 4/37.
[3]) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، ص 91، 92 د(ط-ت).

هيئة الحي في البادية

إن الأساس الذي يتكون منه الحي في البادية هو مجموعة أفراد العشيرة، تتناثر خيامهم حول الأماكن المفضلة عندهم.

وهذه الخيام تارة تكون عالية الارتفاع، كبيرة الحجم إذا كان صاحبها ميسور الحال ويسمى هذا النوع بالطراف، وهناك نوع يغطى بالوبر أو الصوف ويسمى بالخباء. ويتوقف حجم الخيمة، ونوع غطائها على حالة صاحبها الاجتماعية والمادية. كما يفصل ذلك كل من الألوسي والتبريزي[1]. فبيت الشريف يتكون من ثمانية أعمدة، ثم من دونه ستة، والفقراء أربعة أعمدة.

والأساس الذي تحتوي عليه هذه الخيمة هو قدر الإنضاج ما يحتاجون إليه من لحم وغيره، ويوضع على حجارة ثلاثة متساوية الحجم، يتركونها عند رحيلهم فتكون إحدى معالم الدار.

وجفان يقدم فيه الطاع وهي مكللة بفيض من جوانبها الزبد في الشتاء، وقع حسن في قلوب المساكين، ومظهر مرح للكرماء. ومن لوازم البدوي، وهو ضارب في مجاهل الصحراء قربة الماء التي لا يتخلى عنها، ولو كان راجلاً، فإنه ستجد مكانها. وما دام البدوي في تنقل دائم فإننا لا نتوقع له أساس يزيد على فرشه وغطائه، وما يساعده على تناول الطعام. ويتبع ذلك ما تحتاجه المرأة في تزين نفسها. ومما تحتاج له المرأة البدوية، صخرة تسحن فيها الطيب، ولا سيما إذا كانت عروساً، فإن سطح الصخرة يكون لماعاً كقول امرئ القيس[2]:

كأن على الكتفين منه إذا انتحى   مداك عروس أو صلاية حنظل

ومن ضروبات معيشة البدوي، الرحى التي يطحن عليها حبوبه، فإن عمرو بن كلثوم، وقد وضح الطحن بتقديم قبضة من الحب، بين دفتي الرحى، ويوضع أمامها ما يسقط عليه من طحن حين قال:

يكون ثفالها شرقي نجـ ـد   ولهوتها قضاعـ ـة أجمعينـ ـا

---

[1]) بلوغ الأرب، الألوسي، 393/3.
[2]) الثقاف: جلدة تجعل تحت الرحى، يسقط عليه الطحين، اللهوة: قبضة تلقى في الرحا.

هذه هي هيئة الحي، وهو قاطن، فكيف تكون هييئته وقد خلى من الأنيس[1].

ب/ ثياب البدوي

اتخذ العرب ثيابهم من أوبار الإبل وأشعارها، ومن أصواف الغنم ومن الكتان والحرير اللذين كانا يجلبان من مصر والشام، وتختلف ثيابهم، في تفصيلها وألوانها: فلهم "الرداء" يلقى على الظهور "والإزار" يأتزرون به و"الشعار" يلى أجسادهم "العباءات" يتلفون بها و"الأقبية" وهي الثياب الجيوب و"الأردان" يظهرون بها". وكان أهل الحضر يتفننون في كسوتهم ، فالكاهن لا يلبس المصنع، والعراف لا يدع تزيل قميصه وسحب ردائه، والحكم لا يفارق الوبر، والشاعر إذا أراد الهجاء دهن أحد شقي رأسه، وأرخى إزاره وانتعل نعلاً واحداً، وكان لحرائر النساء زي، ولذوات الريات زي، وأشهر ألوان ملابسهم البياض لملاءمته جوهم، ولا يزال إلى الآن في أرض جزيرة العرب الغالب عليهم، وقد حثت الشريعة على ارتدائه والتكفين فيه، ويليه اللون الأصفر والممصر، وهو الأحمر المشرب ببياض، وقد ورد في أشعار العرب ما يدل على اتخاذهم التصاوير والنقوش فيها فيمن ذلك المرجل "فيه صورة رجل" والمرحل "فيه صورة رحل" وهكذا المخيل والمسهم والمضلع والمؤرنب. وكانوا يتوجون رؤوسهم بالعمامات والعصائب، ويرخون فضلها من حلفهم أو يطوقون بها أحياناً عوارضهم وذقونهم[2].

كلام العرب: وصف كلام العرب لعتيبة بن سفيان قال[3]: "إن للعرب كلاماً هو أرق من الهواء، وأعذب من الماء، مرق من أفواههم مروق السهام من قسيها، بكلمات مؤتلفات، إن فسرت بغيرها عطلت[4] وإن بدلت بسواها من الكلام استعصيت فسهولة ألفاظها توهمك أنها لكنة إذا سمعتْ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طلبتْ؟ [5]

---

[1]) جواهر الأدب، أحمد الهاشمي، 67/2.

[2]) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، محمد هاشم عطية، دار الفكر العربي، مصر 1417هـ - 1997م، ص 192.

[3]) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أحمد الهاشمي، 360/1.

[4]) التعطيل: ترك الشيء ضياعاً

[5]) هذا النوع من الكلام يسمى السهل الممتنع.

1/ الميلاد

البنون "ذكور وإناث" مولد الغلام عيد تبتهج له القبيلة ويقام له الفرح، والفرح عندهم مرتبط بالغلام والفرس والشاعر وقالوا: تبتهج القبيلة وتهنأ لثلاث، فرس تنتج، غلام يولد، وشاعر ينبغ. أما الابنة فميلادها يوم بؤس وحزن والذي يبشر بقدوم البنت يتوارى خجلاً من الناس لما بشر به من فقر وعار[1] تجلبه لقبيلتها في معتقداتهم، ويتجلى ذلك المنظر صريحاً كما صوره القرآن الكريم قال الله تعالى في كتابه العزيز: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيم يَتَوارَى مِنَ الْقَوم مِن سُوء مَا بُشِّر بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىَ هوُنٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّراب أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ). [2]

كما أن بعض القبائل تئد البنت وهي حية خوفاً من الفقر والعار، أيضاً ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز في قوله: (وَإِذا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذِنْبٍ قُتِلَتْ)[3]، أيضاً من أسباب الوأد الغيرة على المرأة ومخافة العار إذا سبيت، ومنهم من كان يئد من كانت زرقاء شيما (بها علامة قبيحة) أو برشاء (بها نقط بيض) أو كسحاء (قصيرة) تشاؤماً، وكان يفعل ذلك القليل منهم، ومنهم من كان يئد خشية الإنفاق وخوف الفقر، وفيهم نزل قوله تعالى:

(ولاَ تَقْتُلُواْ أَوْلَادُكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وإِيَّاكُمْ إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً)[4]، وهذا نوع ألجأت إليه البيئة المجدبة، والمراد بالأولاد هنا البنات. ومنهم من زعم أن الملائكة بنات الله – سبحانه وتعالى عما يقولون- فألحقوا الإناث به لأنه أولى بهن (وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ)[5].

ويرى نيكلسون Nicholson أن الوأد يعود إلى سببين هما: المجاعات التي كانت كثيرة الحدوث في بلاد العرب القليلة الأمطار، كذلك التعالي الشاذ في

---

[1]) في أدب ما قبل الإسلام، محمد عثمان علي، ص 45.
[2]) سورة النحل، آية 58، 59.
[3]) سورة التكوير، آية 8 -9.
[4]) سورة الإسراء، آية 31.
[5]) سورة النحل، آية 57.

المحافظة على الشرف، فقد كان الآباء يخشون أن يضطروا لإطعام أفواه لا ترجى من أصحابها فائدة، أو أن يصيبهم العار إذا وقعت بناتهم في الأسر(1). ومنهم من كان ينذر أن يذبح واحداً من بنيه إذا بلغوا عشرة كما فعل عبد المطلب في قصته المشهورة(2).

وقد أبطل الإسلام هذه العادة وسفه من الذين يحزنون إذا رزقوا بنتاً، كما بين للوالدين مخشاة الفقر أنه هو الرازق.

ويرى الدكتور عبد الواحد أن الوأد الناشئ عن الخوف من الفقر لم يكن فيه تتميز بين ذكور وإناث ولذاك عبر القرآن الكريم بكلمه الأولاد في تمييز بين ذكور وإناث ولذاك عبر القرآن الكريم بكلمة في قوله تعالى:(ولا تقتلوا أولادكم من إملاق).

وإن وأد البنات كان أمراً دينيا؛ لأن في اعتقادهم أن البنت رجس من الشيطان، أو من خلق إله غير آلهتهم فيجب التخاص منها(3).

ولم يكن قتل الأولاد بدعة عربية، فقد فعلت بعض الأمم القديمة ما هو أشنع منه، فاسبرطة كانت تقضي بإعدام الأولاد الضعاف أو المشوهين عقب ولادتهم، أو تركهم في الصحراء طعاماً للوحوش والطيور، كما أن الأم اليونانية والرومانية كانت تغمس الوليد في دن من النبيذ مدة، فإن عاش دل على قوته وصلاحيته للحياة، وإن مات تخاص المجتمع من عضو ضعيف، وهذا النظام أقره فلاسفة اليونان في مقدمتهم أرسطو وأفلاطون.

كراهية بعضهم للبنات

وما من شك أن القبائل التي وأدت كانت شديدة الكراهية للبنات، سواء أكان ذلك لأنهن لا يساهمن في كسب الرزق ولا في الدفاع، أم بعقيدة دينية. وقد هجر أبو حمزة الضبي امرأته لأنها ولدت بنتاً، فمر بخبائها يوماً وإذا هي ترقصها وتقول:

---

1) Nicholson p. 90 - 91

2) السيرة النبوية، ابن هشام، 64/1 – 67.

3) الأسرة والمجتمع 120 – 123.

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظلُ في البيت الذي يلينا

غضبان ألا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينـ ـا

وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا

وننبت ما قد زرعوه فينا

فدخل الشيخ حتى ولج البيت فقبل رأس امرأته وبنتها[1].

على أن الوأد لم يكن عاماً، قال قتادة: كانت مضر وخزاعة يدفنون البنات أحياء، وأشدهم في هذا تميم، وزعموا أنه خوف الفقر عليهن وطمع غير الأكفاء فيهن[2]. وقيل أن القبائل التي كانت تئد ربيعة وكندة وتميم وأفراد مرموقون[3].

ولكن الكثرة من العرب لم تئد، بدليل بقاء النساء يلدن وبدليل حب الشعراء والرجال للمرأة وفخارهم بها. على أن بعض سادات بني تميم كانوا يعيبون وأد البنات وينقذون من هذا الظلم الوحش، واشتهر بذلك صعصعة بن ناجية جد الفرزدق حتى سمي محي الموءودات. وكان السبب الذي دعاه لذلك أنه مر يوماً برجل يحفر ليئد ابنته وامرأته تبكي فسأله عن السبب فأجابه بأنه الفقر، فعرض عليه أن يستبقى ابنته ويمنحه ناقتين عشراوين يتبعهما أولادهما ليعيشوا من ألبانها، فقبل الرجل، فأعطاه صعصعة ناقتين وجملاً، ثم قال في نفسه: إن هذه لمكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب، فجعل على نفسه ألا يسمع بموءودة إلا فداها[4]، فجاء الإسلام وقد فدى كل موءودة. وقد فخر الفرزدق بذلك كثيراً فقال:

ومنا الذي أحيا الوئيد وغالب وعمرو ومنا حاجب والأقارع

أولئك آبائي فجئني بمثلهـ ـم إذا جمعتنا يا جرير المجامـ ـع

وهذا الوأد يكون في سن مبكرة من العمر، أو تنفي إلى الجبال لرعى الإبل.

الذكور أما الغلام فيتباهون به؛ لأنه حامي القبيلة يدافع عنها، ويحمي زمامها، فيتفاخرون بكثرة الذكور.

---

[1]) البيان والتبيين ، الجاحظ 1/ 186.

[2]) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، أحمد محمد الخوفي، دار القلم بيروت – لبنان ص 228. (د.ت)

[3]) بلوغ الإرب، 42/3.

[4]) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ط دار الكتب المصرية القاهرة، 402/9.

تربيتهم كانوا يربون أبناءهم على البطولة والمحامد وعلى القوة والشدة، فأرادوا أن يكون بنوهم أقوياء أشداد، فتخيروا لهم أسماء فيها قوة ورهبة. فسموا أبنائهم بأسماء الحيوان، وخاصة ما يستكره منها كأسد وثور وفهد، كذلك حنظلة وصخر، ويسمون عبيدهم بما يستحب كرياح وأيمن، وقد يكون الغرض من الأسماء القوية المرعبة لأبنائهم أن يخيفوا بها أعدائهم، فقد سئل أبو العرفيش الأعرابي: لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب، وعبيدكم بأحسنها كرياح ومرزوق؟ فقال: إننا نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا[1]. ويرى الجاحظ أنهم كانوا يتفاءلون بأسماء كلب وحجر وحنظلة ... الخ[2]؛ وكانوا يعززون الذكور، لأن الذكر يغنى حيث لا تغنى الأنثى[3].

الختان

ومن عادات العرب في مجتمع الجزيرة العربية الختان، يختنون الذكور والإناث، يختنون الطفل قبل بلوغه الحول سواء أكان ذكراً أم أنثى.

الزواج[4]: أما الزواج فهو عقد بسيط، وكان الرجل يتزوج المرأة برضاء أهلها، ولم يكن لها رأي في الانفراد بالأمر دونهم، وهذا هو النظام الذي شاع عندهم، وللرجل حق الطلاق ما لم يشترط غير ذلك عند العقد، والزواج عندهم أنواع منه: الأشبه بالمسافحة وهو إذا تغلبوا على الرجال أخذوا نساءهم واستحلوهن زوجات لهم. أما الاتصال بالمرأة بطرق أخرى كالدعارة، فقد كان مقصوراً على الساقطات، وذوي المجانة من الشبان، وقد سموهن صاحبات الرايات؛ لأنهن كن ينصبن على أبوابهن رايات لتدل عليهن، وايضاً سموهن بالمظلمات؛ لأن تسلل الفتيان إليهن كان ليلاً في جنح الظلام. وكانوا يستولدون السباب ولكن لا يلحقن نسب. الولد بأبيه إلا إذا ادعاه، ولذا كان من مفخرة الرجل عندهم إذا كانت أمه حرة، فإذا كانت أمه أمة افتخر بما يعوض نقصه كعنترة بشجاعته. حيث أنهم ما زالوا بحاجة إلى دفاعهم عن سواد لونهم إلى ما بعد العصر الجاهلي، ومن الطريق في ذلك أن صبياً خطب

---

[1]) حياة الحيوان، الدميري بولاق، 242/12.
[2]) الحيوان، الجاحظ ، ص 243/12.
[3]) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، ص 224.
[4]) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري، ص 219.

جارية حمراء فرفضته قائلة: إليك عني فوالله لكأنك من طوارق الليل. فقال لها: فأنت والله لكأنك من حوارق النهار. فقالت: ما أظرفك يا أسود! فغاظه قولها فقال لها: هل تدرين ما الظرف؟ إنما الظرف العقل! فقالت له انصرف حتى أنظر في أمرك. فأرسل إليها هذه الأبيات فقال:

فإن أك حالكاً فالمسك أحوى ... وما لسواد جلدي مـن دواء

ولي كرم عن الفحشـاء نـاء ... كبعد الأرض مـن السمـاء

ومثلي في رجالكـم قليـ ـل ... ومثلك ليس يعدم في النسـاء

فإن ترضى فردي قول راض ... وإن تأبي فنحن على السواء[1]

فلما قرأت الشعر قالت: المال والشعر يأتيان على غيرهما فتزوجته. وعرفوا بتجاربهم أن زواج الأقارب يضعف النسل – وهذا ما قره العلم الحديث.

ومن عجيب أمر بعض القبائل في الجاهلية إنهم كانوا لا يزوجون بناتهم إلا من اتصف بصفات عديدة منها الإلمام بالزجر والعيافة. وجاء في مجمع الأمثال للميداني عن المفضل الضبي أن ابن أروى الكلاعي خرج تاجراً من اليمن إلى الشام، فسار أياما ثم جاد عن أصحابه فبقى منفرداً في تيه من الأرض لا يعرف له أول ولا آخر. فسار حائراً إلى أن وصل إلى قوم لا يدري من هم فسأل عنهم فأخبر أنهم همدان، فنزل بهم وعاش بينهم مدة من الزمن، ويقال أنه كان طريراً ظريفاً فهويته امرأة منهم وهواها فخطبها فرفضوا تزويجه منها؛ لأنهم كانوا لا يزوجون إلا شاعراً أو عائفاً أو عالماً بعيون الماء وسألوا عن ذلك فلم يعرف منها شيئاً ولم يزل ابن أروى يلح عليهم الطلب حتى زوجوه[2].

أما تعدد الزوجات فلا حد له عندهم –والعصبية في الزواج صيرت ابن العم هو المالك الحقيقي لابنة عمه، لا تزف لغيره إلا بإرادته.

أما تعدد الزوجات فقد كان شائعاً لم يكن لهم عدد ينتهون إليه، فقد علل عمر فروخ لوجود هذه الظاهرة في مجتمع ما قبل الإسلام- حيث ذكر أن الحروب التي كانت دائرة بين هذه القبائل العربية، قد جعلت عدد الرجال في القبيلة الواحدة يقل

---

[1]) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، 353/1.

[2]) بلوغ الإرب، الألوسي، ص 321.

من عدد النساء، ولما كان البدوي حريصاً على أن تظل الأنساب معروفة في عمودها الخصوص يتعرضن من الرجال، سمح لنفسه يتعدد الزوجات، ولو قبل الجاهلي أن يترك النساء الزائدات على عدد الرجال يتعرضن وجوه الرجال لاختلاطات الأنساب، وفقد الجاهلي الفخر الأعظم من حياته الاجتماعية[1].

وهنالك نوع آخر من الزواج هو زواج امرأة الأب، وكان الرجل يتزوج امرأة أبيه بعد موته، ويدل عليه قول عمرو بن معد يكرب في امرأة أبيه حين كرهته يقول:

فلولا إخوتي وبني منهـ ـا   ملأن بـ ـذي شُطـ ـب يميـ ـن[2]

الطلاق

ومرجعه في الجاهلية الرجل كما تقدم في الزواج، وكان الطلاق نظاماً عاماً عند العرب واليهود واليونان والرومان، وقد أباحه الإسلام وإن ضيق من دائرته. والعرب يطلقون الثلاث بالتفريق، ومن ذلك قول الأعشى وقد هدده أهل امرأته بالضرب إن لم يطلقها فقال:

أيا جاري بيني فإنك طالِقـ ـةْ   كذاك أمرؤ الناس عادٍ وطارقه[3]

فقالوا له ثانية! فقال:

وبيني فإن البين خير من العصا   وإلا نزال فوق رأسك بارقـ ـه[4]

فقالوا ثالثة! فقال:

وبيني حصان الفرج غير ذميمة   ومرموقة فينا كذلك وامقـ ـه[5]

وقد ارتفعت مكانة بعض النساء في هذا المجتمع إلى حد بعضهن كن يطلقن أزواجهن، وكان طلاقهن إن كن في بيت من شعر حوله الخباء، إن كان بابه قبل المشرق حولته قبل المغرب، وإن كان بابه قبل اليمن حولته قبل الشام فإذا رأى ذلك الرجل علم أنها قد طلقته فلم يأتِ لها[6]، رووا أن ماوية بنت عفزر طلقت زوجها

---

[1]) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، محمد هاشم عطية، ص 60.
[2]) المصدر السابق، ص 116.
[3]) الجارة: هنا زوجته، بيني: ابتعدي، غار وطارقه: ذاب وآتٍ
[4]) وإلا: أي وإن تفارقي. وروى (وألا بفتح الهمزة)، بارقة: لامعة. المعنى يخاطبها قائلا: فارقيني وإن لم تفعلي ستظل العصا لائحة فوق رأسك.
[5]) حصان الفرج: عفيفه، المرموقة: المحبوبة. المعنى يقول لها إذ هي عفيفة غير ذميمية، بل محبوبة.
[6]) الأغاني، أبو الفرج، 102/16.

حاتما حين تحرق في كرمه[1]. وهذا يدل على أن بعض النساء في بعض القبائل داخل المجتمع الجاهلي كن ذات نفوذ وسلطان حتى في مسألة الطلاق.

موقف الإنسان الجاهلي من الموت

وهو ذكر يدل على أن الفقيد قد مات، على حسب التفجع والحسرة والأسف والتلهف، والاستعظام على حسب وضع الفقيد في القبيلة، ثم يذكرون صفات المدح مبللة بالدموع. ومن عادتهم عدم التحسر للذي يلقى حتفه في الحرب داخل المعركة؛ لأنه نذر نفسه للموت، وفي غير ذلك يعدون مآثر الميت.

الميراث

الميراث في مجتمع ما قبل الإسلام لم تكن له قاعدة مقيدة بنظام كما هو في الإسلام، فقد يتحالف رجلان فيرث أحدهما الآخر، كما يرث المتبني كالبنين، وقد يحرم الرجل زوجته وأولاده ماله ويهبه لبطل قبيلته[2].

هذه العادات في هذا المجتمع من (ميلاد "ذكر وأنثى"، ختان للأبناء، وزواج بأنواعه، وطلاق كذلك، وميراث. كانت سائدة على نظام جبار وجائر ظالم إلى أن أتى الإسلام بسماحته، ونظم هذه العادات وحدها بحدود، كفلت لكل نصيبه.

ومن عاداتهم أيضاً: إن الميت إذا كان عظيما ينشر خبر وفاته بين الناس ويشير الأصمعي لهذه العادة بقوله: (كانت العرب إذا مات ميت له قدر، ركب راكب فرساً، وجعل يسير في الناس ويقول "نعاء فلان" أي أنعه وأظهر خبر وفاته"[3]

وعند سماع النعي يمزق نساء الحي جيوبهن جزعاً، وينحن معددات مناقبه، ولهذا طرفة يطلب من بنت أخيه، أن تشق عليه جيبها وأن تشيد بمكارمه، وإن تصفه في المكان اللائق به حيث يقول:

فإن مت فانعيني بما أنا أهله   وشقي علي الجيب يا ابنة معبـد[4]
ولا تجعليني كامرئ ليس همه   كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي[1]

---

[1]) الأغاني، أبو الفرج، 102/16.
[2]) أدب العرب، عبود مارون، دار الثقافة بيروت، ط3، 1979، ص 16-17.
[3]) بلوغ الأرب، الألوسي، 11/3-12.
[4]) ديوان طرفة بن العبد، ش وتح: على الجندي، الأنجلو المصرية، ص 62.
أنعتي: أي أذكري من أفعالي ما أنا أهله.

أما لبيد فقد وصى ابنتيه بالحزن عليه حولاً كاملاً، وحدد أيضاً الصفات التي يريد وصفه بها حيث قال:

فقوما وقولا بالـ ـ ـذي تعلمانه   ولا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذي لا صديقه   أضاع ولا خان الأمين ولا غدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما   ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر[2]

وهناك عادة خاصة بمن يؤمن بحياة أخرى، فكان الرجل من هذه الفئة، إذا مات تربط ناقته التي يستعملها في سفره في قبره لتكون دابة له عند البعث، وهذه الناقة كانت مثالا للشقاء والبؤس. لأنها تربط ويشد وجهها بكساء، وتموت ظمأ وجوعا[3]، لهذا فإن لبيد شبه بها الأرامل اللائي ينعم عليهن بقوله:

تأوى إلى الأطناب كل رذية   مثل البلية قالص أهدامهـ ـا[4]

---

1) غنائي ومشهدي: أي لا ينعني في الحرب. غنائي ومشهدي في المجالس.
2) لبيذ الديوان، ص 51.
3) بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، ص 13.
4) الرذية: الناقة المهزولة – القالص: المرتفع، الأهدام: التوب الحلق.

المبحث الثاني

علاقة القبائل مع بعضها ونوع الثقافة في المجتمع الجاهلي

1/ علاقة القبائل مع بعضها

أ/ سياسيا

وهناك نوع آخر من العلاقات الاجتماعية، هو علاقة الحلف، فإن القبائل الضعيفة تلجأ لحماية نفسها بعقد حلف مع قبيلة أخرى كبرى؛ لتكون درعاً حامياً في ساعة الضيق وينظرون لهذا الحليف نظرتهم للقريب بخوض الحرب من أجله ويعتبرون الاعتداء عليه إهانة، واستخفافاً بحلفهم وحمايتهم، ويفتخرون إذا وجد الحليف في كنفهم الأمان كما يقول عمرو بن كلثوم:

وذا البرة الذي حدثت عنـه ... به نحمي ونحمى المحجرينـا[1]

ونحن غداة أوقد في خزازى ... رقدنا فوق رقد الرافدينـ ـا[2]

وأنا المانعون لما أردنـ ـا ... إذا ما البيض زايلت الجفونـا[3]

وغير هذين النوعين من الروابط فإن العلاقة في جزيرة العرب تقوم على قوة الشوكة، وأن الحرب وشيكة الوقوع متى ما وجد سبب لها، وما أكثره، فمن هذه الأسباب ضيق الكلأ والماء، الأمر الذي دعا بعض القبائل إحساساً بمكانتها، وإظهاراً لقوتها، تجنح للاستئثار بالكلأ دون غيرها، أو التصرف فيه وفق إرادتها، يمنعون من يشاءون ويعطون من يشاؤون. وقد تنشأ من جراء ذاك الحرب مثلاً بين بكر وتغلب وبهذا يفتخر ابن كلثوم بقوله[4]:

وأنّا المانعـون لمـا أردنـ ـا ... وأنا النازلون بحيث شينـ ـا

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ... ويشرب غيرنا كدراً وطينـا

ومنها الغزو طمعاً في المال، أو إظهار للقوة لترهيب القبائل الأخرى؛ لأن القبيلة القوية هي: المتعدية دائماً وهي الظالمة، ووصف القبيلة بالظلم ليس عيباً في

---

1) ذو البرة: رجل من بني تغلب بن ربيعة، والبرة: حلقة من صفر توضع في أنف البعير، والذي – البرة شعرة على أنفه يستدير كالحلقة
- الملجئينا: للاستجارة بغيرهم.

2) رفدنا: أي م نعنا.

3) إذا ما البيض زايلت الجفونا: السيوف سلت من أغمادها.

4) شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، ص 360.

منطق المجتمع الجاهلي بل هي مفخرة، جل أيامهم كانت إغارة من قبيلة لأخرى، ومع هذا قد يكون المظلوم المتعدي عليه مكان سب عجز عن رد العدوان.

ولما كانت الإغارة أمراً متوقعاً فإن اليقظة والتأهب، والاستعداد الدائم، هو شأن رجال العشيرة، وإقامة نقاط مراقبة حول الحي لرؤية غبار الإغارة بين مسافات بعيدة، وكل فارس متشح عنان فرسه في كل لحظة تأهباً لاشتعال المعركة، كما يوضح ابن كلثوم حالة التأهب بقوله:

فَأما يوم خَشْيتنَا علَيهـ ـم فَتُصبح خَيلُنَـا عصباً ثُبِينَـ ـا

هذه حالتهم في تحفز، ومعانقة للبواتر دائماً، وفي هذا الأمان والغفلة لا تجد سبيلها إلى أحيائهم، ولا سيما أيام الحرب. ومن أيامهم الحربية ما صوره عنترة عندما جاءتهم الجموع تدب تحت المجاج تتصاعد حلبتهم فكر عليهم، واتقى بشجاعة شرهم حيث قال: [1]

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم

لهذا فإن ابن كلثوم يحذر القبائل من مغبة الأعتداء عليه فإنه سيرد عليهم أضعاف ما فعلوا حيث قال[2]:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

لكنه مع هذا يبيح لنفسه الظلم كما رأيناه؛ لأن المنطق المسموح به في هذا المجتمع منطق القوة، ولكي تكون القبيلة قوية الشوكة، عزيزة المكانة، معترفاً بمجدها، لابد لها من خوض المعارك الضارية، والمهارات الحربية التي يورثها الآباء للأبناء، كما عبر زعيم التغلبيين عن كيفية حمايتهم لمجدهم بقوله[3]:

ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبينـا

ولكل قبيلة في فترة السلم تحاول تفخر بما أظهرته في أيام الحرب، ويكون الفخر حصاد موسم الحرب، على رؤوس المجامع في الأسواق العامة.

---

[1]) شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، ص 360.
يتذامرون: يحض بعضهم بعضاً.

[2]) المصدر نفسه، ص 366.

[3]) المصدر نفسه، ص 309.

ومن أسباب الحروب في بادية العرب علاقة القبائل بالممالك القائمة آنذاك. ودخولها في نزاع الملوك حول السلطة، واستنصار كل ملك بقبائل تقف بجانبه ضد أخرى. أو خروج بعض القبائل من طاعة ملك معين لامتناعهم عن دفع الخراج، واستعانته بقبائل أخرى لإخضاعها. ومجمل القول فإن الثأر، والكلأ، والنزاع حول السلطة، ونصرة القريب والحليف من أبرز دواعي الحرب بين القبائل في مجتمع ما قبل الإسلام، وبعد أن اتضحت لنا أسباب النزاع، فإننا نفصل القول في كيفية النزاع ووسائله ونتائجه سلباً وإيجاباً فنقول:

أما كيفية النزاع الجماعي فإن العرب البدو تعتمد على الكر والفر، ولا يخضع المتحالفون منهم لقيادة موحدة، وإنما كل قبيلة تحمل لواء تناصر حليفتها تقاتل معها وتموت دونها، لكن كل ذلك في إطار القبيلة؛ لأن هذه المعركة تتمخض عن مفاخرة كل قبيلة، أن تفخر بما تعمل، بلون رأته وفقاً لاستبسال فرسانه، كما في قول عمرو بن كلثوم:

بأنا نورد الرايات بيضـاً ونصدرهن حمراً قد روينـا[1]

لهذا السبب جاءت معد لنصرة قيس، في شكل وحدات قبلية، وعند الغارة تظهر الحرب في شكل التحام الجيشين، وانعقاد النقع على الرؤوس التي تتهاوى، والسيوف الباترة تقدح شرراً، وتنشر في ساحات الوغى الجثث معفرة مبعثرة، وعندئذ تفر مجموعة ممن أثخنتهم الجراح بكرها، فهؤلاء فرسانها القبائل يصفون معاركهم بكرها وفرها ممثلاً ذلك في قول ابن كلثوم[2].

نطاعن ما تراخى الناس عنـا ونضرب بالسيوف إذا غُشينا
بسمر من قنا الخطي لـ ـ ـدن ذوابل أو ببيض يختليـ ـ ـنا
نشق بها رؤوس القوم شقـ ـاً ونختاب بها الرقاب فيختلينـا

وتارة يختلط صهيل الخيل وأنات الجرحى، وصرخات المنذرين وهدير الأبطال، وتكسر عيدان الرماح في صدور الخيل، وتخضب الدروع بالدماء القانية،

---

1) الرايات: العلامات. يصدرهن حمراً قد روينا كناية على كثرة الدماء والشجاعة.
2) السمر من الرماح: أجودها، لدن: لينة، ذوابل: فيها بيض اليبس يعالينا. يعلون الرؤوس، تختليها الرقاب: تجعل الرقاب لها كالأخلاء وهو حشيش رطب. المصدر نفسه والصفحة ذاتها..

ويموج الجموع بعضه على بعض حتى يختلط الفار بالكار، وتمتزج قعقعة السلاح بأنات الجرحى وقد أظلم الفضاء بالغبار، وها عنترة بن شداد في مشهد حربي يصوره لنا قائلاً[1]:

لما رأيت القوم أقبل جمعهـم يتذامرون كررت غير مـذمم
يدعون عنترة والرماح كأنهـا أشطان بئر في لبان الأدهـم
ما زلت أرميهم بثغرة نحـره ولبانه حتى تسربل بالـدم

كما أن هناك نوعاً آخر من أنواع الحروب النظامية التي يقسم الجيش فيها إلى ميمنة وميسرة، ويعتمد على الزحف نحو العدو، في وضح النهار، وكل يعلم أنه مقضي عليه، إن لم يحكم عقله ويرجع إلى رشده، والزحف في هذا النوع من القتال نتيجة لاختلاطهم بالحضارات المجاورة كالفرس مثلاً وهو ما يقول عنه الألوسي: (أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم. وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب) [2].

وبعد أن علمنا أسباب النزاع السابقة، فإن تغلب كانت في نزاع مع مملكة الحيرة، أتضح لنا مصدر تأثير قبيلة تغلب بطريقة حروب العجم على حد تعبير الألوسي – وهم الفرس الذين تقع إمارة الحيرة تحت حمايتهم. وهذا ابن كلثوم يوضح طريقة الحرب المكتسبة منهم بقوله[3]:

وكنا الأيمنين إذا التقينـا وكان الأيسرين بنو أبينـا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينـا

وتظهر في معارك الجاهلين، قسوة القتل، ورغبة التشفي من الخصم ولا سيما في المعارك الفردية التي تسبق التحام المتحاربين، لهذا عنترة يمزق جسم خصمه، بالطعن والشك، ثم يتركه طعمة للسباع!! حين قال:

جادت له كفي بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقـوم[4]
فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن حسن بنانه والمعصم

---

1) شطان بئر: جمع شطن وهو حبل البئر.
المصدر السابق، ص 309.
2) بلوغ الإرب، الألوسي، ص 56,
3) المثقف: المصلح. الكعوب: عقد الأنابيب. الصدق: الصلب
4) القضم:أكل الشيء اليابس.

وفي بعض المعارك الحربية تتحول القبيلة برمتها إلى جيش محارب ولذلك تساق النساء إلى حماية مؤخرة الجيش وتشدن الفرسان، وعندئذٍ كل فارس ينتهي فره إلى حيث النساء مقيمات ومنهن يبدأ الكر، وكل فرد إذا تهاون أو جبن، فإن ثمن الجبن سيكون غالباً، وسبى النساء لا تعادله عند العرب مصيبة، وفي هذه الحالات تتضح أسمى التضحيات، ويتكاتف كل المجتمع في رفع العار عن قبيلته، وهذا ما يصوره عمرو بن كلثوم بقوله:

على آثارنا بيض حســان   تحاذر أن تفارق أو تهونـا
ظعائن من بني جشم بن بكر   خلطـن بميسم حسبا ودينا[1]

إلى قوله أيضاً:

يقتن جيادنا ويقلن: لستـم   بعولتنا إذا لم تمنعونــا
إذا لم نحمهن فلا بقينــا   لشيء بعدهن ولا حيينـا

وهكذا كانت الفروسية، تمثل جانبين من جوانب الحياة الجاهلية جانب الحرب وجانب المثل العليا[2].

إن حالة الشعور بالخطر في كل لحظة من لحظات هذا المجتمع نمت من أفراد القبيلة، الإحساس بضرورة التكاتف ومراعاة حقوق كل فرد في القبيلة وحمايته والوقوف بجانبه ظالماً أو مظلوماً، كما رأينا. وأصبح هذا التحيز من الحقوق المعترف بها بحكم العادة ومقياس للخطأ والصواب، بين ذوي القربى عندما يجلسون لعتاب بعضهم بعضا، وبجانب هذا الإحساس الفردي، فإن هناك مظهر جماعي من مظاهر التعاون هو: أن القبيلة تعظم أبطالها، وتحفظ مناقبهم، وتجعل هذه المناقب ملك للقبيلة، يجب توريثه لمن يأتي بعدها، وتعليم أبنائها الدفاع عن أنفسهم، وأن الخبرة الحربية تنتقل من الشيوخ المجربين إلى الشبان المستبسلين، فالإعداد الذهني والتدريب الجسمي واجب تتعاون القبيلة كلها في الحفاظ عليه. وها لعمرو بن كلثوم يمثل نتاج جهد تغلب بقوله[3]:

---

1) الميسم: الحسن أي لهن من جمالهن حسب ودين.
(1، 2، 3، 4، 5) شرح المعلقات السبع، الزوزني.
2) الفروسية في الشعر الجاهلي، نوري حمودي العقيس، منشورات النهضة، بغداد، 1964، ص30.
3) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص 341.
رهوة: جبل.

نصبنا مثل رهوة ذات حد لمحفظة وكنـ ـا السابقينـ ـا

بشبان يرون القتل مجـ ـدا وشيبٍ في الحروب مجربينـ ـا

ورثنا مجد علقمة بن سيف أباح لنا حصون المجد دينـ ـا

وهناك مظهر آخر من مظاهر التعاون، وهو أن يظاهر بعضهم بعضاً بالرأي في مجالس شورى مفتوحة، يتدارسون فيها أمرهم، وكل فرد من أفراد الحي يدلي برأيه ليصلوا إلى رأي موحد يهتدون به لأنجع السبل، في حفظ أنفسهم ورفع شأنهم بين القبائل، ولتحديد موقف التعاون معها، وهل يستمدون في القتال لنيل الثأر من عدوهم أم يجنحون لصلح ويقبلون لديه؟ وهل يخوضون المعارك وحدهم أم يدخلون في حلف مع غيرهم من القبائل. ثم ينتقلون برأيهم هذا، لاجتماع القبيلة الكبير الذي يجمع عشائر. ويشير الجاحظ لهذا التعاون بقوله: "وقيامها في خطب الصلح، وكل ما دخل في باب الحمالة، وأكد شأن المحالفة"[1]. وهناك مظهر آخر للعلاقات البدوية، فرضته رغبة الدفاع عن القبيلة والمحافظة على كيانها، فهي في حاجة لسلاح تحقق به النصر في ساحة الوغى، وهذا السلاح يتواجد في القرى الثابتة، وفي الحضر، إذن لابد من خلق حالة تعاون واتصال لتبادل المنافع، ولهذا اتخذ كل سلاح اسم الجهة التي يجلب منها، فالسيف ينسب إلى الهند، إشارة إلى جلبه من الهند، نتيجة الاتصال الاقتصادي معها عن طريق اليمن. فوصف السيف الهندي بجودة حديده، وسرعة قطعه. وهناك الرمح، ونسبوا الرماح إلى الجهة التي تجلب منها، ومن هذه الجهات التي تنسب إليها الرماح الجهة التي حددها لنا زعيم التغلبيين عمرو بن كلثوم:

بسمر من قنا الخطي لدن ذوابل أو ببيض يختلينـ ـا[2]

وفي هذه النسبة ذكر الألوسي، زاوية منسوبة إلى الأصمعي يقول فيها: (لا أعلم الأم نسبة الخط، وهي جزيرة بالبحرين ينسب إليها الرمح ألا أن يقال أن سفن الرماح ترفأ إلى هذا الموضع فقيل للرماح خطية.) [3] ومثل حاجتهم للرماح القاتلة،

---

[1]) البيان والتبين، الجاحظ، 395/3.
[2]) شرح القصائد العشر، ص 337.
[3]) بلوغ الأرب، 64/2.

فإنهم أيضاً في حاجة إلى ما يقيهم طعن الحرب ورشق القسى، وقطع السيوف، فمنهم يلجأون للحضر للبحث عن هذه الوقاية وهي: البيضة، عبارة عن حديد يلبس في الرأس، ويوضع تحته وقاية للرأس من جلد تنسج في اليمن وتسمى اليلب. وهي لما وصفها الأصمعي قال: (جلود بخرز منها إلى بعض تلبس على الرؤوس خاصة وليس على الأجساد) [1] وبهذا المعنى ذكرها ابن كلثوم مع (البيض) حيث قال:

علينا البيض واليلب اليماني وأسياف يقمن وينحنينـــا[2]

ولكنه لم يذكر عندما تعرض للدرع وصفها بالبياض وبسترها للجسم في قوله:

علينا كل سابغـــة دلاص ترى فوق النجاد لها غضونا[3]

إن العمود الفقري، في هذه المعارك يقوم على الخيل، فهي أينما كانت تقرر مصير المعركة. ومن هنا أتت أهمية الفرس بالنسبة للبدوي، وصار اسم الخيل صنواً لاسم المعارك الحربية عندهم منذ فخر تاريخهم.

إن علاقة المجتمع، لا تسير على صلح دائم وإنما يتحكم فيها قانون الثأر أينما وجد، ومقدرة القبيلة على الصراع، ولا يقف هذا الصراع إلا بإعلان السلم العام. وهذا هو المظهر الوحيد الذي يجعل القبائل، تكاد أن تصل إلى درجة الشعب الذي تظله حكومة واحدة في كبح الجماح والجنوح إلى السلم وهي فترة الأشهر الحرم. عندما يقف القتال وتهدأ النفوس الثائرة، ويحل الهدوء، مكان التوتر، والأمن مكان التوجس وهي فترة يحلو لهم التحدث عنها، كما جرى ذكر للزمن في ألسنتهم فزهير يقول:

جعلن القنان عن يمين وحزنه وكم بالقنان من محل ومحرم

وتطل البهجة مع تباشير السلام، على أحياء العشائر، فيبدأ الطرب، وشرب الخمر، وذبح النوق حول الغدران، وقد اجتمعت حولها الحسان يتمتعن بما لذ وطاب من الشواء، يتجاذبن مطايب سنام الناقة، ويتقاذفن ببعضه وسط الغناء. والمرح،

---

[1]) شرح القصائد العشر، ص 418.
[2]) البيض: جمع بيضة الحديد – اليلب: قيل درع وقيل الديباج، وقيل ترسة تعمل في اليمن من الجلود.
[3]) السابغة: التامة من الدروع. والدلاص: اللبنة التي تزل عها السيوف. النحاد :حمال السيوف

وكيف لا؟ وقد ذبحها لهن وأمعن ولجمالهن عاشق وهن بمعزل عن القريب وفي هذا المرح يقول أمرؤ القيس[1]:

ويوم عقرت للعذارى مطيتي   فيا عجباً من كورها المتحمل

ومنهم من يتخطى ساحة البادية حيث الحضر، ويطلق لنفسه العنان بين الغواني الناعمات المترعات ذوات الرايات، والموسيقى الصاخبة ويصرف كلما يملك؛ لأن الحياة عندهم نهايتها واحدة بالنسبة للفقير والغني ولا تزيد عن كومة تراب، رصف فوقه حجارة، فليس من الحكمة أن يقتصد حيث لا جدوى للاقتصاد.

وتتسع مجالس الطرب ولحظات الأمن، إلى دائرة أوسع من محيط القبيلة، وتنشأ خلالها علاقات بمختلفة القبائل البدوية، وأهل الحضر، فتكثر التجارة، وتنتشر الثقافة بسماع ما تجود به روائع الشعراء.

ويصف النويهي هذه الظواهر بأنها حس أخلاقي جديد ظهر أولاً عند مفكريهم الممتازين، ودخل في صواع مع التقليد الجاهلي القديم الذي يشجع القسوة، والقتل والسفك والنهب، ويعلل وجود هذه الصفة العامة في فترة ما بقوله: (أما الضمير الأخلاقي الجديد، فعل الأسباب التي ساعدت على تنميته وتقويته هو أن: القبائل الكثيرة يقوم اقتصادها على أمان القوافل)[2].

ففليب حتى يقول في هذه الفترة: (وكانت سوق عكاظ –فيما رووا تعلم في الأشهر الحرم التي كان القتال محظوراً فيها. والتقويم السنوي في عهود الوثنية عند العرب قمري مثل التقويم الإسلامي الذي تلاه، فكانت أشهر السنة الثلاثة الأولى، أي فصل الربيع وهي: ذو العقدة، ذو الحجة، ومحرم توافق فترة السلم، وتوافرت الفرص في هذه السوق لبيع الحاصدات والسلع المحلية، فانفتحت أبواب التجارة على مصراعيها، وجرى التبادل والمقايضة. وجلس القوم للسمر والشراب يرتشفون النبيذ وغيره من المشروبات، ومن السهل أن تتخيل أبناء الصحراء يتوافدون إلى هذه الحلقات السنوية زرافات ووحدانا.) [3] وبعد هذا كله إذا نظرنا للعلاقات التي

---

[1]) الديوان، أمرؤ القيس، ص 11.

[2]) الشعر الجاهلي منهج دراسته وتقويمه، محمد النويهي، الدار القومية للطباعة، القاهرة، ص 21، (د.ت)

1) تاريخ العرب، كارل بروكلمان، دار المعارف، مصر، ط1، ت عبد الحليم النجار، 1959، 128/1.

استطاع المجتمع الجاهلي بكل ما اكتسبه من تجارب، وبكل ما جادت به من قرائح الممتازين من مفكريهم أمثال زهير، واكتفى به مثلاً للتفكير المستقيم في المجتمع بقوله:

لسان الفتى نصف ونصف فـؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وبعد أن بلغ الذروة يأتي فيقول:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحـه   يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

أقول أن هذا المجتمع الذي أنتج زهيراً، والذي مثله بكل ما فيه من مثالية وحماقة، قد بلغ مرحلة التهئ التام للوضع العقلي ثم بنزول الوحي، وإنه كان من عموميات سلوكه في بحث تام لهدى الرسالة وإن كان لا يدري.

معنى الوثنية: أولاً الوثني

اشتقت كلمة وثن[1] من الثبات والدوام، حيث تعني كلمة الواثن: الثبات الدائم. أما الوثن فهو الصنم. قال ابن منظور: "الوثن والواثن: المقيم الراكد الثابت الدائم."

ويروي بالثاء وبالتاء.

والوثن الصنم ما كان وقيل الصنم الصغير، وفي الحديث "شارب الخمر كما بدا لوثن" وقال ابن الأثير: "الفرق بين الوثن والصنم: إن الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض، أو من الخشب أو الحجارة كصور الآدمي تعمل وتنصب فتعبد والصنم الصورة بلا جثة، ومنهم من لم يفرق بين الكلمتين وأطلقهما على المعنيين بلا تمييز". قال عدي بن حاتم: (قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم- وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: "ألق هذا الوثن عنك" أراد به الصليب"[2]

ثانياً الصنم: قال الجوهري: "الصنم واحد الأصنام وهو الوثن"[3]

2) الصحاح (تاريخ اللغة وصحاح العربية)، اسماعيل بن حماد الجوهري، ت: أحمد عطار، ط1 القاهرة 1979. (وثن)
1) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت (وثن)، 4762/6.
2) الصحاح (صنم) واللسان، 2512/4.

وقال ابن منظور: "الصنم معروف واحد الأصنام يقال: إنه معرب صنم، وهو الوثن، قال ابن سيدة من خشب، ويصاغ من فضة، ونحاس، والجمع أصنام". وقد تكرر في الحديث ذكر الصنم والأصنام، وهو ما اتخذ إلهاً من دون الله وقيل: هو ما كان له جسم أو صورة، وما لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن.

وروي ابن عباس عن ابن الأعرابي: الصنمة والنصمة الصورة التي تعبد وفي التنزيل العزيز (وإذ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِناً وَاجنُبنِي وَبَنِيَ أن نَّعْبدَ الأَصْنَامَ) [1] قال ابن عرفة: ما اتخذوه من آلهة فكان على غير صورة فهو وثن، فإذا كان له صورة فهو صنم. وقيل: الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة، ينحت ويعبد. الصنم الصورة بلا جثة. ومن العرب من جعل الوثن المنصوب صنماً.

وروى عن الحسن إنه قال: "لم يكن في أحياء العرب إلا وكان لها صنم يعبد بها يسمونها أنثى بني فلان ومنه قول الله عز وجل: (إنْ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إلا إناثاً وإن يَدْعُونَ إلا شَيْطَاناً مَّرِيداً) [2]. والإناث كل شيء ليس فيه روح مثل الخشبة والحجارة. قال: والصنمة الداهية أصلها صلمة وبنو صنيم: بطن"[3].

ب/ رأس القبيلة

أما رأس القبيلة "سيدها" فهو الذي يتولى إمارة قبيلته، فهو القاضي والحاكم والمحامي، وإليه يرجعون من كل شئونهم حسب العرف والتقاليد السائدة في مجتمعهم، وهذا ما عرف بحكم العشائر "الحكم القبلي" إذن فلا حكومة مسيطرة على العرب البدو، ولا يطالب الفرد بحقوقه إلا على رأس القبيلة، أما الأخذ بالثأر فلابد منه إذا لم تفصل القضية في محكمة العشيرة. أما العقوبات فيفضي فيها شيخ القبيلة متمثلة في: قطع اليد في حالة السرقة، والرجم للزناة، والقتل للقاتل عمداً، وقد

---

3) سورة إبراهيم آية 35.
4) سورة النساء آية 117.
5) لسان العرب، ابن منظور، (صنم)، 2512/4.

تستبدل عقوبة القتل بدفع الدية، وهي ألف بعير لأهل الميت إن كان شريفاً، ومائة إن كان من العامة، وتدفعها القبيلة لإنقاذ القاتل من الموت. أما هتك الأعراض فهذه أقطع وأشنع الجرائم في محاكم العشيرة، فقد تتفانى لأجلها قبيلتان انتقاماً لعرض بكر، ودفاعاً لشرف قبيلة وسمعتها[1].

2/ نوع الثقافة في المجتمع

أ/ دينية

البدوي قليل الدين قلما يكترث لما يعبد، فقد عاش العرب في تلك الحقبة مشركين، فمنهم من عبد الشمس والقمر والأجرام السماوية والنار والأصنام والأوثان، وأشهر أصنامهم "هبل" "اللات" "ومناة" "والعزة" وقد يجد البدوي حجر في الصحراء فينحته بيده على شكل رجل مثلاً فيعبده إلاهاً يخشاه ويستشيره. أما أصنام العرب فليست كأصنام اليونان وليدة الفن.

كما ذكرنا فإن حياتهم الدينية يغلب عليها عبادة الأصنام والأوثان فقد كانوا يدافعون عن هذه الأصنام دفاعاً شديداً. وأيضاً من أصنامهم نسرا، ويغوث. كما يسمون الثلاثة بنات الله. كما في قوله تعالى: (وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ الِهَتَكُمْ ولاَ تَذَرُنَّ وَدَّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً) [2] غير أننا نجد ندرة في النصوص الشعرية التي تشير إلى هذه العبادة في الشعر الجاهلي، ويعلل مولفو تاريخ الأدب العربي ظاهرة الندرة هذه لسببين: أحدهما أن طبيعة الشعراء الجاهليين لم تكن تأبه بالدين كثيراً، والآخر أن الرواة في العصر الإسلامي لم يرووا من الشعر الجاهلي ما ظهرت فيه الوثنية تدنياً[3].

ونجد الدكتور أحمد الحوفي يعلل بسببين آخرين يمكن أن نضيفهما إلى هذين السببين هما: ضياع الكثير من الشعر الجاهلي الوثني وغير الوثني قبل عصر التدوين، وضعف الوثنية في أواخر العصر الجاهلي، حيث كان العرب على أبواب يقظة روحية عقلية، وكانوا في ريعان نهضة أدبية هزت أركان الوثنية[4].

---

1) الأدب العربي، عبود مارون، ص 16-17.
2) سورة نوح، آية 23.
3) المفضّل في تاريخ الدب العربي، أحمد أمين، ط مكتبة الأدب القاهرة ص 35.
4) الحياة العربية في الشعر الجاهلي، ص 377.

فإذا بحثنا عن المؤثر في هذه المعتقدات الصحيحة التي جاء القرآن الكريم مؤكداً لها مما دفع ببعض الباحثين إلى القول بالشك في نسبتها إلى هؤلاء الشعراء الجاهليين، فإنها تسربت إليهم من الديانات السماوية التي كانت موجودة في نواح متفرقة من شبه جزيرة العرب، فقد كان هناك دين الحنفية، وقد أطلق على تابعوه الحنفاء، والحنفية دين سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وقد شملت آثار هذا الدين معظم العرب حتى الوثنيين منهم[1]، ولم تكن الحنفية وحدها ذات الأثر على العرب قبل الإسلام فقد كانت هنالك اليهودية والنصرانية. وكذلك من الآثار الدينية في معتقدات العرب الكهان والسحرة، وكذلك رمي السهم الذي كانوا يعتقدون به كل الاعتقاد، عند الخروج للحرب، أو الصيد وغيرها- أما عن أخلاقهم، فالعربي معجب بنفسه، معتد بشخصيته، حريص على حريته واستقلاله، وذاك ربيب الصحراء، كريم مغياث، وهاب. أحوجته العازة إلى الغزو فصار الصاب بالقوة فخراً ومجداً شجاع يقظ على حد قول الشاعر:

ينام باحدى مقلتيه ويتقي　　　بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

أنشأته على هذه الأخلاق مجاورته القبائل المعادية، والحيوانات الضاربة. أبي النفس، سخي شجاع، كريم فخور، يحب اللهو وآلاته، والصيد والفروسية ويدل على ذلك شعرهم الحافل بالتغني بهذه السخايا-

أما ثقافتهم: فالعربي تثقف بثقافات منها:

أولاً: الفارسية اتصالهم بالفرس والروم بواسطة دولانهم التي كانت قائمة، وسيدها غير العرب ليصدوا بها غارات العرب على مستعمراتهم.

ثانياً: اليهودية والنصرانية: اللتان حملتا إلى الجزيرة العربية بعض الثقافة اليونانية، من الفلسفة والأدب، إلى جانب علوم الثورات وما فيها من تاريخ التكوين، وحديث الثواب والعقاب والبعث والجنة والنار. وحملت اليهودية أيضاً فنون الزراعة والصناعة.

---

[1]) أدب ما قبل الإسلام، محمد عثمان علي، ص 50.س

ثالثاً: التجارة، هي التي مزجتهم بالأمم بعض المزج، فاقتبسوا باختلاطهم بها مدنية وأدباً وعلماً.

فمن هذه العوامل دخلت اللغة ألفاظ جديدة لأغراض جديدة، وتأثرت العقول بمبادئ جديدة لم يألفها العرب كالشك والزهد.

وقصارى الحديث إن تثقف العرب كان بطيئاً ضيق النطاق، فأهل الحيرة عرفوا شيئاً من علوم الفرس واليونان وأدبهم وغساستة الشام أدركوا أشياء من حضارة اليونان وأدبهم، وأهل اليمن كانوا متصلين بالفرس والرومان والأحباش[1].

ب/ فكرية

العربي ذكي تكفيه الإشارة ليفهم، حاضر البديهة، ذكاؤه ليس في الإبداع بل تفنن في أساليب الكلام، مفرط يحب الحرية ليس العربي جامد العواطف، بل مقلد لا يفكر كثيراً، ولذلك لم يخرج على مألوف من تقدموه إلا خروجاً ضئيلاً في كل أطواره، فهذه آثار البداوة لا تزال ظاهرة حتى في شعراء القرن العشرين[2].

قلة تفكير العربي جعلته يصدق خرافات كثيرة. كذلك البيئة الطبيعية القاسية حالت دون دخول المدنية إليها. فلم يطمع بجزيرتهم الفاتحون والمستعمرون لجدبها وخشونة العيش فيها. كما أن حياة الصحراء حياة تسير على وتيرة واحدة لذلك جاء الأدب العربي على تلك الوتيرة، فلا تبدل ولا تغير لمشاهد الطبيعة. ففي ذلك الإقليم نشأ العقل مقيد بقيدين هما: الدين والقبيلة.

بجانب الشعر نشأ عندهم المثل. والأمثال تدل دلالة أصدق من الشعر على عقلية الأمة؛ لأنها صادرة عن مجموعة بخلاف الشعر الذي ينبع من بعض أفرادها.

والأمثال تدل على حياة الأمم تجارية واجتماعية وزراعية كقولهم: استنوق الجمل، فالأمثال التي قيلت في المرأة تدل على انحطاطها، والتي قيلت في الحياة الاقتصادية تدل على جدب البلاد وقحطها.

---

1) الأدب العربي، عبود هارون، ص 19- 20.

2) المصدر نفسه، ص 21.

كذلك كانت لهم معرفة بعلم النجوم وبيطرة الدواب. كما أنهم كانوا أعلم الناس بعلم الفراسة والقيافة. فاستدلوا على الإنسان بهيئته الخارجية على أخلاقه، وبأعضائه على نسبه.

والخلاصة أن مثل العربي الأعلى في الأخلاق هو المروءة، وهي لفظة تنطوي تحتها في عرفهم كل الصفات الحميدة. فنجد البدوي يحتقر كل عمل غير رعى الأبل والإغارة، ويرى كل رزقه في أنعامه فيقتتل على الغدير، ويتطاحن على المراعي، وهو غير أهل للتجارة، ومع كل ذلك فهو ذكي فطن تكفيه الإشارة لفهم المراد. يعيش عيشة رخاء في العام الخصيب، ويأكل الضب واليربوع في زمن الجدب والقحط كما قال الشاعر:

إذا ما تميمي أتاك مفاخراً   فقل عني كيف أكلك الضب(1)

3/ مكانة الشاعر في مجتمع ما قبل الإسلام

العلاقة بين الشاعر الجاهلي وقبيلته تحكمها قيم نفسية وأخلاقية فهو عضو في قبيلة علقت عليه آمالها، فلابد أن يهبها فكره وفنه، ويسخرها للدفاع عنها؛ لأنه أملها المنشود. وقدر الشاعر موقعه في قبيلته، وموقع قبيلته في قلبه ووجدانه، فلم يخيب رجاءها، ولم يبدد آمالها فتبنى قضاياها، ودافع عنها ما وسعه الدفاع. وقد عبر الشاعر الجاهلي –في شعره- عما كان يدور حوله، فجاء شعره مترجماً لأحاسيسه ومشاعره وانفعالاته، وسجل في شعره أعلى درجات الولاء والانتماء للقبيلة. لقد كان لدى الشاعر الجاهلي إحساس عميق بأنه ينهض بمسؤولية جسيمة، فافتخر بقبيلته، وأشاد بها ورفعها إلى أعلى درجات المجد، ووقف في وجه خصومها، وبالغ في هجاء أعدائها، وحمل السيف وشارك في حروبها، ووصف بلسانه معاركها، وأشاد ببطولات رجالها وأبطالها، وتوعد أعداءها، ورثى قتلاها، وبث أناشيد الانتقام للأخذ بالثأر لأبنائها.

وكان للشاعر حضور مميز، ودور فاعلي في تصريف سياسة القبيلة الخارجية والداخلية، لما عرف به من نضج الفكر، وسداد الرأي، وحصانة التفكير،

---

(1)) الأدب العربي، عبود هارون، ص 20.

فكان رجل الأزمان الطارئة، تلجأ إليه القبيلة، وتوفده إلى الممالك، فكان بصنيعه هذا يعتبر سفير القبيلة، الراعي لمصالحها لدى القبائل والممالك الأخرى.

وفي الحياة الاجتماعية أبدى الشاعر الجاهلي انتماء عالياً لمنظومة القيم الأخلاقية والتي كانت القبيلة تتمسك بها، وكان يدعو لتطهير الأخلاق مما يعلق بها من شوائب، مبتدئاً بإصلاح نفسه وتهذيبها وصقلها بالقيم النبيلة، ويعمل على إشاعة الأخلاق الفاضلة بين أبناء القبيلة جميعاً؛ لأن الأخلاق من أهم عوامل تماسك القبيلة، ونظراً لخروج بعض الشعراء عن تلك الأخلاق ظهر الشعراء الصعاليك الذين نبذتهم القبائل.

نظر الشاعر الجاهلي إلى الفن على أنه رسالة يجب على الفنان أن يناضل من أجلها محققاً بذلك فكرة الفن للمجتمع أصدق تمثيل[1] ولو أدى ذلك إلى دخوله السجن على نحو ما لقي ربيعة بن مقروم العيني الذي حبسه كسرى في حصن كسرى في حصن المشقر[2].

أهمية الشعر في الحياة الاجتماعية وأثر الشاعر في تلك الحياة

لا تنقل لنا الأخبار نبوغ شاعر إسلامي أو عباسي أو حديث كان يثير صدى جماعياً، كالذي كان يثيره نبوغ شاعر جاهلي، حتى أن القبيلة لا تحتفل إلا بثلاث: غلام يولد، شاعر ينبغ، وفرس تنتج، ولعل من أهم الأسباب لذلك، أن الشاعر كان أنفذ وسيلة للدعاية والإعلام[3]، إذ لم تكن هناك وسيلة أبعد تأثيراً، وأسهل ذيوعاً بين الناس، وأسرع انتشاراً من شعر منغم يسهل الحفظ والرواية[4] فقد كان الشاعر صحيفة قبيلته السياسية[5] والاجتماعية وجهازها الإعلامي.

وإذا كانت الحياة العربية ضنينة بولادة البطل السياسي[5] المتميز وذلك لوضوح العلاقات العامة، وعدم بلوغ أسباب الحياة درجة التعقد، ولوجود رمز الوحدة الواقعي، متمثلاً في الشيخ الحصيف الذي آمنت القبيلة بقيادته، وألقت إليه بزمام النهوض بقيادتها وتوجيهها في حروبها، وإكرام ضيفها، وإعانة المعوز

---

[1]) العصبية وأثرها في الشعر الأموي،إحسان النص،دار اليقظة العربية، (د.ت)، ص 161.
[2]) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (أبو الفضل أحمد بن علي) ت: محمد علي، بيروت 1965،.
[3]) ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده، درويش الجندي، دار النهضة مصر القاهرة، 1970، ص 129.
[4]) أدب العرب في العصر الجاهلي، حسين الحاج حسن، ص 173.
[5]) تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، أحمد الشايب، النهضة المصرية، ط4، 1966م، ص 34.

والضعيف من أبنائها، فهناك الشاعر صوت القبيلة المتميز، يملأ ساحة البطولة بالقيم الإنسانية الأصيلة، ويندد بكل قوة تنزل بالإنسان بطشاً بوجوده، وهدراً لكيانه. ومن هنا اكتسب الشاعر في القبيلة مكانة أعلى، وأهم من أي قائد أو زعيم. لقد كان الشاعر هو القائد المعنوي[1] أو أنه موجه الوجدان القبلي، وهذا الوضع قضت به ظروف الحياة في ذلك العهد، ودفعت حاجة القبيلة إلى قيادة جماعية وجدانية[2]. ثبتت في أبنائها روح المودة والنجدة وإباء الضيم، والتحدي في الصراع من أجل الوجود والبقاء.

4/ وسيلة التنقل أو الترحال في المجتمع الجاهلي

ولما كانت أي حياة اجتماعية، لا تقوم بدون تنقل، فإن مجتمع ما قبل الإسلام، أيضاً قدم له وسيلة مواصلات تكاد تكون عامة وهي الناقة عند العامة. والفرس عند الخاصة، وقد نمت فيهم معايشة تلك الوسيلة، ومن وسائل المواصلات شعوراً أخلاقياً نحو دوابهم يتمثل في هذه العاطفة المتأججة التي بثها عنترة نحو فرسه قائلاً:

وأزور من وقع القنا بلبانه   وشكا إلى بعبرة وتحمحم

بعد هذا لابد من التعرف بأهم وسيلة للمواصلات وتتوفر لدى العامة في هذا المجتمع، ألا وهي الإبل.

الإبل: هي الوسيلة الرئيسية في المواصلات لتلك البيئة، وأغلب الظن أن الجمل قد عاش في شبه الجزيرة العربية متوحشاً، شأنه شأن الحيوانات الأخرى المتوحشة، ويزعم بعض الأعراب، أن في أجناس الإبل جنساً عاش متوحشاً يضرب في الفيافي والوهاد، ويهيم على وجهه في الصحراء بلا قيد ولا راع ولا رقيب. ويعلق الجاحظ على هذه الحقيقة بقوله: "إنه ليس في أجناس الإبل جنس وحشي إلا في قول الأعراب الذين زعموا أنها كانت تسكن أرض وبار؛ لأنها غير مسكونة؛ ولأن الحيوانات كلما اشتدت وحشيتها كان للخلاء أطلب[3] ويعرف الجاحظ هذه الإبل

---

1) أدب العرب في عصر الجاهلية، ص 163.
2) قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ دار المعارف، مصر، 1970، ص 27.
3) الحيوان، الجاحظ، 216/6.

فيقول: إنها الوحشية وهي الإبل التي ضربت فيها فحول إبل الجن. والذي يهمنا في هذا الصدد أن هذه الإبل كانت في فترة من فترات التاريخ متوحشة تنفر، واستطاع الإنسان بالصبر والحيلة والعناية ترويضها، واستخدمها عوناً له في حياته، وبمرور الزمن استطاع سكان شبه الجزيرة العربية التمييز بين أنواع عديدة منها، وكان ميزانهم في تحديد النوع شكل الجمل، ولونه، وبنيته، وخلفه- فمن هذه الأنواع الإبل الأرجبية، وهي منسوبة إلى بني أرجب من همدان[1]، وذكر ابن الصلاح إنها من إبل اليمن، وقال عنها دريد: إنها منسوبة إلى فحل كان للنعمان بن المنذر اسمه شذقم. ويقسمها النويري إلى ثلاثة أصناف: يماني، وعرابي، وبحتي. فاليماني هو النجيب ومنزلته منزلة العتيق من الخيل، والعرابي كالبرذون في الخيل، والبحتي ينزل بمنزلة البغال[2].

خواصه: والجمل أنسب الحيوانات للمعيشة في الصحراء فقد منحه الله سبحانه وتعالى تكويناً بيولوجياً ساعده على مجابهة تلك الحياة بسهولة، وهو من أكثر الحيوانات صبراً لذا كنته العرب بأبي أيوب. ولعل الجمل هو الحيوان الوحيد الذي تميز بتلك الخواص الطبيعية المساعدة على حياة الصحراء بحلوها ومرها، ولولاه لصارت حياته قطعة من نار وضرب محال.

ويرى ابن خلدون: "إن طبيعة حياتهم هي التي دعتهم للتوحش ولم يكن هذا التوحش من طبعهم. وذلك لما اختصوا به من نكد للعيش وشظف الأحوال، وسوء المواطن حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة. ويرجع ابن خلدون النصيب الأكبر من مسببات بداوة العرب إلى الإبل فيقول في ذلك: ولما كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها في رماله كما تقدم، والفقر مكان الشظف فصار لهم ألف وعادة وربيت فيه أجيالهم حتى تمكنت خلقاً وجيله فلا ينتزع إليهم أحد من الأمم أن يساعدهم في حالهم ولا يأنس بهم أحد من الأجيال...) [3]

---

[1]) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، القيرواني، (أبي الحسن بن رشيق القيروان)، ت: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية صيدا، لبنان، 230/2.

[2]) نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، 109/10.

[3]) المقدمة، ابن خلدون، ص 123.

إن جسم الجمل –على الرغم من كبر حجمه- نجده محمولاً على أرجل رقيقة طويلة، وهذه الأرجل تنتهي بأظلاف مشفوقة تحتها وسادة ثخينة جاسئة تسمى الخف، وأهمية هذا الخف يمنع أقدام الجمل من الغوص في الرمال، وعلى رجليه أربطة من جلد خشنة تحميه من الحصى والرمال عندما يبرك، ولهذه الخاصية سمي الجمل سفينة الصحراء، ولأهمية الأخفاف في حياة البعير وحياة صاحبه اهتموا بعلاجها، ووقايتها اهتماماً بالغاً، وكانوا ينقلونها بشرائح خاصة يسمونها النقائل، الغرض وقاية منسم البعير من الحصى والحجارة. قال الحارث بن حازة: يصف مناسم ناقته[1]:

انمى إلى حرف مذكـ ـ ـرة تهص الحصى بمواقع خنس

خدم نقائلها يطرن كأقطاع الفراء بصحصـ ـ ـ ـح شاش

في هذه الأبيات يشبه الحارث بن حازة ناقته بالقوة والصلابة ويشبهها في صلابتها بمطارق الغيون، كما يشبه الشرائح التي تقي تلك المناسم بقطع فراء تتطاير على أرض خشنة مستوية.

إن كل شيء في الجمل يوحى بأنه قد خلق خصيصاً للمعيشة في الصحراء، فأخفافه العريضة التي سبق الإشارة إليها، وأهداب عينيه الطويلة التي تقيه من ذرات الرمل التي تثيرها الرياح من وقت لآخر، وفتحات أنفه التي تقفل وتفتح تلقائياً متى ما دعتها الحاجة إلى ذلك، ومشافره الغليظة التي خلقت لتناسب أكثر النباتات خشونة. وكذلك خلق له سنام لكي يكون مخزناً لفائض الدهنيات التي تساعده على السير لفترات طويلة بدون ماء، وتقدر كمية الماء المخزون في بطن الجمل بأربعة عشر رطلاً، وهذه الكمية تمكنه من السير لمدة تتراوح بين ستة وعشرة أيام.

وتميز جسم الجمل بخاصية لم يشاركه فيها إلا حيوان واحد وهو الكلب، وهذه الخاصية، هي عدم وجود غدد عرقية في جسم كل، فالكلب يخرج المواد الزائدة من جسمه عن طريق لسانه، لذا فهو يلهث دوماً في أوقات الحر، والجمل يعرق من الزفرى، وتعرف بلهجة السوادان "بالدومة" وموقعها تحت أذن الناقة مما

---

[1]) الحارث بن حلزة بن معد يكرب بن بدير ينتهي نسبة إلى معد بن عدنان، شاعر جاهلي مقل، أشهر ما قاله معلقته المشهورة. والتي قيل أنه أرتجلها بين يدي عمرو بن هند ارتجالاً في الصلح الذي كان بين بكر وتغلب المفضليات، ص 132.

يلي الرقبة، ولعلها متصلة بالجهاز العصبي بالنسبة للجمل، إذ تتحكم الأعصاب في كمية العرق ووقته، وتنشط في أوقات الحر الشديد والإجهاد. وقال كعب بن زهير يصف في قصيدته الإعتذارية يمتدح فيها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم(1):

أمست سعاد بأرض لا يبلغهـ ـ ـا   إلا العتاق النجيبات المراسيـ ـل

من كل نضاخة الذفرى إذا عرقت   عرضتها طامس الإعلام مجهول(2)

ترمي الغيوب بعيني مفرد لهـ ـق   إذا توقدت الحزان والميـ ـ ـ ـل(3)

حداؤها: كانوا يحثون السفر ويرغبونها في الرحلة، وهذا فوق عنايتهم الجسمانية بها، وكانوا يتغنون وهم على ظهورها فتطرب وتزيد سرعتها ولولا ذلك لملت السفر، وضاقت بطول الرحلة ويساعدهم على ذلك الغناء انسياب الناقة في جريها ونشاطها، وطول الطريق وسهولته، ويحلو لهم ذلك مع بزوغ الفجر الجديد، وفي ليالي الصيف المقمرة، والحداء عادة عربية قديمة جداً استوحدها من حركة الإبل في سيرها إذا خبت أوجفت، وجاء في الأمالي أن أول من أخذ في ترجيع الحداء مضر بن نزار، فإنه سقط عن الجملة فانكسرت يده فحملوه وهو يقول: وايداه وايداه، وكان أحسن خلق الله جرساً وصوتاً فأصغت إليه الإبل وجرت في السير، فجعلت العرب مثالاً لقوله هايدا، هايدا يحدون به للإبل.

وقد ذكر ابن خلدون علاقة العربي بالإبل ذاكراً بعض صفات الإبل في قوله: ومن كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعناً، وأبعد في القفر مجالاً؛ لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة، والتغلب في فصل الشتاء في نواحيه قراراً من أذى البرد إلى دفء هوائه وطلباً لما خفى النتاج في رماله، إذ الإبل أصعب الحيوان فصالاً ومخاضاً وأحوجها إلى ذلك الدفء، فاضطروا إلى إبعاد النجعة- وربما زادتهم الحامية عن التلول أيضاً، فأوغلوا في القفار عن الضعة منهم(4).

---

1) كعب بن زهير ابن أبي سلمى، وقصيدته الاعتذارية في مدح النبي صلى الله عليه وسلم – ومطلعها:

بانت سعدا فقلبي اليوم مبتول   متيم إثرها لم يغد مكبول

2) عرضتها: اهتمامها.

3) مفرد لهق: ثور وحشي منفرد شديد البياض – الحزان: الواحد حزير وهو الغليظ من الأرض. الميل: ما تراكم وتمايل من الرمل، الواحد أميل.

4) المقدمة، ابن خلدون، ص 412.

وقال القزويني: "إن الإبل حيوان عظيم الجسم شديد الانقياد ينهض بالحمل الثقيل ويبرك، وتأخذ بزمامه فأره تقوده إلى حيث شاءت، ويتخذ على ظهره بيت يقعد الإنسان فيه مع مأكله ومشربه وملبسه والوسادة كما في بيته، ويتخذ للبيت سقف وهو يمشي بكل هذا"[1].

وقال: لهذا قال الله سبحانه وتعالى: (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) [2]، وفي صبرها أيضاً يقول القزويني: "ربما تصبر على الماء عشرة أيام –وقال إنما طوات رقبته لتستعين بها على النهوض بالحمل الثقيل، وينال الأرض برعي منها حالة قيامه لتكون الرقبة مناسبة للقوائم وليبلغ مشفره سائر جسده يحكه به- يهيج في شباط وعند ذلك لأخير له بالحمل يحمل ما يحمله بعيران أو ثلاثة"[3].

وقال الزمخشري في قوله تعالى: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) كيف خلقت خلقاً عجيباً دالاً على تقدير مقدر شاهد بتدبير مدبر حيث خلقها للنهوض بالأثقال، وصيرها إلى البلاد الشاحطة فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر ثم تنهض بما حملت، وسخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها لا تعاز ضعيفاً، ولا تمانع صغيراً ويراها طوال الأعناق تنود بالأوقار. وعن بعض العلماء إنه حدث عن البعير وبديع خلقه وقد نشأ في ذلك بلاد لا إبل فيها ففكر ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق، وحيث أراد بها أن تكون سفائن البر، صبرها على احتمال العطش حتى أن ظمأها لترفع إلى العشرة فصاعداً وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمعاوز مما لا يرعاه سائر البهائم. وعن سعيد بن جبير قال: "لقيت شريحاً القاضي فقلت له: أين تريد قال: أريد الكناسة. فقلت: وما تصنع بها قال أنظر إلى الإبل كيف خلقت"[4].

أما القرطبي فقد قال في الآية السابقة: إن الله قد ذكر الإبل في خلقه؛ أنها كثيرة في العرب، ولم يروا الفيلة فنبههم جل ثناؤه على عظيم خلقه، وقدر ذلك

---

[1]) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات 198/2.
[2]) سورة الغاشية، آية 17.
[3]) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، 178/2.
[4]) الكشاف، الزمخشري (أبو القاسم جار الله بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار المعرفة بيروت – لبنان، 207/4.

للصغير يقوده ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك فينهض بثقيل حمله وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره"[1]. وقال الإبل أجمع المنافع من سائر الحيوان؛ لأن ضروبه أربعة: حلوبة وركوبه وأكولة وحمولة. والإبل تجمع هذه الخلال الأربع فكانت النعمة بها أعم وظهور القدرة فيها إتم"[2].

إن لجو الأقليم أثراً طبيعياً قوياً في حياة أهله، فهو الذي ينهج لهم سنن معاشهم، ونظام اجتماعهم، ويكون الكثير من أخلاقهم وطباعاتهم، والحياة العربية في شبه الجزيرة العربية، جافة قاحلة قلما يجود الغيث فهي لا تصلح للزروع الدورية ولا تلائم الحياة الحضرية ومن ثم كان أهلها بدواً بالفطرة يعيشون تحت الخيام، ويعتمدون على رعي الأنعام فيطعمون من لحمها ولبنها، ويكتسون بصوفها ووبرها، ويتتبعون بها مواقع القطر ورياض الأرض أودية وفيافي، إلا قريشاً فتحضروا لقيامهم على البيت الحرام وإيلافهم في رحلة اليمن والشام، القحطانيين تحت ديارهم من الخصب والمطر، ووفرة ما تغله أرضهم من الحب والثمر وإذا أخلفت السماء وأمحلت وجوه الأرض أكل بعضهم بعضاً بالإعارة والغزو يجر عليهم فساد القلوب، ودوام الحروب، وذهاب الأمن وتشقق الألفة. ولم ينكب الجاهليون بمثل الحرب والجدب فهم لذلك يمدحون باليأس والشهامة، ويتهاجون باللسان والفصاحة، ويفضلون الذكر، ويقتلون الأنثى، ويتكاثرون بالنفر العديد ويعتزون بالقرابة الواشية.

ثم كان من الفهم حياة الظعن والتجوال، وتوزع هممهم بين الجدال والقتال، وقد غلبت عليهم الحرية والعصبية والوحشية، فلم تكن لهم مدنية اجتماعية ولا حكومة سياسية ولا أنظمة عسكرية، ولا فلسفة دينية وإنما مجتمعهم مجتمع القبيلة والحمية لا مجتمع الشعب والأمة والحكومة كانت لرؤساء العشائر، يملكون بالإرث ويحكمون بالعرف وذلك؛ لأن المروسية والتجرد عن الشخصية يتضادان لإعجاب العربي بنفسه واعتداده بشخصيته، أما الدين دين بساطة وسذاجة من عبادة أصنام

---

[1]) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الأنصاري القرطبي بيروت – لبنان، ، ط1، 1988م، 24/20.

[2]) المصدر نفسه، ص 25.

وقليل من دين إبراهيم عليه السلام، وأما الأسرة فهي نواة القبيلة تتألف من الأبوين والأولاد والحفدة والرقيق، وكان سلطان الأب مطلقاً على أهله، وكان لهم أنواع من الزواج: منه الأشبه بالمسافحة وغيره، أما علاقة أبناء الأسرة بأبناء القبيلة فمدلولها هذه العبارة (انصر أخاك ظالماً أو مظلوما) على ما بين أبناء العم من تنافس وتباغض ولكن الواحد للقبيلة والقبيلة للواحد أما حالتهم العقلية فقد كانت من تبع في اليمن والغساسنة والمناذرة في الشمال على خط من العلوم يدل عليه ما أقاموه من سدود وأحيوه من الأرض وعمروه من المدن. وأما العدنانيون فقد كسبتهم قوة الملاحظة، وكثرة التجارب وأضرار الحاجة طائفة من العلم المبني على التجربة بالاستقراء والوهم فعرفوا الطب وبيطرة الخيل، ولاحظوا النجوم والأنواء والرياح لعلاقتها بالكلأ والغيث ليهتدوا بها في ظلمات الليل، وبرعوا في الأنساب والأخبار والأشعار محافظة على عصبيتهم، وتحدثاً بمغافرهم وتخليداً لمآثرهم، وظهروا في الفراسة والقيافة ووصف الأرض لكشف الرعي وطلب الهارب منهم.

ثم قادهم الجانب الروحي فيهم إلى الاعتقاد بالكهانة والعرافة ففزعوا إلى الكهان في أمراضهم واستنجدوا بالعرافين في أغراضهم حتى ذهب الإسلام بذلك.

إن المجتمع العربي خارج القبيلة كان مفككاً من الجهات السياسية والاقتصادية واللغوية مرتبطاً من الجهات الخلقية والعقلية والأدبية ولو ساغ لنا أن نحكم على العرب بمقتضى لغتهم، وأدبهم لوجدنا لهم نفوسا كبيرة، وأذهانا بصيرة، وحنكة خبيرة ومعارف واسعة، كونوا أكثرها من نتاج قرائحهم وثمار تجاربهم، فإن لغتهم هي صورة مجتمعهم لم تدع معنى من المعاني التي تتصل بالروح والفكر والجسم، والجماعة والأرض والسماء وما بينهما إلا استوعبت أسماءه ورثيت أجزاءه، ووضع اللفظ للشيء دليل على وجوده وعلمه، ولعمري ما يكون التمدن اللغوي إلا بعد التمدن الاجتماعي الراقي حقيقته وإن لم يرق في شكله.

وفي نهاية الحديث أستطيع أن أوضح صورة الملامح الاجتماعية لمجتمع ما قبل الإسلام بشقيه الحضري والبدوي.

المجتمع الجاهلي المتحضر ويتميز بالآتي:

1- الاستقرار في أماكن صالحة للاستقرار، وتحويلها من خلاء موحش إلى قرى عامرة بأوجه الحضارة.

2- قيامه بصناعة الكثير مما يحتاجه، من آلات حادة للدفاع عن النفس، ولمزاولة أعماله اليومية.

3- بمباشرة استغلال الأرض واستخراج ما تجود به من ثمار تعتبر كثيرة بالنسبة لعصره ولإمكاناته المحدودة.

4- في نجاحه في خلق علاقة مع الظواهر الكونية، فاكتسب الاستقرار النفسي بإشباع غريزة التدين، ووصول بعض فئاته في هذا المضمار إلى أرقى درجات التدين وهي توحيد الخالق.

5- نجاحه في توحيد لغة التحدث في الأسواق، وانضواء كل فئات المجتمع تحت لواء اللسان القرشي.

المجتمع الجاهلي البدوي ويتميز بالآتي:

1- بقيامه على وحدة القبيلة.

2- بخضوعه لقانون الثأر في العلاقة بين القبائل، بل بين فروع القبيلة الواحدة.

3- بشريعة المروءة، وهي التي تسير تلك الوحدات الاجتماعية.

4- بحياة التنقل الدائمة صفة ملازمة للظعن.

5- بالاعتماد في الحياة على الناقة، وما يجود به ضرعها.

6- استمرار وجود القبيلة يعتمد على قوة الشوكة.

المبحث الأول

المرأة في مجتمع ما قبل الإسلام

لا شك أن المرأة نصف المجتمع في كل المجتمعات مهما تعددت واختلفت أزمانها، فهي الأم والأخت وبنت العم والخال وبنت الأخ والأخت، وهي الزوجة والمحبوبة التي يبذل تجاهها كل غالٍ ونفيس.

وهذا العنصر المهم في الحياة له دور كبير في تغيير المجتمع سواء كان سلباً أو إيجاباً، ونحن بصدد دراسة عصر مهم في حياة العرب ألا وهو العصر الجاهلي. وتعتبر أهم أنواع المتع فيه لذا بدأت بأهمها وأجلها، وذلك بمعرفة جوانب حياة المرأة فيه من زواج وعمل وصنعة والوقوف على قيمها عموماً إذا كانت حرة أو سيدة أو أمة، ومعرفة أدوات الزينة والجمال عندها. كما تقدم نموذجاً للحياة العربية ومتعها من خلال قيمة المرأة عندهم، كما نتعرض لذلك من خلال أقوال الشعراء الذين يتباكون على ذكر المحبوبة وأطلالها وديارها في الفصل الذي يليه وهذا دليل على رفعتها عندهم. كما نتعرض في هذا المبحث عن الزي الذي حدث فيه الكثير عن اللغط عن المرأة العربية وحقوقها المسلوبة ودعوة الغرب السافرة على المرأة المسلمة وتقيدها بالحجاب الإسلامي، ولا يدرون بأن المرأة قبل الإسلام كانت محتشمة.

عمل المرأة

كانت العرب شديدة التشدد بالنسب والمصاهرة وقد قسموا نساءهم إلى أربعة طبقات: الأمة، والجارية، وأم الولد، والسيدة. فالأمة للرعي والحلب، والجارية لخدمة المنزل، وإذا تزوجها سيدها واستولدها سميت أم الولد. أما السيدة فلا تكون إلا عربية أصيلة ولا تظهر بل تختفى في الخدور، ومن هنا كان المثل، "ابن ست وابن جارية"(1).

---

[1]) أدبنا العربي في عصر الجاهلية، حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1990، ص 141.

يفرق الدكتور الحوفي بين السبايا والإماء فيقول: (السبايا عربيات يؤخذن قسراً في الحرب أو الغارة، وثمنهن الدم، أما الإماء فغير عربيات يشترين بالمال للخدمة والتسري) [1].

يقول شوقي ضيف: هناك نوعان من النساء في العصر الجاهلي نساء إماء وحرائر، وكانت الإماء كثيرات في المجتمع، وكان منهن عاهرات وقينات يضربن على المزاهر في الحوانيت، كما كان منهن جواري يخدمن الشريفات، وقد يرعين الإبل والأغنام، ولكن في منزلة دانية، وكان العرب إذا استولدوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن، إلا إذا أظهروا بطولتهم كما هو الحال في عنترة بن شداد"[2].

وكانت الحرة تقوم بطهي الطعام، ونسج الثياب، وإصلاح الخباء، إلا إذا كانت من الشريفات المخدومات فإنه كان يقوم لها على هذه الأعمال بعض الجواري. ولبنات الأشراف والسادة مكانة خاصة ومنزلة سامية، فكن يخترن أزواجهن ويتركنهم إذا لم يحسنوا معاملتهن، وكانوا يصحبوهن في المعارك والحروب وكن يشددن من عزائمهم بما ينشدن من أشعار وأناشيد، وفي هذا تلمع أسماء كثيرة مثل الخنساء[3]. نجد للنساء دوراً مهماً وحين يظهر في هذا الشعر الجماعي إذا كن يؤلفن حفلات الأعياد والأعراس وحين يظهر في القبيلة شاعر كبير فيرقصن ويلعبن وينشدن في هذا السلم. أما في الحرب فكن يؤلفن الشعر لتحمس الرجال وتثير فيهم الحمية، يروي أن هند بنت عتبة ونسوة من قريش في غزوة أحد كن يضربن على الدفوف وكانت تنشد وتقول:

نحن بنات طارق   نمشي على النمـارق
إن تقبلوا نعانـق   وإن تدبروا نفـارق
فراقٌ غير وامق

وكن حين يعدن مع قبائلهن من الحرب يقمن مآتم كبيرة للشجعان ذوي البأس المقتولين، كي تعود القبيلة وتثأر لهم. وكان يشيع بين نساء الجاهلية في نواحهن

[1]) المرأة في الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، ص 389.
[2]) الشعر وطوابعه الشعرية على مد العصور، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة مصر، ص 15، د.ت.
[3]) المرأة في الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، ص 390.

ضرب من "التعديد"، وهو أن تنوح المرأة وترد عليها صاحبتها لاطمات الخدور مرددات ما تقول، ومن أشهر المآتم مأتم كليب التغلبي حين قتله صهره جساس من بني بكر والذي أدى إلى حروب ساحتة استمرت أعواماً.

وكانت النساء تنوح على قتلاهن سنوات طوال حتى تأخذ القبيلة الثأر، ويندبنهم في المواسم العظام على نحو ما كانت تفعل الخنساء عندما تخرج إلى سوق عكاظ وتندب أخويها صخراً ومعاوية[1].

ولا يخفى أن المرأة الحرة لم تكن ممتهنة في العصر الجاهلي، بل كانت في المكان المصون، إلا أن هناك مجالات كن يعملن فيها من ذلك اصطحابهن في الحروب، ويتجلى ذلك عند عمرو بن كلثوم حينما يفخر بأيام قومه وحروبهم قائلاً:

على آثارنا بيض حسـان نحاذر أن تقسم أو تهونا

أخذن على بعولتهن عهداً إذا لاقوا كتائب معلمينا

أول ما نلاحظ هو الفخر بالأصالة والعرق العربي في عبارة "بيض حسان" ثم في عبارة "على آثارنا" دليل على أنهن كن معهم في الحروب من أجل بث الحماسة فيهم، هؤلاء الحسان أخذن على بعولتهن عهداً، وهذا مؤشر إلى أن المرأة الجاهلية كانت تختار زوجها.

وهذا هو الحارث بن حلزة يصور مشهداً آخر فيقول:

إذا رفعنا الجمال من سعف البحران سيـراً حتـى نهانـا الحسـاء

ثـم ملنـا عـلى تميـم فأحرمنـا وفينـا بنـات قـ ـوم إمـ ـاء

اشتهرت جزيرة العرب بالحروب في الجاهلية، يصف الشاعر مشهداً منها وهو هجومهم على تميم وسبي نسائهم وصرن إماء لهم ونلاحظ في قوله "فينا بنات قوم" شاهد على أن المرأة كانت مع الرجل في الحرب[2].

أما عملها في الخمر والغناء فالقول فيه كثير، نجد أن عمرو ابن كلثوم استهل بها معلقته:

ألا هـبي بصحنـك فأصبحينـا ولا تُبقي خمـور الأندرينا

---

1) الشعر وطوابعه الشعرية على مد العصور، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة مصر، ص 15، د.ت

2) شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، ص 175.

ويقول:

صبنت الكأس عنا أم عمـرو وكان الكـأس مجـراها اليمينـا

في الأبيات السابقة يخاطب المرأة بأن تقوم مبكرة لتسقيه الخمر وهذا شاهد على عملها في هذه الحرفة[1].

وهذا لبيد بن ربيعة لا يختلف عن سابقه في السقيا والحديث عن الخمر والغناء فيقول:

وصبوح صافية وجذب كرينة بموتـر تأتا لـه إبهامـها

يقول: من صبوح خمر صافية من الجارية التي تعزف العود الموتر، تعالجه بإبهامها الرقيق.

يقول طرفة بن العبد:

نداماي بيض كالنجوم وقينةٌ تروح علينا بين بردٍ ومجسدٍ

ويقول:

إذا نحن قلنا أسمعينا أنبرت لنـا على رسلها مطروقـة لم تشدد

إذا رجعت في صوتها خِلْتُ صوتها تجاوب أظار على ربـع ردي

يذكر المغنية التي تغنيه مع أصحابه وندمائه، ويصف صوتها وحسنه عندما تردده[2]. هذا شاهد على أن المرأة في مجتمع ما قبل الإسلام كانت تعمل بالغناء في الخمارات والقصور.

الزينة والزي عند المرأة الجاهلية

كثيراً ما أشار الشعراء الجاهليون إلى أدوات الزينة ومواصفها بل هذه نزعة لدى الشعراء لابد من انعكاسها في شعرهم لتضفي عليه رونقاً وعلى المرأة مظاهر الجمال وهيبته الفاتنة، ومما يجدر الإشارة إليه أن أدوات الزينة من مكملات دواعي الجمال عند المرأة في الجاهلية – وحتى يومنا هذا- فهي تعطي رونقاً ومظهراً يتجلى به السحر والجمال الفاتن المحرك لأحاسيس الرجال خاصة عندما ترتبط هذه الزينة بالمرأة التي تتوافر فيها معايير الجمال ومواصفات الحسن الجسدية من طول

---

1) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص 126.

2) المصدر السابق، ص 61.

الجيد المضروب بالعقد والوضاء، والرجلين والفخذ والساق المحمود غير الرقيق والسوار المضروب حولها، زينة لا تضاهيها زينة أخرى؛ لأنه اكتملت له أسباب الزينة والجمال متضافرة مع بعضها البعض وهذا الذي يجن الشعراء به جنوناً.

وكان جمالهن يثير وينطق ألسنتهم بوصفه ووصف ما كان يتزين به من طيب وحلي وثياب. كما يقول أمرؤ القيس:

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

هذا يدل على أنها تتطيب ثم تنام، ونوم الضحى دليل على أنها سيدة منعمة مخدومة[1].

كذلك من أنواع الزينة المستخدمة للمرأة في ذلك العصر الوشم وهو رسومات في شكل دوائر على اليد. وهو ضرب من ضروب الزينة عند المرأة العربية الجاهلية. كذلك الكحل نوع من الزينة، يستعمل لجلاء العين وإظهار جمالها. أيضاً الحلي لون من ألوان الزينة يلبس غالباً بالأرجل والمعصم، فقد يكون من العاج الخالص الذي هو على هيئة حجول وسوارات، هذا النوع من الزينة له وقع خاص في نفوس الآخرين ومحرك للغرائز مما يدعو لاغتراض الشعر[2]، خاصة عندما تضرب الأرجل وتحرك، تسمع أصوات الحلي وتحرك النفس وتثير الانفعالات.

وقد نهى القرآن الكريم عن الضرب النسائي لهذه الحلي حتى لا تسمع الأصوات وتحرك النفوس المريضة، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: (ولا يَضْرِبْنَ بِأرجُلِهِنَ لِيُعْلَمِ ما يُخْفِيَنَ مِنْ زيْنَتِهِنَ...)[3].

زي المرأة الجاهلية

من غرابة الأمور أن كثيراً من الأوساط الأدبية التي لم ترتق بذهنيتها إلى الفهم الصحيح لتركيبة المجتمع الجاهلي، كانت تحسب أن المرأة الجاهلية مبتذلة متبرجة في زيها، هابطة في سلوكها لكن ما وصل إلينا من أشعار يدحض تلك

---

1) تاريخ الأدب العربي، ص 75.
2) شرح القصائد العشر، ص 130.
3) سورة النور، آية 31.

الاقتراءات. فقد كانت المرأة في الجاهلية تضرب على وجهها القناع، وترتدي الجلباب، والمنعمات ذوات الجاه والنفوذ كن يفضلن لبس الحرير المجلوب من بلاد فارس والروم.

وقد كانت المرأة الجاهلية ذات حياء وحشمة، ولبس ساتر وما يؤكد ذلك ويعضده ما قاله عنترة بن شداد في شأن محبوبته عبلة حين خاطبها قائلاً:

إن تقزفي دون القناع فإنني   طب بأخذ الفارس المستلئم

ومن أنواع الثباب والزي. ثياب النوم وثياب الخروج، فثياب النوم من قطعة واحدة ويسمى المتفضل، كذلك الوشاح نوع من اللبس يأخذ وسط المرأة المتوحشة. الذيول والمرط عند العرب كساء من حرير أو من صوف تلبسه المرأة، وتسمى المرأة مرطاً. كما أن هناك أنواع مختلفة من الكساء، وتعدد في المادة المصنوع منها، وهذا يعني أن هناك تباين في طبقات النساء اللاتي يلبسن هذا الزي، وأن للمرأة أزياء متعددة في حالة نومها ترتدي زي معين، وفي حالات أخرى لها زي آخر. كما تعددت الملابس لدى المرأة الجاهلية. وعلى حسب وضعها الاجتماعي يكون زيها.

أما المغنية فترتدي برداً، أو ثوباً مصبوغاً بالزعفران، أو ثوباً مشبع بالصبغ. وهذه الملابس واسعة مخرج الرأس أو الجيب لإدخال الندامى أيديهم للمس جسدها، وكشف صدرها وإظهار مفاتن جسمها، لكي تثير النداماي وتحرك عواطفهم نحوها. كذلك من أنواع الثياب الدرع. وثياب تجرهن الحرائر دليل على أنها كبيرة تستر جسمها حتى عجزها[1].

وهذا مؤشر واضح إلى أن المرأة الجاهلية كان لها زي معروف ومميز، ومتعدد الأوصاف والأغراض، فهناك زي الراقصة المغنية، وهناك لبس النوم للسيدة.

---

[1]) شرح القصائد العشر، ص 432.

هذا ويمكن القول أن لبس المرأة الجاهلية كان ساتراً، فحين جاء الدين الإسلامي وجد بعض العادات والتقاليد الحميدة المرتبطة بالملبس فأمن عليها وتركها سائدة في المجتمع الإسلامي مثل القناع والجلباب.

قناعة المرأة الجاهلية: كانت الميسورة الحال تلبس العقد في عنقها يكون واحداً تارة، ويكون أكثر من واحد متفاوت الطول تارة أخرى، ووجدت من تيسر لهن عقود الجواهر والالئ، والأحجار الكريمة، وهذا هو أجود أنواع العقود حتى الآن.

وتزيين البدوية بالأقراط في أذنيها والخلاخل والأسورة كما ذكرت. أما الوشم فبالرغم من ذكره في بعض مطالع القصائد، لم أجد أحداً جعل هذا النوع من الزينة في مجتمع البدو، موضوع مدح لصاحبته، غير أن طرفة الذي أشار إلى سواد لثة حبيبته، ولم يوضح إذا كان هذا طبعاً أم نتيجة وشم. هذا مما يجعلني أرجح أن هذه الظاهرة كانت شائعة في الأواسط المختلفة من هذا المجتمع، وإن كل النساء اللائي أشير بذكرهن في الشعر كن من الطبقة الموسرة، أو على الأقل يحاول الشاعر أن يجعل صاحبته هكذا.

وإذا كانت صفة الوشم تتمتع باحترام في نظر المجتمع لما بخل بها شاعر على صاحبته، ولما انحصرت في تشبيه الديار البالية فقط. لهذا كله فإني أقول ربما تكون شائعة وبليت كما بليت الديار، وانحصرت في الطبقة التي ينظر إليها باحتقار. أما طيبها فهو المسك وهو أجود أنواع الطيب. وكثيراً ما قارن الشعراء بين رائحة محبوبته وبينه. غير أن هناك أنواع من الطيب، تستعمل على هيئة مجموع أرياح تسحقها العروس، على المداك تتطيب بها وهذه العروس يكون شغلها الشاغل هو تجهيز طيبها، حتى تتحول صخرة السحق إلى سطح لامع مما جعل أمرؤ القيس يشبه ظهر فرسه بها في معلقته المشهورة.

أستطيع أن أقول، بعد تتبع تلك الظاهرة الاجتماعية أن مكانة المرأة وزينتها وحشمتها، والدور الذي تؤديه في المجتمع يعتبر بحق دليل على النضج في المحتوى الإنساني، وتفاعل أولئك النفر مع الجماعات الإنسانية حتى كانت عالم ذاك الزمان. ودليل أيضاً على أن البادية في العصر الحاضر لم يطرأ عليها تغيير يذكر،

رغم البعد الزمني السحيق بين بادية الجاهلية، وبادية القرن العشرين في السودان على الأقل.

ويجعل الدكتور شحاتة، ظروف البيئة وأسلوب المعيشة هي التي أعطت هذا النوع من البشر قوة المحافظة على نمط اجتماعي ثابت عبر القرون الطوال. حيث يقول: "المناطق الصحراوية تعتبر حواجز طبيعية، تحول دون نمو الجماعات الإنسانية، وفي هذه المناطق تجد السكان. متخلخلين كما تجد المعيشة غير مستقرة والثروة التي تقوم أغلبها على أموال منقولة وغير ثابتة لقطعان الماشية والأغنام، ويصعب إقامة تنظيم اجتماعي على نطاق واسع، والظروف الصحراوية القاسية تخلق أفراداً ذوي شجاعة نادرة وشخصية مستقلة صابرة. أما الثقافة والعادات والتقاليد، فإنها تظل ثابتة لمئات السنين)[1]. وفي ختام هذا المبحث خلصنا إلى أهمية المرأة والأدوار التي لعبتها وتؤديها في الآتي:

1- المرأة كمربية للمجتمع وهي أم الأبطال.

2- تقديس المرأة وتقديرها واحترامها، وردود الفعل عندما تصاب بسوء كأن تسبى أو تأسر.

3- وفي المجال الاجتماعي، فإن المرأة عفيفة محتشمة، وهذه قيم داعية للاحترام.

كما تجيء أهمية المبحث في وقت وزمن، تلاشت فيه القيم والمثل، والأخلاق، لننظر ما كانت عليه المرأة الجاهلية وما عليه المرأة في ما يسمى بالعصر الحديث. وختاماً إذا نظرنا إلى المرأة في هذا المجتمع القبلي وجدنا أنها لم تكن بالذليلة المهانة كما يتصور بعض الكتاب من الذين يرون أنه يختلف كل الاختلاف في الإسلام، ولسنا بحاجة على أن نبرهن على إعزاز الرجل الجاهلي للمرأة، فالشعر الجاهلي يزخر بذلك، ويكفي أن القصيدة الجاهلية كانت تبدأ بذكرها. وإظهار الأسى والحزن عليها وعلى فراقها والبكاء على الأطلال، بل أن الشاعر الجاهلي كان يشهد المرأة على شجاعته، وحسن خلقه كما شاهدناه في قول عنترة بن شداد سابقاً.

---

[1]) أسس علم الاجتماع، حسن شحاتة، ص 72.

والمرأة الجاهلية أيضاً كانت تشارك الرجل في الأعباء اليومية، فهي تحتطب وتجلب الماء، وتحلب الماشية، وتصنع الملبس وتصلح من شأن المسكن، وتخرج أحياناً مع الرجال في الحروب بهدف تحميسهم، وبث الشجاعة والإقدام في نفوسهم[1]. فالمرأة في ذلك المجتمع القبلي لم تكن مهملة. فهي حرة تتصرف في نفسها ومالها كيف تشاء، وقصة اتجار الرسول صلى الله عليه وسلم في أموال السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين مشهورة في كتب السيرة. فقد دعم الإسلام هذه الحرية. فأكرم المرأة، أمة وحرة، فدعى إلى العناية بها والعطف عليها فحرم أن تعضل أو تمنع من الزواج بعد وفاة زوجها، كما حرم أنواعاً كانت شائعة عند الجاهليين منها: نكاح المقت[2] ونكاح الشفار[3]، والجمع بين الأختين وإن كانوا يكرهونه. وينهى بعضهم عنه[4]، كما نهى عنه الإسلام في قوله عز وجل: (حُرمت عَلَيْكُمْ أُمَهاتُكمْ وَبَنَاتُكُم وأخَواتُكمْ وعَمَاتُكم وخَالاتُكمْ وبَناتُ الأخ وبَناتُ الأختْ وأمهاتكم التي أرْضَعْنَكُم وأخواتكم مِن الرضاعة وأمهات نِسائِكمْ ورَبائِبكم التي فِي حِجوركُم مِن نِسائِكم التي دَخلْتُم بِهنَ فإنْ لَمْ تَكُونوا دَخلْتُم بِهن فَلا جَناح عليكم وحلائل أبْنَائِكم الذين مِن أصْلابِكم وأن تَجْمعَوا بَيْنَ الأختَين إلا مَا قَدْ سَلَف إنّ الله غَفُوراً رَحيماً)[5].

وعلى كل حال فإن مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي – على ما فيها من الهنات والمساوي- مكانة كريمة، والمرأة نفسها عرفت بالعفة والأدب، والحرص على شرفها وكرامتها، وهذا أمر طبيعي في مجتمع يتبوأ فيه العرض والشرف المكانة العليا، ويحرص العربي فيه على عرضه حرصه على الحياة. وسوف أتعرض أيضاً للمرأة كمتعة مرة أخرى ولكن في نظر الشعراء في الفصل القادم.

والمرأة في المجتمع الجاهلي بصفة عامة، ربة منزل تقوم بإدارة منزلها وترتيب خدرها، وتغزل الوبر، وتنسج، وتتخير من الجنادل ما يناسب قدرها من

[1]) الحياة العربية ملف الشعر الجاهلي، الحوفي، دار القلم بيروت، لبنان، ص 48 – 49.
[2]) هو أن يخلف على المرأة الابن الأكبر لزوجها. وكان الجاهليون أنفسهم ينكرون هذا الضرب من النكاح وكانوا يسمون الولد منه (مقتي) أو (مقيت) وقد حرموا ضروباً آخرى من الزواج. وقد أقر الإسلام هذا التحريم.
[3]) إن ينكح الرجل وليه رجلاً. وينكح ولين ذلك الرجل بلا مهر.
[4]) نهاية الأرب 245/2.
[5]) سورة النساء، آية 23.

الأثافي. كما تقوم بعض النساء بعمل تزين النساء بالوشم في شكل رسومات دائرية وتستخدم فيه الإبر للنقش وتحشوها بما يساعد على ظهور الوشم بلون أسود، وهذا الوشم يتعرض للتجديد إذا بلي، فتأتي الواشمة وتجدده في نفس الوشم الذي رسم فيه أولاً[1].

ويفصل هذه الظاهرة الألوسي بقوله: (وهو على ما ذكر أهل اللغة أن يغرز في العضو إبرة أو نحوها حتى يسيل الدم ثم يحشى، فيخضر. وكانوا يقصدون بذلك التزين. فينقشون به غالب أبدانهم، أنواعاً من النقوش من صور لحيوانات وغيرها وكذلك الشفاه في غالب نسائهم زرقاً) [2].

أما الأمة التي تخدم السيدة، فعملها توزيع لحم الناقة مثلاً، وتجعل منه الشواء وتملأ القدور، وتتخير لسيدها أطيب قطع السنام، وبعد هذا كله لا تأكل إلا الحوار الذي يخرج من بطن الناقة. وأيضاً هناك المخدومات منعمات محروسات يباشرن علاقتهن العاطفية، في حذر وخلسة، ولا يتطاول عليهن إلا من تحول مكانته بينه وبين حد السنان كما عند أمرؤ القيس. ويظهر أثر التنعم في البشرة، والأيادي الناعمة، والنوم وقت العمل.

وبجانب هذا التنعم وذاك الدلال، هناك الفقر والبؤس التعسي يتمثل في الحرة التي مات عائلها، فتركها تهيم على وجهها، تتلقى هبات المحسنين، في حلقات الميسر، ويفتخر المحسن بأنه كان لها ملاذ.

جمال المرأة البدوية

إن مقاييس الجمال في هذا المجتمع، تهتم بمفاتن الجسد، ويتأملها تاملاً فاحصاً، يوضح كلفهم به كلفاً شديداً، فيعجبهم الخصر الدقيق، والسيقان الممتلئة الريانة، والغد الرشيق والبشرة الناعمة، والتثني الفاتن، والعنق الحريري البراق. فنجدهم يظهرون رشاقة القوام التي شغفوا بها في مناظر مختلفة، فالمرأة تارة تشبه الظبية القلقة التي تقف على أطراف أقدامها، تمد عنقها في براءة ولطف.

---

[1]) المرأة في الشعر الجاهلي، أحمد الهاشمي، ص 43.
[2]) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

وتارة أخرى شادن، هادي يتلهى بالتقاط ثمر الأراك. كذلك الوجه المشرق مصقول الخدين الذي يتوسطه فم مستدير ويتلألأ وسطه ثغراً أبيض وضاء، طيب الشذى عذب الريق. أما الصدر فإن يطل على الكشح المهضوم، والنهد الجامح يكون مكملاً للصورة الجمالية. ومن المحاسن التي اهتم بها المجتمع الجاهلي لدى المرأة الشعر الأسود الناعم المكاثف المنسدل الذي تتسابق خصلاته – التي فاضت على اليدين- على الكتف ومؤخرة الظهر. كذلك الأصابع، فضلوها أن تكون ناعمة لينة الملمس، رخصة طويلة لدنة.

إن هذا المجتمع الذي كشف عن هذه المحاسن، التي لم يطرأ على تفضيلها أي تغيير حتى اليوم، في مختلف المجتمعات، لابد أن يكون قد مر بمراحل مختلفة من التطور. هذبت مشاعره ونمت ذوقه، واستأصلت وحشيته، ورققت إحساسه، وجعلته يشعر بأهمية الغذاء العاطفي، ومقومات هذا الغذاء، ووضع أسساً ومقاييساً للجمال، أعجزت من أتى بعده أن يقلل من قيمتها أو يهمل أهميتها.

أما عن الملابس –كما ذكرنا سابقاً وبصفة عامة- فهي أما مخدومة مدللة- فثيابها مزركشة محلاة بالصور، وتكون متعددة، ثياب رقيقة خفيفة لنومها، وأخرى ليقظتها- ومنها ما هو قطني أبيض منسدل، تتبختر في تيهاً ودلالاً.

أما المرأة التي تخدم نفسها، وتكدح وتشقى فلبسها ثوب واحد تستتر به. وزينتها الوشم على اليدين والشفة كما رأينا سابقاً.

الفخر بالمرأة

من أغراض الشعر والمتعة فيه الافتخار بالمرأة في العصر الجاهلي، فكان شاعر القبيلة يفتخر بها ويكرمها وجودها، إلا أن الفخر بالمرأة وذكر الاستبسال من أجلها في الحروب لها طابع مميز عندهم ولعل هذا هو حال البيئة الجاهلية مع المرأة هي الجوهرة والدرة الثمينة التي يسعى كل شخص للوصول إليها والفوز برضاها، ويبذل الجهد للدفاع عنها، لأبعاد كل ما يشين ويدن شرفها.

كانت العرب شديدة الحرص على المرأة ولم يكن شيء يثيرهم كسبي نسائهم، فكانوا يركبون كل وعر حتى يلحقوا بهن وينقذوهن ويغسلوا عار سبيهن

عنهم. وكانوا يصحبوهن في المعارك والحروب ويذكروهن لحظة القتال ليزدادوا حماسة وقوة.

ولعل القرآن الكريم قد أشاد في بعض الآيات إلى أن المرأة في المجتمع الجاهلي كان التعامل معها يحذر على زاويتين هما:

1- الأولى: هي موضع العز والكرامة ومنها يأتي الخير حين يخرج من رحمها الأبطال الأشاوس أسود القبيلة ودرعها المتين، وإن كانت من الإماء والجواري تسمى بأم الولد، وتلحق هي وابنها بنسب القبيلة كما حدث لعنترة بن شداد.

2- الثانية: وهي بؤرة الشر ومبعث العار، وقد أشار القرآن الكريم إلى أسباب قتلها وإعدامها بمجرد وصولها للحياة كما رأينا سابقاً في سورة التكوير في آية الوأد.

أيضاً ولادتها تعني السواد الأعظم، كما أسلفنا ذكره في سورة النحل الآية 58 -59 قال الله تعالى: (وإذا بُشر أحَدُهم بالأنْثى ظَلَ وَجْههُ مُسْوداً وهو كظيم)[1].

أشار بعض المفسرين إلى أسباب ذلك وروده إلى أمرين:

الأول: خوفهم من الإنفاق عليهن خشية الإملاق والفقر.

الثاني: خوفهم من جلب العار إلى القبيلة بسبب الضعف. مما سبق يظهر لنا جلياً أنها موضع الفخر والاعتذار، والذم والشتم إن اختلت الموازين المتعارف عليها فمنها وبها تستمد أسباب البقاء أو الفناء.

---

[1]) سورة النحل آية 58.

المبحث الثاني

الخمر والميسر

1/ **الخمر**

سأتحدث في هذا المبحث من حيث أنها ظاهرة يكاد وجودها في مجتمع جاهلي، متعة وعادة لا يحيد عنها أحد، فهي عندهم مكان مدح وسمة من سمات الرجل الكريم، ولا يجد شاربها اعتراضاً من أحد ما دامت سمة من سمات الرجل الكريم، كما أن شاربها لا يجد اعتراضاً ما دام معتدلاً في شربها. وهيئة شربها تمثل مظهراً من مظاهر البهجة والفرح في المجتمع الجاهلي، فلها أماكن خاصة تشرب وتباع فيها، ولها أوقات يفضل الشرب فيها.

أما الأماكن التي تباع فيها، فتعرف عندهم بالحوانيت ويعلن عن وجودها في الحانوت برفع راية فوق الحانوت، ما دامت فيه بقية خمر، فإذا بيعت نزلت الراية. والتواجد في تلك الأماكن لا يعتبر في المجتمع منقصة، بل هو مفخرة ولا يقل عن التواجد في مجالس الشورى التي تبحث شئون القبيلة، والراية لا ترفع إلا للخمر التي عرفت بالجودة. فعمرو بن كلثوم هتف في ساقيته، أن تبادره بها صباحاً قائلاً:

ألا هبي بصحنك فصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وعنترة يشربها وقد اشتعل الجو ناراً ولاذ كل حيوان إلى ظل يقية اللظى. أما الزمن المفضل لشربها عندهم فهو بداية اليوم الصباح، يفتحون بها اليوم، وأن هذا التقليد وتلك العادة تجعلنا نتصور مدى إقبال هذا البدوي على الخمر، ولا سيما إذا علمنا مكانة كل من أمرئ القيس وعمرو بن كلثوم ولبيد العامري.

أما مجالس الخمر والأدوات المستعملة فيه من آلات طرب، وكاسات خمر ونساء ساقيات. فكل هذا مظهر مدني يتمتع به البدوي، عندما يؤوب إلى القرى الحضرية في أيام السلم فإنه يكون مظهراً من مظاهر الفرح والأنس عامراً بالندماء، وتضيق ساحاته بالطرب، وتدار الراح بكاسات تحملها القواني وهن ينشدن بأصوات شجية تلحن بنغمات الموسيقى، ويملأن المجالس بهجة وسرور.

الأواني: أما الأواني المستعملة في الخمر، فإنها كانت تشرب بالكأس الزجاجية المزينة بالخطوط الزاهية، وتارة يكون إبريق ساطع اللون، كسناء برق عليه مصفاة، ومرة تحمل في الذق الخابية. والخمر كلما اشتد سوادها كان دليلاً على عتقها. وكما ذكرنا أن شربها متعة وعادة مقبولة من المجتمع لكن مع هذا لهم موقف معاد لمدمن الخمر، الذي يفني ما في يده، ويكون همه الانتقال من خمارة إلى أخرى ويشتد هذا العداء ويصل لدرجة الطرد والعزل الاجتماعي؛ لأن هذا الفرد المنغمس في ملذاته ومدمن للخمر، سيكون قطعاً بمنأى عن المروءة، التي جعلها المجتمع الجاهلي من أعز عاداته وظواهره التي تبذل في سبيل بقائها الغالي والنفيس.

كما يركز عمرو بن كلثوم على محاسنها وعلى رأسها البذل والعطاء، وأنها وحدها التي تستطيع أن تخرج مال الأحمق الشحيح منه، أما السخي الكريم فإنها تزيده كرماً، وإنها تزيل الهم والغم عن شاربها، فكأنها عامل مساعد لنمو صفة الكرم والسخاء.

إذن الخمر بجانب أنها متعة في شربها في ذلك العصر، فهي كذلك مظهر من مظاهر الفخر بالمروءة التي تعتبر الكرم من أهم الأسس المكونة لها.

أما المادة المصنوعة منها: فهي التمر والنبيذ والعنب وبعض الحبوب وقد تصنع محلية وتكون مستوردة وأهم أماكن استيرادها بلاد الشام والعراق "قرى الأندرينا". أما أجودها وأفضلها الخمر المعتقة، والمشعشعة الرقيقة من العصر. ولها عصارات تجود في الحوانيت تعرف بعصارة الخمر.

بعد هذا التعرف على الخمر وأنواعها والأماكن التي تباع فيها وأوقات شربها، والمواد المصنعة لها، نتساءل لماذا أولع العرب بها؟ وهذا السؤال نأخذ الرد عليه بإجابة الدكتور أحمد محمد الحوفي بعدة إجابات هي:

أولاً: أغرم بها العرب مخضرمين ومبتدئين، فشربوها، وافتخر الشعراء بها، وبذل الأموال في سبيلها، واولعوا بها ليزحوا عنهم الفراغ الطويل الممل، ولتزيدهم حمية وحماسة في الحرب، فإنهم كانوا يشربون الخمر لتزيدهم جرأة وشجاعة. وأنها

باعثة على الكرم، ثم أنهم استهانوا بالحياة لكثرة حروبهم وتوقعهم الفجيعة في أنفسهم وفي أحيائهم، فانكبوا على لذات الحياة يعلون منها وينهلون من متعتها. وهذه خصلة ما زالت إلى الوقت القريب في الحرب، وكانت في كل حرب حتى قالوا أنهار الدماء، وأنهار الخمر.

ثانياً: ثم أن هؤلاء بين غالب ومغلوب، غالب سبي وغنم وظفر، فيصب الخمر بهجة ونشوة ومجلبة للزهو المضاعف. ومغلوب كسرق وسلب ماله وأسرته ونساؤه ورحاله وفجع في حيه، فأظلمت حياته، وضاق بالدنيا وضاقت به، فيلوذ بالخمر يتناسى بها همه برهة من الزمن.

ثالثاً: وهم يرون أن الموت يتخرم الأعمار، ويتخطف الأصحاب، ويذوي الآمال، فليستمتعوا في حياتهم بما يملكون، قبل أن يحتويهم التراب.

رابعاً: هؤلاء شغفوا بالخمر في مجامعهم الفرحة في الأعراس والأعياد، وفي التحالف عند الصلح، وقدموها قرى للضيف.

خامساً: كانت الخمر عندهم آثار نفسية وجسمية ومفخرة من مفاخر القادرين عليها بجمع الرجل ندمائه[1] فيسقيهم وينحر لهم، كما كان شربها عند الملوك مفخرة كبرى؛ لأن الذين ينادمون الملك يعتَبروا من الطبقة العليا.

كانت للخمر في الحيرة حانات كثيرة قامت إلى ما بعد الإسلام وذلك لقربهم من الفرس والروم، وكانوا يسكرون فيها ويفخرون بها، ولهم فيها ساقيات وقينات يستمتعون بهن وبشربها.

أما الأواني فقد ذكرها القالي في كتابه الأمالي شتى وهي: القدح الصغير، والغمر، والقصب أكبر من القدح الصغير، والصحن، والرفد والقدح العظيم أو المعلى. وشربوها في أباريق من فضة[2].

كما أن بعض العرب قد حرم شربها في الجاهلية قبل تحريمها في الإسلام فلم يحتسوها، ذكر أبو القاسم عبد الرحمن السعدي الأندلسي في كتابه (مساوي الخمر) كثيراً من صدوا عن شربها في الجاهلية منهم الكندي عم الأشعث ابن قيس،

---

[1]) النديم: هو الجليس الصاحب في الخمر.

[2]) الأمالي، القالي، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، 7/12.

كذلك ممن امتنعوا عنها تكرماً وصيانة لأنفسهم عامر بن الظرب على أن النساء ما كن يشربن الخمر، وكانت العرب في الجاهلية وصدر الإسلام يمنعون النساء شربها حتى ما يحفظ أن امرأة شربت، ولا أن امرأة سكرت، وقد سقى قوم إعرابية مسكراً، فلما انكرت نفسها قالت: أيشرب هذا نساؤكم؟ قالوا: نعم. قالت: لئن كنت صدقتم لا يدري أحدكم من أبوه. وهذه دلالة كبرى على عدم شرب النساء العربيات في الجاهلية الخمر، فقد اقتصرت هذه المتعة على الرجال فقط كما في الميسر والفروسية والثأر، إذن فإن المتع في مجتمع ما قبل الإسلام كان يمارسها الرجال وإذ أن المرأة متعة في حد ذاتها بالنسبة للرجل.

2/ الميسر

من العادات المتأصلة، والمتع التي شاعت بين الأغنياء من المجتمع الجاهلي، ويفتخرون به؛ لأنه ضرب من المقدرة والكرم، حيث يقوم الذي يربح بالميسر في إطعام المحاويج والمعاويز بما ربحه وخاصة أيام الشدة وانقطاع اللبن، وأيام الشتاء والجدب والقداح التي ترمي في الميسر نوعين، رابحة وغارمة، فالرابحة أنواع ولكل نوع سعر محدد للربح فمن الرابحة: الفذ، والتوءم، الرقيب، الحلس، والمسبل والمعلى، ولكل منها نصيب في الترتيب على النحو التالي: للفذ نصيب واحد، وللمعلى سبعة فالمجموع الكلي للقداح ثمانية وعشرون.

أما القداح الغارمة هي: المنيح، السفيح، والوغد.

الأوقات المفضلة للعب الميسر: كانوا يؤسرون ليلاً، حيث يوقدون النار وقد عقروا ناقة وعلى مقربة منهم فقراء العشيرة، ينتظرون ما يرمي به الأيسار من أنصبتهم التي حرموها على أنفسهم، كرماً وأنفة والتصديق باللحم هو النفع الذي ذكره القرآن الكريم. وقد مدحوا من يلعب الميسر بالكريم المهين للمال، وعابوا من لا ييسر، وسموه البرق[1].

---

[1]) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص 435.

وقد جاء الإسلام وحرم العادتين اللتين تعتبران من العادات والمتع التي يجد فيهما الجاهلي قمة النشوة والكرم ببذل المال واللهو، حرمهما الإسلام لما فيهما من أضرار بالغة تلم بالفرد والمجتمع، وتهدم الأسر وتخل بالعقل وغيرها من الأضرار.

وقد جاء تحريمها في الآية الكريمة في قول الله عز وجل ثناه: (يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما أثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) [1].

والميسر متعة يستمتع بها الجاهلي لو غرم فيها كل ما يملك وفخر يعتز به. كذلك من عاداتهم رمي السهم واعتقادهم الشديد فيه. وقد حرم الدين الإسلامي الخمر والميسر، رغم النفع الموجود فيهما لأن الضرر أكبر. قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) [2].

---

[1]) سورة البقرة، آية 219.

[2]) سورة المائدة، آية 90.

المبحث الثالث

الفروسية والصيد

الفروسية

هذه الكلمة اشتُقت من كلمة فرس، وعرف الفارس في ذلك العهد بأنه ذلك الشجاع قوي البنية الذي يمتطي صهوة الفرس.

وتغير مضمون هذه الكلمة بمرور الزمن وصارت هذه الصفة تطلق على مجموعة من الفضائل مجتمعة أهمهما الشجاعة في قول الحق، وبث الفضيلة، والنهي عن الرذيلة، وحماية الحي والمال والكرم وهو البذل بسخاء من أجل البذل لا من أجل الشهرة والسمعة والريا، ونصرة الضعيف، وإغاثة الملهوف، والصبر على الآلام والمتاعب وإيثار الغير، وغيرها من كريم الصفات. ولما كان التحلي بهذه الصفات لا يتحقق إلا إذا وجد الشخص عوناً وسنداً. صار الفرس في غاية الأهمية في هذا المضمار لقدرته على الوقوف بصاحبه على كل هذه المرافق وعلى مرافق أخرى مهمة في حياتهم كالصيد والسباق والرهان.

وقد جاء في دائرة المعارف البريطانية عن الفروسية كانت تعني في القرون الوسطى الفرسان المسلحين تسليحاً كاملاً وهم ممتطين صهوة جيادهم، ثم صارت بمرور الزمن تعني الشرف والشهامة والنخوة المتوقعة من الفرسان، وأخيراً صارت تعني مدلولها العام اللطف والمجاملة والأدب

ويرى الأستاذ الدكتور عبد الله الطيب عليه الرحمة وله المغفرة من الله عز وجل. أن الفروسية العربية مرتبطة كل الارتباط بالشعر ويقول: إن الشاعر في قلقه من مذهب الكهان أخذ يجنح إلى الفروسية طلباً للحرية والانطلاق في سبيلها(1). ويقول أيضاً ما يؤيد ذلك أن الشعراء أبدأوا في طلب المذاهب والقيم. وإذ أحسوا في الفروسية طلاقة يخرجون بها من قيود التهكن، ثم لا يكونون مع ذلك بعيدين بها عن مجتمعهم ويعظمون من شأنها، ولقد ارتاحوا إلى الفروسية دهراً طويلاً لما

---

1) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب، 353/3 – 354.

كانوا يجدون أنفسهم بها منزلة وسط بين الدين ذي الرهبوت والرياسة ذات الوقار[1].

كما يرى الدكتور عبد الله الطيب أن الفروسية آخر أمرها صارت مذهباً محافظاً ذا رسوم وطقوس وقيود. وأصبح غير عسير على الكريم من القوم أن يكون فارساً بطلاً من غير أن يكون شاعراً خالصاً للشعر، بل لعل من لم يكن شاعراً من القوم كان حرياً أن يكون أقوم بواجب الفروسية ورسمها من الشاعر لما تقتضيه طبيعة الشعر من كراهة المحافظة ومن الجنوح إلى الحرية والانطلاق[2].

ويشير أيضاً إلى الشعراء الصعاليك بأنهم مجموعة من الفرسان أخلصوا لمحض الصعلكة، لضيق مذهب الفروسية، أو حدود القبيلة بهم هو أنهم عمدوا على أن يضيفوا على قيم الصعلكة، لضيق مذهب الفروسية، أو حدود القبيلة بهم هو أنهم عمدوا على أن يضيفوا على قيم الصعلكة بهاء أشد من بهاء قيم الفروسية، وكأنما رأوا أن يجعلوا منها مذهباً، هو فروسية الفروسية، أو كانوا ينشدون أن يلفتوا الناس إلى طلاقة وحسن الحياة الصحراوية التي جعلت تضيق مظاهر للسيادة للقبيلة من نطاقها[3].

ويتابع عبد الله الطيب تاريخ الفروسية فيقول: إن مذهب الفروسية قد تحجر وانحاز لمذهب السيادة بوجه عام، وصحب ذلك التزام سمت المظهر وقيوده مما ساء الشعراء منذ عهد بعيد، كما يرى أن الشعراء قد عبروا عن ثورتهم هذه بطرق عديدة فمثلاً انحرف المهلهل فتغير نهجه في الحياة، وصار زير نساء مشهود له بذلك، واصطحب أمرؤ القيس الشذاذ والخلعاء، وطلب الإباحة، وعاش طرفة في غرام وهيام يجعله يختصر مذهب الفروسية.

إن الحديث عن الفروسية بلا شك يقودنا إلى الحديث عن الفارس وأخلاقه، وقد أشرنا إليه في معرض الحديث عن الفروسية. إن الفارس كما كانوا يزنونه بموازين ذلك الزمن القديم: شجاعاً، شهماً، كريماً، غيوراً، صبوراً، عزيزاً حسن

---

[1]) المرجع السابق، ص 854.
[2]) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب، 353/3 – 354.
[3]) المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

المعشر، وعفيف اللسان والطوية، صارت هذه الصفات من الأهمية بمكان، حتى صار العرب في جاهليتهم وإسلامهم يتبارون في التحلي بها فبعضهم يقر ذلك وهذا في الغالب يساعده تكوينه الجسماني وبيئته.

أهمية الفروسية في حياة العرب

ولأهمية الفروسية في حياتهم درج العرب من العهدين الجاهلي والإسلامي، على تدريب أبنائهم منذ نعومة أظفارهم على ركوب الخيل والرماية، وكان كل ذلك يتم خارج الأماكن المأهولة بالسكان، ويتم التدريب في الغالب على أيدي الآباء، وأخالهم يتدرجون في تدريبهم من خطوة لأخرى وفقاً لمقدرة الشاب في الاستيعاب. والتدريب على ركوب الخيل في الغالب لا يقتصر على الركوب فقط، بل تدخل فيه أشياء أخرى مهمة تتعلق بسياسة الفرس وترويضه، ومعرفة أجود أنواع غذائه، وأمراضه وعلاجها. فإذا أجاد الصغير ركوب الفرس والعدو عليه أخذوا يختلفون به في أنواع الركض المختلفة إلى أن تصل به مهارته إلى المنافسة في حلقات السباق، والدخول في ساحة الوغى، وآنذاك تفرح القبيلة وتعتز لإضافة سهم قوي إلى كنانتها، ثم ينتقلوا بعد ذلك بالشاب إلى التدريب على أنواع الأسلحة المختلفة كالسهام والسيوف والدروع، فإذا أتقن ذلك اختلفوا به إلى عدة فنون أخرى كالسباحة والجري وغيرها من ضروب الرياضة التي تساعد على تقوية الجسم ومناعته.

أهمية الخيل: في مجتمع يؤمن بقيمة الفروسية وخلقها نجد أن للخيل مكانة كبيرة جداً، ففي جاهليتهم مثلا كان اقتناؤها دليل على الثراء والنعمة، ومظهراً من مظاهر العظمة، وكانت مطيتهم إلى ساحات الوغى وميدان العراك. وفي أيام السلم كانت تروح عنهم عناء الضيق والإرهاق وهي تعدو في حلبات السباق، وكانت مراكبهم إلى مراتع الصيد ولولاها لما استطاعوا مطاردة الغزلان والحمر والبقر الوحشية، وغيرها من الحيوانات المتوحشة، ولما أثروا أدب العرب بشعر يسمو إلى مكانة في فلذة أكبادهم(1).

---

[1]) العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، ص 10.

وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعراً أو ولد لهم غلام، ونتج عندهم فرس، أتت القبائل فهنأتها، وأقيمت الحفلات ابتهاجاً بتلك المناسبة السعيدة. وكانت النساء تعد الطعام والشراب، ويظهرن في أبهى وأجمل مظهر، يحملن المزاهر ويلعبن بها كما يفعل، في المناسبات الأخرى كالزواج والأعياد[1].

وكانوا لا يفرحون ولا يبتهجون ولا يتبادلون التهاني إلا في ثلاث: (غلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس ينتج)[2].

وكانوا يؤثرونها أعز عزيز لديهم، ويلحقونها برووائهم إذا جاء الشتاء. ومما يدل على رفعة ومكانة الخيل في الجاهلية وصدارتها، أنهم كانوا لا يسيرون بها مهما كانت الظروف، وكانوا يسيرون بالإبل في الغالب وبما دون الخيل من أليف الحيوان كالثور والبغال والحمير.

كان اقتناء الخيل مظهر من مظاهر الجاه والعزة والمتعة والنعيم، ولذلك صارت مبعث فخر بالنسبة لمقتنيها فهي الحصن والحرز، ومبعث الأمن والسعادة. والخيول أنواع ومن نسل فحول العرب: أعوج، وزاد الراكب، والحروف وغيرها.

ألوان الخيل

الألوان التي ذكروها فأهمها[3]:

1/ الكميت: وهو لون بين الشقرة والكمتة. فرس أمرؤ القيس.

2/ أغر: والغرة بياض في الجبهة.

3/ أحوى: وهو الذي تشتد حمرته حتى يميل إلى السواد.

4/ مدماة: وهي تضرب كمتها إلى الحمرة.

5/ أشقر: والأشقر من الدواب: هو الأحمر

6/ أدهم: أسود

7/ أصم: وهو ما يضرب إلى السواد.

---

1) الوسيط في الأدب العربي، 59.

2) الوسيط في الأدب العربي، ص 59.

3) الطبيعتان الحية والصامتة في الشعر الجاهلي، بهيج مجيد القنطار، دار الآفاق الجديدة بيروت، 1986، ص 185.

ولئن كان المقصود في الحديث عن الخيل في مجال الحروب، قوتها، ونشاطها فإن الشاعر – فوق ذلك – كان يتطرق في شعره إلى الحديث عن مبلغ اهتمام العربي بخيله، ومدى قيمتها عنده، وكيف يقوم برعايتها والعناية بها مما يجعلها أكثر قوة ونشاطاً ولهذا ترى الشعراء بالنسبة للخيل في شعر المعارك قد رسموا صوراً شعرية تحدثوا فيها عن[1]:

أولاً: مدى اهتمامهم بالخيل وعنايتهم بها لتكون أهلاً للاعتماد عليها في الحرب.

ثانياً: صفاتها الجسمية بما يظهرها مصدراً للإرهاب والإعجاب.

ثالثاً: نشاطها وقوتها، ومدى احتمالها في الحرب.

نستنتج مما تقدم أن الجاهلي يعني بخيله عناية كبيرة، وليس ذلك بعجيب منه؛ لأن الفرس كانت عدته في الحياة، وذخيرته لوقت الشدة فعليها يعتمد في الحرب، ويستطيع –إن ساعده الحظ- بواسطة خيله أن يجاب لنفسه ثروة طائلة، بفضل ما يشنه من غارات، وما تدره عليه من غنائم وأسلاب، وفي وقت السلم، يمكنه بفرسه –إن لم يكن قوته متيسراً- أن يحصل على طعام شهي لذيذ عن طريق الصيد والقنص، ويستمتع به قمة المتعة.

مكانتها في الإسلام: كانت تلك مكانة الخيل في الجاهلية، ولما جاء الإسلام، وبعث الله سبحانه وتعالى هادي العالمين ومرشدهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، أمره باتخاذها وارتباطها فقال الله تعالى في كتابه العزيز: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنت لا تظلمون)[2]. فاتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم وارتباطها، وأعجب بها، وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم وارتبط بها مسح بكمه وجه فرسه وعينيه ومنخريه[3]، ووردت أحاديث عديدة تدل على تكريم الخيل، والحث على اقتنائها والعناية بها.

---

[1]) الطبيعتان الحية والصامتة في الشعر الجاهلي، بهيج مجيد القنطار، دار الآفاق الجديدة بيروت، 1986، ص 185.

[2]) سورة الأنفال ، آية 60.

[3]) العقد الفريد، ابن عبده ربه (أبي عمر أحمد بن محمد بن عبده ربه الأندلسي)، ش و ت: أحمد أمين، وأحمد الزين، ط القاهرة 1359هـ - 1940م، 57/1.

بقي علينا أن نسأل: لِم قرب أصحاب الخيل خيلهم وأثرها بعضهم دون العيال والأهلين؟ لعل السبب هو ما تقدمه الخيل من قليل الخدمات التي يعجز عنها أقرب الأقربين. فعليها كانوا يقاتلون الأعداء ويصدون هجمات المغيرين، فيحمون بذلك ذمار الحي والديار بما فيها من شيوخ ونساء وأطفال، فالحامي في تقديرهم أكرم وأجل من المحمي، وكانوا يخرجون بها إلى الصيد فيرجعون محملين بما يطعمهم ويسد مسغبهم ومسغبة أسرهم أيام عديدة. وإيثارهم لها على عيالهم لا ينفي حبهم لها، ولكن للحب درجات متفاوتة، ولكل مبرراته ومسوغاته وبين ما يقدمه الحصان، وكفة الحصان راجحة بلا شك. فهذا أما أملته عليهم ظروف الحياة، فلا محيد عن هذه الظروف – تأمل المبرر المنطقي الذي قدمه عبيد بن الأبرص لتقديمه الخيل على ما عداها[1]:

ولنا دار ورثنا عزها الأقدام	والقُدموس عـن عم وخـال[2]
منزل ومنة آباؤنـــا أي	موروثنا المجدف أولى الليالي
ما لنا فيها حصون غيرهـا	المقربات الجرد ترى بالرحال

ويقدم لنا الحافظ الخيل في حيوانه على سائر أصناف الحيوانات الأخرى، ويعلل لذلك التقديم تعليلاً مقنعاً فيقول: (ولكن لما كان الفرس عليه تقاتل الأنبياء وأتباع الأنبياء، ملوك الكفار وأتباع ملوك الكفار حتى يقمع الله الباطل ويظهر الحق، فلذلك قد مناه على جميع البهائم والسباع، وإنما نقدمه على الوجه الذي قدمه به الله سبحانه وتعالى).

ومتعة ركوب الخيل والصيد من المتع التي استمرت إلى ما بعد العصر الجاهلي وإلى يومنا هذا. فهناك هواة للصيد وركوب الخيل، كما أنشأوا لها وحدة إدارية تسمى بحرس الصيد.

---

[1]) ديوان عبيد بن الأبرص، ص 122.

[2]) وعزٌّ قدموس وقدماسٌ: قديم يقال: حسب قُدْمُوس أي قديم. والقُدْموسُ – المتقدم. وقُدْموسُ العسكر: مقدمته، لسان العرب، 276/7.

المبحث الرابع
الثأر
تعريفه
لغة

جاء في لسان العرب: الثأر: الطلب بالدم، وقيل الدم نفسه، والجمع آثار. وقيل الثأر قاتل حميمه والاسم الثؤرة. أدرك فلان ثورته إذا أدرك من يطلب ثأره، ويقال ثأرت القتيل ثأراً وثورة، آثار ثائرة أي قتلة قاتلة كما قال الشاعر[1]:

شفيتُ به نفسي وأدركت ثورتي   بين مالك هل كنت في ثورتي نكسا

والثائر: هو الذي لا يبقى على شيء حتى يدرك ثأره. وأثار الرجل وأثأر: أي أدرك ثأره. وثار به وثأره: أي طلب دمه، ويقال ثأرتك بكذا أي أدركت به ثأري منك. ويقال ثأرت فلان، وأثأرت به: أي طلبت قاتله. والثائر: أي الطالب، والثائر: المطلوب ويجمع على الآثار[2]. وقال الشاعر:

قتلت به ثأري وأدركت ثوري[3]

وأمرؤ القيس عندما أتاه خبر والده كان في مجلس شرب فقال قولته المشهورة ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً، لا شرب ولا خمر بعد اليوم، أي حتى يأخذ بثأره.

ويقال الثأر المنيم: هو الذي إذا أصاب الطالب رضي به ونام بعده استثار فلان فهو مستثير إذا إستغاث ليثأر للقتيل بمقتوله[4]. وكانت النساء يلهبن النفوس الحمية للأخذ بالثأر للقتيل، فقالت الخمساء في ثأر أخوها صخر تحرض قومها[5]:

لا نوم حتى تعود الخيل عابسة   بثيران طرحاً بمهراة وأنهـ ـار
أو تحفروا حفرة والموت مكتنع   عند البيوت حصينا وابن سيـ ـار
وتغسل عنكم عاراً تجللكـ ـم   غسل العوارك حيضاً بعد إطهار

---

1) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ابن العباس ثعلب، تحقيق فخر الدين قباوة ، ط 1969.
2) لسان العرب ، ابن منظور، مادة (ثأر)، 465/1.
3) المصدر نفسه والمادة ذاتها، ص 466.
4) المصدر نفسه، 99/4.
5) ديوان الخنساء، ش : أحمد بن العباس ، أحمد بن يحيى الشيباني، بيروت ص 12.

وكان الثأر واجباً على أقرب الناس إلى القتيل، وكانت عشيرة الجاني لا تخذ له أو تسلمه إلى الموثور، بل تحميه وتوازره، فإذا ما قتل جدت عشيرته في حمايته فرداً أو جماعة[1].

الثأر اصطلاحاً

والثأر في معناه الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي السابق ذكره.

كانت القبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاثة طبقات كما ذكرت سالفاً: الأبناء، العبيد، والموالي، والموالي منهم الخلعاء والصعاليك، أما المظهر العام للقبيلة فإن أفرادها متضامنين أشد ما يكون التضامن، وأوثقه، وهو تضامن أحكم عراه حرصهم على الشرف، وقد تكون حوله مجموعة من الأخلاق الكريمة. وأكثر حروبات العرب بسبب نزاع بين الأفراد من قبيلتين مختلفتين، يقول ابن العربي[2]:

إذا ما طلبنا إبلنا عند معشـــر   أبينا حلاب الدر أو نشرب الدما[3]

فالثأر لا يشفيه منهم إلا الدم، وكأنما أصبح سفكه غريزة من غرائزهم ملازمة لهم، فهم يطلبونه، وهم يتعطشون إليه تعطشاً شديداً، وحينئذ يشتبك هؤلاء الأفراد وتنضم إلى كل عشيرة عشاير من قبيلتها وتضم أحلافها وتنتشر نيران الحرب بين قبائل كثيرة[4]. فهي تبدأ صغيرة ضعيفة، ثم تقوى وتستحكم بمرور الزمن، فتصبح لها عدوى كعدوى الجرب فجميعهم يطيرون إلى المستغيث بخيلهم ورماحهم، وتدور رحى الحرب فيقتلون أعداءهم ويشفون حقدهم يقول دريد بن الصمة:

فإنا نلحم والسيف غير نكرة   ونلحمه طوراً وليس بذي نكـــر

يغار علينا واترين فيشتفى   بناء إن أصبنا أو نغير على وتر[5]

---

1) العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف مصر، ط3، ص 29/1.
2) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ابن عبد الله أحمد بمن محمد بن الحسن، المرزوقي)، ت. عبد السلام هارون، ص 93.
3) التبل: الثأر، حلاب الدر، كناية عن الإبل التي تحلب وتشرب ألبانها.
4) العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص 63.
5) ديوان دريد بن الصمة، ت ش محمد خير البقاعي، ط1 1981، ص 42.

أنواع الثأر أولاً:

الثأر الشخصي: وهو أن يأخذ الفرد بثأره من أحد أفراد القبيلة أو الأسرة، وقد تجد الرجل ليثأر لقريب له وهو على ثقة أنه إن قتل فيثأر له قريبه فمثلاً تأبط شراً كان يثأر لخاله ويتوقع أن يثأر له ابن أخته إذا ما هلك فقال[1]:

إن بالشعب الذي دون سلع   تقتيلا دمه ما يطـ ـ ـل

خاف العبء على وولـى   أنا بالعبء له مستغـل

ووراء الثأر مني ابن أخت   مصع عقدته ما تحـل

ثانياً: الثأر القبلي: والثأر شريعة مقدسة عند العرب، والعربي لا يهدأ له بال إذا لم يأخذ به، فالثأر القبلي، هو أن ينقسم أفراد القبيلة إلى بعضها البعض، بما يقابل ذلك القبيلة الأخرى التي تعاديها مثلاً الثأر الذي كان بين عبس وزبيان، وكانت الحرب بينهما سجالاً. فسار قيس بن زهير لتجهيز قتال بني عامر، ويأخذ ثأر أبيه. وكذلك الحرب التي قامت بين بكر وتغلب، فسار المهلهل يثأر لأخيه كليب فهذه الحرب طالت ودامت أعواماً بين القبيلتين فمنها يوم النهى، ويوم عنيزة، وغيرها من الأيام[2].

ومثال آخر للثأر القبلي الذي كان بين قبائل مضر وربيعة في أيام القحطانية والعدنانية، الذي أراد فيه سلم بن الحارث أن يثأر لأخوته[3].

وأيضاً من أنواع الثأر القبلي، نجد أن العرب يثأرون من أجل الحيوان كالناقة التي قتلها كليب، فقامت البسوس تبكي وتنوح على ناقتها، فأتى جساس وقتل كليباً سيد القبيلة؛ لأنه قتل هذه الناقة[4]. فقامت الحرب أربعين عاماً، وسميت بحرب البسوس. والمتعة هنا أن مساس أغاث هذه المرأة وفيه إظهار للمروءة والشجاعة بين القبيلتين. ولعل خير كلمة هي كلمة المروءة التي ينطوي تحت لوائها كل معاني الشرف والأخلاق.

---

[1]) شعر تأبط شراً ، تأبط شراً، ت سليمان داؤد ال.... و ط، 1973م، ص 332.

[2]) العقد الفريد، ابن عبد ربه، ص 23.

[3]) تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، 1956م، ص 321.

[4]) العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص 80.

وأهم ما يميز حياة العربي في الجاهلية كما ذكرنا أنها كانت حياة حربية تقوم على سفك الدماء، ولكأنه أصبح سنة من سننهم، فهم دائماً قاتلون مقتولون، يفرقون بين دم إلى دم آخر وبذلك كان أقوى قانون عندهم يخضع له كبيرهم، هو قانون الآخذ بالثأر فهي شريعتهم المقدسة، وهي شريعة تصطبغ عندهم بما تشبه الصبغة الدينية إذ كانوا يحرمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا، لم يكن لأي فرد من أفراد القبيلة حق ولا شبه الحق في نقض هذه الشريعة، ولم يكونوا يقبلونها؛ لأنهم يرونها ذلاً[1].

هذه هي المتعة الرابعة من أنواع المتع في ذلك العصر، والتي يجد فيها البدوي لذة المتع من التشفي بالقتيل وقبيلته ونصرة المظلوم والأخذ له بثأره.

---

[1]) تاريخ العرب في العصر الجاهلي، عبد العزيز سالم، ص 10.

المبحث الخامس

عادات المتعة واللهو

المجتمع الجاهلي كما اتضح له من دراسة الفصل السابق "الحياة الاجتماعية"، إن المجتمع البدوي مجتمع كغيره من المجتمعات، يتمتع بعادات وتقاليد، يجد فيها الجاهلي متعته، وإذا ما قسناها بمقياس الخير والشر في ضوء العقيدة الإسلامية نجد منها ما هو خير، وما هو مثالي أتت به وأقرته الشرائع الدينية والمبادئ الاجتماعية بأنه خيراً.

ومنها ما يعتبر مرض اجتماعي، رغم شيوعه وانتشاره في المجتمع، فإن لم يرض عنه، ووجد المقاومة الشديدة التي تصل لدرجة طرد من يتحدى المجتمع واعتزاله.

فمن عاداتهم الحميدة، أن الفرد يندفع بمحض إرادته إلى خدمة الجماعة ويخدمهم بماله ووقته، وهو في مأمن من الهلاك، بل يغامر بحياته وهذه المبادرة لم تكن نتيجة تكليف مباشر، وإنما هي تلبية لمجرد دعاء عام، وكل فرد يظن أن الدعاء العام، موجة له دون غيره، وهذه الصفة عندهم تعتبر موضع فخر.

وليس هذا فحسب، وإنما نجدة الملهوف، والتفاني في خدمة المجموعة، والخدمة للجماعة سمة من سمات الفخر يتوق لها كل فرد في القبيلة، فأعظمهم مكانة أكثرهم خدمة لقومه. وهذه الصفة تمكنت فيهم، لدرجة أنها مكانة أكثرهم خدمة لقومه. وهذه الصفة تمكنت فيهم، لدرجة أنها أصبحت من الظواهر المتوارثة ومن أهم مقاييس السيادة وزعامة العشيرة، وتوغل حب خدمة الجماعة في نفوسهم، حتى صار إيثار مصلحة الجماعة،وتقديم حقوقها على حقوق الفرد عرفاً عاماً يحاسب سيد القوم في التهاون فيه أو التغافل عنه. وعنترة يباهي بهذه الخصلة، ويطلب من عبلة التأكد من صدقه بسؤال من شهد الحرب:

يخبرك من شهد الوقيعة إنني   أغشى الوغى وأعف عند المغنم[1]

---

[1]) الوغى: الصوت والجبلة، ثم أطلق على الحرب لما فيها من الصوت الجلبة. أعف عند المغنم. إنني لا تشره نفسي إلى الغنيمة، ولكن أهب نصيبي للناس.

ويفتخر ابن كلثوم بأن خيرهم لعشيرتهم وهم يترفعون من أخذ مقابل للعطاء بقوله:

نعـم أنـاسنا ونعف عنهـم ونحمـل عنهـم مـا حملونـا[1]

وفي هذا يقول الألوسي: "وقد خص العرب من الشجاعة في حروبهم والنجدة في مصايدة عدوهم كما قال القائل فيهم:

قوم إذا نزل الغريب بدارهم تركوه رب صواهـل وقيـ ـان

وإذا دعوتهم ليوم كريهـ ـة سدوا شعاع الشمس بالفرسـ ـان[2]

وأيضاً من عاداتهم الحميدة: السخاء، فإن حياة التنقل والسعي الدائم في الفيافي تجعل الإنسان دائماً معرضاً للهلاك، محتاجاً إلى من يعينه بالزاد، ليواصل سيره بحثاً عن ضالته، فإن صعوبة الحياة، جعلت صفة الكرم ضرورة اجتماعية وعرفاً مشاعاً بين الناس، وليس معنى هذا أنهم كلهم كرماء، لكن الكرم كان من الصفات المميزة لهم، حتى يشعر أحدهم بالخجل إذا كانت منازلة يصعب على طارق الليل رؤيتها. فيبادر بنفي تهمة البخل عنه فهذا طرفة ينفي بأقصى أساليب النفي هذه التهمة بقوله:

ولست بحلال التلاع مخافـة ولكن متى يسترفـ ـد القوم أرفد[3]

فهم يقدمون لضيوفهم أعز ما يملكون، وهي النوق التي هي سر حياتهم لا تهون في مكان مثلما تهون، عندما يطل الضيف حتى تنفر الإبل ويصيبها الذعر بمجرد رؤيتها له.

ولما كان الكرم تقليداً معترفا به، وظاهرة اجتماعية لها حرمتها صار المتعدى عليها، والمخالف قوانينها، هدفاً لمحاربة الجماعة له، ومجالاً لألسنتها الحادة، وعرضه للنبش وسهام التجريح. فينبغي عليه أن يكون كريماً لكل طارق وسخياً لقومه بصفة خاصة، وأي تهاون في هذا القانون الاجتماعي الصارم سيقابل

---

[1]) نعم: عشائرنا وسبينا، ونعف عن أموالهم.
[2]) بلوغ الإرب، 104/1.
[3]) التلاع: مجاري الماء من رؤوس الجبال، الرفد: المعونة.

من المجتمع بالعزل وترك الخارق للقانون، ليقاسي ألم ألسنة الهجائين. وفي هذا يقول زهير:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه   يفره ومن لا يتق الشتم يشتم[1]

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضلـ ـ ـه   على قومه ستغنى عنه ويذمم[2]

واختم القول عن صفة الكرم بقول الألوسي: "إذا ألم بهم ضيف حكموه على أنفسهم واستهانوا له ما وجدوه من نفسهم وهذا شعرهم ينطق بما جلبوا عليه، ويعرب عما ألفون وجنحوا إليه"[3].

ومن عاداتهم الطيبة أيضاً، وفقاً للمقاييس التي ذكرتها آنفاً السعي بالخير بين الأحياء المتاخمة، وحفظ دماء الأهل والقارب من الضياع هدراً. وهي من أعظم شمائلهم الكريمة، وأعلى ما وصلت إليه أخلاقهم من النبل والإحساس بالمسؤولية، وقد وجد فيهم من يسعى بماله، ويقوم فلذة كبده ويتحمل عبء غيره، ويقوم بغرامة كل شخص من الحيين المتاخمين حتى ولو كلفه ما يملك، فإن هدفه السلم وحفظ الأرواح.

وإن هذا العمل رغم ضخامته ينظر إليه نظرة الواجب، من يقصر عن القيام به، يكون هدفاً لألسنة الهجائين، ومن يؤدي واجبه يظفر بدرر المادحين ويسير قدماً نحو زعامة القبيلة. إن السخاء بمئات الإبل، وفداء عشرات الأنفس، لكنز أعلى من كنوز الفخر والمكانة والسؤدد.

إن نعمة التوفيق في السعي بالخير بين الناس نعمة لا عدها نعمة، وأنها مكرمة ترفع بيت العشيرة وغاية يصبو إليها الصبيان ويتمسك بها الكهول؛ لأنها المعبر الحصين إلى الاحترام بين القبائل، والوسيلة السليمة لتقديم الفرد أمام العشيرة في مهامها، والتحدث باسمها في مجتمع القبائل، فإن الساعي للخير هو الذي يعتمد عليه في لحظات الشدة. وهذه متعة يتمتع بها البدوي ويجد فيها نفسه بين القبائل ومتعة متاحة لكل أفراد القبيلة. لا تنحصر في فئة معينة.

---

1) يغره: أي يتمه ولا ينقصه.

2) فضلاً: يفعل ذلك رغبة في الفضل. يعني على الندى، أي السخاء.

3) المصدر نفسه، ص 107.

ومن هذا التتبع لظاهرة الكرم والنجدة والسعي بالخير بين المجموعات المتنازعة، أستطيع أن أقول بأن هذه الصفات كانت تتمتع باحترام يعطيها قوة القانون الاجتماعي المسمى عند علماء الاجتماع بالظواهر الاجتماعية، كقول الدكتور حسن شحاتة: "عبارة عن نماذج من العمل والتفكير مجبرين على إتباعها في عملهم وتفكيرهم بل وهي تفرض على إحساسهم"[1] ومن عاداتهم الحميدة، الغيرة على الشرف، وحماية نسائهم وبناتهم من مخالطة الرجال، وعبث السفهاء، فكانوا يقيمون عليهن حراسة مشددة، يترقبون من يتعدى على شرفهم ليقتلوه ثأراً لكرامتهم التي انتهكت، ونسبة لهذه الغيرة، وإصرار المجتمع على حفظ شرفه من اللهو العابث، جعل من يريد اختلاس إحدى المحروسات أن يتكبد مشاق وعرة، أقلها سهر الليالي. ولحفظ الأعراض وصونها يفقد الجاهلي حلمه عندما يمس عرضه. ولشدة الغيرة والمحافظة على شرفهم كانوا يسوقون النساء معهم في الحروب، حتى إذا ما ضعفت النفس في ساعات الضيق يتذكر تعرض المرأة للخطر، والشرف مشرف على السقوط في هاوية لا قرار لها عندئذ، يقذف بنفسه في المخاطر، والمرأة تعلم مدى غيرة الرجل عليها ولهذا تقول له وهي مطمئنة من حياتها كما قال ابن كلثوم[2]:

يقتن جيادنا ويقلن لستـ ـ ـم بعولتنـ ـا إذا لـم تمنعونـ ـا

ولما كان الشرف غالياً، غاية المجد والكرامة كان الوصول إليه قهراً، غاية المذلة للخصم المقلوب وغاية الفخر للغالب.

ومن عاداتهم تعظيم السباق من الخيل والمبارزة في تسجيل كل انتصار يحرزه. وذلك التقدير ناشئ من إعتمادهم عليه في الصيد وتسهيل نيل مقاصدهم[3]. فكانوا يبادرون في تخضيب نحر الحصان السابق يوم الصيد ليكون علامة على كرم أصله وهذا ما جعل أمرؤ القيس أن يفتخر بخضاب نحر فرسه حيث قال:

كأن دماء الهاديات بنحـ ـره عصارة حناء بشيب مرجـ ـل[4]

---

1) أسس علم الاجتماع، حسن شحاتة، ص 9-10.
2) شرح المعلقات السبع، ص 121.
3) بلوغ الأرب، 18/3.
4) الهاديات: المقدم على كل شيء . المرجل: المسرح.

فحصانه لم يسبق إلى مجرد صيد، وإنما يصطاد الهاديات من الصيد.

وهناك عادة تتصل بحياة الصحراء ومجاهلها ومعرفة من عاش فيها لمرارة الضلال وسط الظلمات المتراكمة، يهتدي بها كل تائه. وتكون في مكان عالٍ ليسهل على الطارق رؤيتها على مسافات بعيدة، وهذه الظاهرة تدل على الكرم وعلى التغلب على قساوة الطبيعة من جهة أخرى. وهذه المروءة لم تتوفر في كل الناس، ولهذا وجدناهم يمدحون من التزم بها. وحق لصاحب هذه الصفة الكريمة أن يفتخر فقد كان العربي سخياً يبالغ في كرمه، فهو أحد مظاهر التسيد عندهم، وفي ذلك يقول حاتم الطائي الذي ضرب بجودة المثل:

يقولون لي أهلكت مالك فاقتصد   وما كنت لولا ما تقولون سيـ ـدا[1]

حتى لعبهم للميسر كان منبعثاً عن السخاء والكرم، وكانوا يمدحون من يأخذ القداح ويعيبون من لا ييسر[2] وفي ذلك يقول لبيد بن أبي ربيعة العامري:

وجزور أيسار دعون لحتفهـ ـا   بمغالق متشابه أجسامهـ ـا

أدعو بهن لعاقر أو مطفـ ـل   بذلت لجيران الجميع لحامها[3]

ويتجلى كرمهم في الاحتفاء بالضيف والترحيب به أو في إكرامهم للأرامل والأيتام والسائلين إذا اشتد البرد، وكان من دواعي الهجاء عن شعراء الجاهلية إطفاء النار عندما تستنبح الكلاب، وممن اشتهر بالجود والكرم وضرب به المثل في السخاء حاتم الطائي، وقيس بن سعد.

أما الشجاعة: فقد اتصف العرب بالشجاعة والبأس، وعدم المبالاة بالحدث دفاعاً عن دماء القبيلة. وإن عرب البادية كانوا أكثر شجاعة من حضر المدينة والسبب في ذلك ما ذكره ابن خلدون: (إن أهل الحضر من العرب ألفوا جنودهم على الراحة والدعة، وإذا كان قد وجد من العرب من اتصف بالعفة وتمعن النظر، وكانت العفة من شروط السيادة كالشجاعة والكرم) [4].

ويقول عمرو بن كلثوم [5]:

---

1) ديوان حاتم الطائي ، ت و ش: البستاني، مكتبة دار صادر بيروت، ص 92.
2) تاريخ الأدب العربي، طه حسين، ط الاتحاد 1969م، ص 12.
3) ديوان لبيد بن أبي ربيعة ، ت: الدكتور إحسان عباس ، الكويت، ط1 1962م.
4) المقدمة، ص 57.
5) ديوان عمرو بن كلثوم، ت: عمر الفاروق، دار العلم بيروت، ص 57.

معاذ الإله أن تنوح نساؤنـا   على مالك أو تفجـع مـن القتـل[1]
قراع السيوف بالسيوف أحلنا   بأرض براح ذي الأراك وذي أثل
ثلاثة أثلاث فأثمان خيلنـا   وإخوتنا وما نسوق إلى القتـل[2]

الوفاء: وعرفوا بالوفاء بالعهد وبكرمهم الفياض وكراهة النكث والغدر، وضربوا المثل في الوفاء بالسمؤال الذي أبى أن يسلم الحارث الغساني دروع أمرؤ القيس التي أودعها عنده وفي ذلك يقول السمؤال:

وفيت لذمة الكنـدي أني   إذا ما ذم أقـوام وفيـت[3]

أما الغيرة على الشرف ذكرت فيها تكبد المشاق التي أقلها سهر الليالي[4] فأمرؤ القيس يوضح لنا كيف سهر حيث قال:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت   تعرض أثناء الوشـاح المفصل[5]

وفي ختام هذا المبحث أستطيع أن أقول أن هذه الصفات كانت تتمتع باحترام أعطاها قوة القانون الاجتماعي[6] في مجتمع ما قبل الإسلام وأن العربي كان يجد فيها المتعة واللذة ويشعر بالارتياح النفسي وهو يؤديها حتى أصبحت هذه العادات والتقاليد، أوشمة تتزين بها صدورهم ومتع لا تضاهيها متع.

---

1) معاذ الإله: أي أعوذ بالله، قراع السيوف: اصحاب السيوف،الأراك والأثل. نوع من الشجر.
2) ثلاثة أثلاث: كأنه يقول أموالنا ثلاث أثلاث.
3) الأغاني ، أبي الفرج، 119/9.
4) تاريخ الأدب العربي، طه حسين، ط الاتحاد 1969م، ص 9.
5) الوشاح المفصل: الخرز المفصل الذي فصل بالزبرجد.
6) الشعر والشعراء، ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم بن قتيبة)، دار الثقافة بيروت – لبنان، 1969م، ص 57.

المبحث الأول

المرأة

بعد أن تحدثنا عن الملاهي أنماطاً في الفصل السابق سوف نتحـدث عـن بعض الملاهي في العصر الجاهلي، ونبدأ بأهمها وأكبرها لدى الجاهلي وهي المرأة من خلال الشعر، ثم الخمر والميسر، والفروسية، والكرم. وذلك من خلال بعـض النصوص الشعرية والوقوف عندها وتحليلها.

والشعر كما أسلفنا الذكر هو ديوان العرب والشاعر لسان القبيلـة والنـاطق الرسمي باسمها.

وقد ذكر ابن خلدون (ت 808هـ) وقال: (أعلم أن الشعر كان ديواناً للعرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم. وكان رؤساء العرب منافسين فيه، وكـانوا يقفـون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كل واحد منهم ديباجة علـى فحـول الـشأن وأهـل البصر، حتى انتهوا إلى ذلك في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم والبيت الذي بناه سيدنا إبراهيم –عليه السلام- كما فعل أصحاب المعلقات)[1]. وكان ذلك فخر العرب في الجاهلية.

والشعر هو المرآة التي تعكس لنا صورة المجتمع وما كان عليه، من متـع لذات يعيشها هذا المجتمع الصحراوي المترامي الأطراف، المتعددة القبائل، الكثيـر العادات والتقاليد والأعراف.

المرأة

الشعر الجاهلي عموماً حينما يتناول المرأة، يعكس الجانب الصادق والقـوى لوضعية المرأة في الوسط الاجتماعي باعتبارها منبت الشرف والعز والكرامـة، أو منها ينطلق العار الاجتماعي تجاه الشرف المصون ولذلك نرى أصحاب المعلقـات مثلاً جاء شعرهم كالمرآة الصافية يصور ويعطي الجانب الصادق عن المرأة فهـي مكان الفخر حين تحميها القبيلة لصيانة عزها وكرامتها.

---

[1]) المقدمة ، ابن خلدون، ص 580 – 581.

الدارس لتاريخ العرب يرى أنهم كانوا منقسمين إلى طائفتين تختلف كل واحدة عن الأخرى في كثير من المظاهر والسمات والتقاليد، وهما:

1- **البدو**: فهم أولئك الذين لم تهيئ لهم الطبيعة خصوبة أرض يعيشون عليها... ودفعهم الحرص على الحياة وتنازع البقاء إلى الرحلة. والانتقال وأكسبتهم الطبيعة السخاء والكرم، والصفات الكريمة والآراب القومية، والصراحة الواضحة في أقوالهم وأشعارهم.

2- **الحضر**: وهم سكان المدن والقرى ولهم أبنيتهم وقصورهم ومن أشهر قصورهم: الخورنق، والسدير وغمران[1].

وهذه الطائفة لها صفاتها وسماتها تتجلى في شعرهم وأقوالهم. فالمرأة في الجاهلية لم تكن مهملة بل كان لها قدر عندهم، كما كان لها كثير من الحرية. وقد دعم الإسلام هذه الحرية[2].

تلك كانت عادتهم، ولكن ينبغي أن لا نفهم منها أن المراة كانت مهدرة الحقوق في الجاهلية.

وللمرأة شأن في الأسرة العربية. يبدأ بذكرها الشعراء قصائدهم ويتفنون بجمالها ويكنونها بكنيتها، ويحترمونها ويفخرون بنسبهم إلى أمهاتهم كما يفخرون بالنسبة إلى الأب ويستمعون لمشورة زوجاتهم ونسائهم وحسبك أن الحارث بن عوف أحد أشراف العرب كانت زوجته بنت أوس بن حارثة الطائية هي التي أشارت عليه بان يسعى في الصلح بين عبس وذبيان ففعل فاستحق بذلك حمد الناس، ومدح الشعراء.

وكانوا يستشيرونها في الزواج ويقبلون رأيها[3]. وقد أخذ عتبة بن ربيعة لرأي هند في زواجها وكانت قد اشترطت عليه ذلك وبرأيها في موافقتها، تزوجت أبا سفيان بن حرب[4].

---

[1]) الأدب العربي في الجاهلية والإسلام، ص 21.
[2]) تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي: ص 74.
[3]) الأمالي، القالي، 204/2.
[4]) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

المرأة الزوجة

لم يرد ذكر المرأة كزوجة في الشعر الجاهلي أو بالأخص في شعر المعلقات، ولكن يذكر بعض الرواة أن زهير بن أبي سلمى قد ذكر "أم أوفى" اسم زوجته من شعره، قال:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم   بحومانة الدراج فالمتلثم
ودار بها بالرقمتين كأنها   مراجيع وشم في نواشر معصم

يقول أن آثار منازل المحبوبة "أم أوفى" –هي زوجته- لا تجيبه في هذين الموضعين "حومانة الدراج ، المتلثم" ولها ديار أخرى بالرقمتين شبه هذه الرسوم بوشم في المعصم(1).

المرأة المحبوبة

من سمات الشعر الجاهلي، هو استهلال القصيدة بذكر الأطلال وذكر المحبوبة وبينها للشاعر.

تدور في كتب الأدب أشعار كثيرة تصور هيام بعضهم بهن وكانوا دائماً يفتحون قصائدهم بذكرهن وما كان لهم من ذكريات معهن في بعض المعاهد والمنازل ويمزجون ذلك بالدموع(2).

ونراهم يصفون جسد المرأة ولا يتركون شيئاً فيها دون وصف، إذ يتعرضون لجبينها وعنقها، وخدها، وصدرها وعينها، ومعصمها وساقها وثديها وفمها، وحتى ريقها، كما يتعرضون لزينتها وثيابها وحليتها وطيبها وحيائها، وقد يتعرضون لبعض مغامراتهم معها.

وقف الشعراء طويلاً يصورون حبهم للمرأة وما يزرفون من دموع على فراقها وفراق ديارها ويصورون تعلقهم بالمرأة ضرباً من المتاع الحسي(3).

---

1) شرح المعلقات السبع، ص 77.
2) تاريخ الأدب العربي. العصر الجاهلي، ص 75.
3) المصدر نفسه، ص 212.

أما وصف المحاسن الخلقية والعاطفية وحكايات الحب بين الرجال والنساء، ويأتي ذلك برتب متأخرة فقد وقف الشاعر الجاهلي عند الصورة الخارجية للمـرأة التي تحرك فيه مكامن الجنس، وعواطف الحب وقلما تجاوزها لمعاني أخرى[1].

1/ إدراك العرب للجمال

إدرك العرب الجمال وتذوقوه، أدركوه في الطبيعة، في المرأة، وكان العربي شاعر طبيعة، يتأمل فيها، يبثها آلامه، وينسى عندها أحزانه، تثير الأطلال شجونه، وتمتلك عليه الناقة والبعير والفرس فؤاده، كما تستهويه الصحراء بحيوانها، ورمالها وواحاتها، ونجومها وبرقها ومطرها. فالشاعر الجاهلي خير من يمثل الحياة البدوية؛ لأنه كان بدوياً واعياً.

جمال المرأة الجسدي

لقد أدرك الشاعر الجاهلي جمال الجسد بحواسه كلها عليا ودنيا، فقـد كـان إدراكه البصري غلاب، وهذا طبيعي؛ لأن العين هي الطريق الرئيسي للانفعـالات العاطفية، فالقوام والمشية والحركة، والإشارة، والملابس، والرشاقة، والسمنة كلهـا من مقاييس الجمال والجاذبية، والعين مصدر الحكم عليها.

جمال المرأة البدوية

إن مقاييس الجمال، في هذا المجتمع، تهتم بمفاتن الجـسد، وتأملهـا تـأملاً فاحصاً، يوضح كلفهم به كلفاً شديداً، فيعجبهم الخصر الرقيق، والـسيقان الممتلئـة الريانة، والقد الرشيق، والبشرة الناعمة، والتثني الفاتن والعنق الحريري. فنجـدهم يظهرون رشاقة القوام التي شغفوا بها في مناظر مختلفة فالمرأة تارة تشبه الظبيـة القلقة، التي تقف على أطراف أقدامها، تمدد عنقها في براءة، وتارة أخـرى شـادن يتلهى بالتقاط ثمر الأراك ويتطاول الأغصان دنت ولم تصل، ويظهر جمال الحودة في شفتيه وسحر الكحل في عينيه، وقوة الإبداع في نعومة عنقه كقول طرفة:

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن مظاهر سمطي لؤلـؤ وزبرجد[2]

---

1) المصدر السابق، ص 141.

2) الأحوى: الذي في شفتيه سمرة، المراد: ثمرة الأراك، الشادن الغزال الذي استغنى عن أمه، السمط: الخيط الذي نظمت فيه الجواهر.

3/ جمال الجسد تفصيلاً

الطول: أحب العرب المرأة الطويلة؛ لأن في شادن الطول إبراز المحاسن "كالصدر والخصر والردفين" وفي شأنه أن يتناسب مع طول العنق وطول الشعر وانـشراح الساعدين والساقين، فهو صفة لازمة للإتساق العام.

اللون والوجه: كلفوا باللون الأبيض، ويتضح هذا من وصفهم للوجه؛ لأنه الجـزء البارز الفاتن، وصفوه بالبياض قال أمرؤ القيس[1]:

دخلت على بيضاء جـم عظامها   تعفى بذيل المرط إذ جئت مودقي

وقال[2]:

ومثلك بيضاء العوارض طفلـة   لعوب تنسيني إذا قمت سربـالي
إذا ما استحمت كأن فيض حميمها   على متنتيها كالجمـان لدى الجالي

وقال الأعشى[3]:

والبيض قد عنست وطال جراؤها   ونشـأن في قـن وفي أذواد

وقال النابغة الذبياني[4]:

ليست من السود أعقابا إذا انصرفت   ولا تبيـع بجني النخلة البرمـا

وأيضاً نعتوها بالإشراق والضياء، قال أمرؤ القيس[5]:

تضي الظـلام بالعشـاء كأنهـا   منارة ممسي راهـب متبتـل

وقال أيضاً[6]:

يضي الفـراش وجهها لضجيعهـا   كمصباح زيت في قناديل ذبـال

كذلك مما استحسنوه في لون الوجه الصفرة، قال طرفة[7]:

ووجه كأن الشمس حلّت رداءهـا   عليه نقى اللـون لـم يتحـد

قال كذلك المسيب بن علي[8]:

---

[1]) أمرؤ القيس، ديوانه، ص 119، جم: لنية، مودقي: آثار قدمي.
[2]) المصدر نفسه، ص 140.
[3]) الأعشى، ديوانه، ص 99. عنست: كبرت، جراؤها: شبابها، أذواد: ثلاثة أبحر.
[4]) النابغة، ديوانه، ص 65.
[5]) أمرؤ القيس، ديوانه، ص 131.
[6]) المصدر نفسه، ص 139.
[7]) طرفة، ديوانه، ص 9.
[8]) المسيب، ديوانه، ص 352.

كجمانة البحر جاء بهـــا غواصها من لجة البحـــر
صلب الفؤاد رئيس أربعة متخالفي الألوان والنجـــر
فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا ألقوا إليه مقاليد الأمــــر

ويتضح من قوله كيف أطال وصف الدرة والحصول عليها، وكيف صـور المشاق والجهود التي بذلت في استخراجها من البحر الهائج.

وها هو الأعشى يصفها بالدرة قائلاً[1]:

كأنما درة زهـــراء أخـرجها غواص دارين يخشى دونهـا الغرق
قدرامها حججا منظـر شاربـه حتى تسعسع يرجـــوها وقد خفقـا
لا النفس تؤنسه منها فيزكهـــا وقد رأى الرغب رأي العين فاحترقا
وما ورد من غواه الجن يحرسها ذو نيفـــة مستعـد دونهـا ترقـا

وشبهوها بالبرد قال حسان[2]:

يحملن حواً حور المدافع في الر يـط وبيـض والوجـوه كالبـــرد

العين

هي المدخل الذي يعبر به الشاعر لمحبوبته، وتطل منها عليه، وهـي منبـع الجاذبية التي تأسر المحبوب وشكل العين المناسب لأعضاء المرأة هو المتسع، على أن تكون دعجاء كحلاء، وشبهوا العين بعين المهاة، وعين الغـزال، قـال أمـرؤ القيس[3]:

تصد وتبدي عن أسيل وتتقي بناظـرة من وحش وجر مطفـــل

وقال معن بن أوس[4]:

سبتني بعيني حورة جميلــــة وجيد كجيد الرئم زينـــه النظـــم

الخد

وصفوه بأنه أسيل أي أملس مستوي طويل مسترسل، قال أمرؤ القيس[5]:

تَصد وتُبدي أسيل وتتقي بناظرةٍ من وحشٍ وجرة مطفلِ

---

1) الأعشى، ديوانه، ص 47.
2) حسان ، ديوانه، ص 13.
3) أمرؤ القيس، ديوانه، ص 130.
4) معن، ديوانه، ص 3.
5) أمرؤ القيس، ديوانه، ص 130.

الفم

الفم نقصد به: الشفتان والأسنان والريق:

أكثر الشعراء من الحديث عن الفم؛ لأنه ينبوع المتعة، ولا شك أن في جمال المرأة طيب فمها، وقد أفتتن الشعراء في وصف حلاوة الريق وتشبيهه، فهو خمـر وشهد:

هنيئاً لخطوط من يشام ترقـه إلى برد شهد بهن مشـوب[1]

بما قد تسقي من سلاف وضمه بنان كهداب الدمقس خصيب

وها هو زهير يشبه ريقها بعد نومها بخمر جيد من عانة بالجزيرة:

كأن ريقها بعد الكرى اغتبقت من خمر عانة لما يعد أن عتقا

وشبهها عبيد بن الأبرص بالخمر المختومة بالمسك قائلاً[2]:

وبين ثناياها إذا ما ابتسمـ ـت مديد مرام يمزح بالراح بالشهد

وجعله طرفة ماء بارداً ممزوجاً بالمسك[3]:

وإذا تضحك تبـ ـ ـ ـدي حبباً كرضاب المسك بالماء الخصر

أما الأسنان، فقد راقهم بياضها واستواؤها وانسجامها فـشبهوها بـالأقحوان، قـال طرفة[4]:

بادت تجلو إذا ما ابتسمـ ـت عن شتيت كأقاحي الرمل غر

أما الأعشى[5] فإنه يرى أنها تجلو أسنانها بريشتى حمامة:

تجلو بقادمتي حمامة أيكـ ـة برداً أسف لثاتـ ـه بالأثمـ ـد

العنق والنحر

شبه العرب الجيد الجميل بجيد الظبية، قال علقمة[6]:

وجيد غزال شادن فردت لـه من الحلي سمطي لؤلؤ وزبرجـ ـد

وكذلك قال أمرؤ القيس[7]:

---

1) لسان العرب، ابن منظور، مادة خوط.
2) عبيد بن الأبرص، ديوانه، ص 73.
3) طرفة ، ديوانه، ص 51.
4) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.
5) الأعشى، ديوانه، ص 97.
6) الحوفي، الغزل في الجاهلية، ص 46.
7) أمرؤ القيس ، ديوانه، ص 130.

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش　　إذا هي نصتـه ولا بمعطـل

الصدر

ليس في الحب ما يجتذب خيال الرجل أكثر من صدر المرأة، وقد شبه عمرو بن كلثوم الثدي[1] بحق من عاج، وراعي في تصويره هذا ما بين الصدر الجميـل وحق العاج من استدارة ولون وصلابة وصفاء:

وثدياً مثل حق العاج رخصاً　　حصانا من أكـف اللامسينـا[2]

ومتنى لدنة سمغت وطالـت　　روادفها تنـوء بما ولينـا[3]

فقد جعل عمرو الصدر يطل على الكشح المهضوم بنهد جامح لـم يطـاطي هامته لأي لامس. ويتكي الخصر اللدن على روادف مركومة اللحم مهتـزة يمـوج على بعض لينا، ويشفق على الخصر النحيل منها.

الشعر

ولع الشعراء بجمال الشعر الأسود الطويل المتسق مع القوام الفارع، والغـد الأهيف، والجيد التالع، والوجه المنير الذي تفيض الحيوية منه، وهالة النور من كل جوانبه، وتنبثق الثريا من أكمام وردته إكليلاً من الشعر الأسود المتكاثف المنـسدل، الذي تتناسق خصلاته – التي فاضت على اليدين- على الكتف ومـؤخرة الظهـر، وبقية لجته في قنة الرأس، تغوص فيها الأصابع، بحثاً عن المشط الـذي تـاه فـي ظلمات الليل الذي يركم بعضه بعضاً. كما وصفه أمرؤ القيس[4]:

وفرع يزين المتن أسود فاحم　　أثيت كقنو النخلـة المتعكـل

غدائره مستشزرات إلى العلا　　تضل العقاص في مثنى ومرسـل

يصفه بأنه شعر اسود شديد السواد طويل يغطي الظهر، شـبهه بـالقنو، أي العذق الذي يؤجد في النخلة وهو متداخل بعضه في بعض. وهذا كناية على الشعر الغزير وهو مفضل لديهم. كذلك قال عنترة، أن الليل استمد ظلامه من شعرها[5]:

خطف الظلام كسارق من شعرها　　فكأنّها قرن الدجـى بدياجـي

---

1) المعلقات العشر، ص 98.

2) حق العاج: ما ينحت من خشب أو عاج . حصاناً من أكف اللامسينا. كناية عن العفة.

3) اللدن ، اللين، السموغ: الطول، النوء، النهوض في تثاقل.

4) ديوان ، أمرؤ القيس، ص 130.

5) ديوان عنترة، ص 39.

المعصم والأصابع

وصف الشعراء المعصم بأنه ملان ريان، قال بشر بن حازم[1]:

دار لبيضاء العوارض طفلـــة مهضومة الكشحين ريا المعصـم

ونجدهم نظروا إلى الكف، وفضلوا أن تكون ناعمة لينة الملمس، ووصـفوا الأصابع بالطول والإنسراح واللين، كما قال أمرؤ القيس[2]:

وتعطو برخص غير شنق كأنـه أساريع ظبي أو مساويك أسحـل

الساق

حبذوا الساق أن تكون ريا مدمجة ملتفة بيضاء لدنة، وشبهها قيس بن الخطيم قائلاً:

تخطو على برديتين غذاهـــا غذق بساحة حائـــر يعبـــوب

الوسط "الخصر، الردف، البطن"

قال علقمة[3]:

صفر الوشاح ملء الدرع خرعبة كأنها رشا فــي البيت ملـــذوم

ويراها بشر بن حازم[4]:

نبيلة موضع الحجلين خــــود وفي الكشحين والبطــن إضمـار

جاذبية المرأة

المرأة الجميلة بطبعها جذابة ساحرة، وخير دليل على ما ذهبنا إليـه قـول الشاعر ربيعة بن مقروم[5]:

لو أنها عرضت لأشمط راهب في رأس مشرفة الذرى متبتّــل

جار ساعات القيــام لربـه حتى تخدد لحمـــه مستعمـل

لصبا لبهجتها وحسن حديثـها ولهم من ناموســـه يتنـــزل

---

1) المفضليات، 146/2

2) ديوان أمرؤ القيس، ص 131.

3) ديوان علقمة، ص 13

4) المفضليات، 139/2.

5) الأغاني، أبي الفرج، 92/20.

نظرتها

صور عنترة تأثير النظرات بأن العيون مكحولة بالسحر لا بالكحل[1]:

واستوكنو ماء العيون بأعيـن مكحولة بالسحـر لا بالأثمـ ـ ـ د

أما طرفة فيقول[2]:

إذا نحن قلنا أسمعينا إنبرت لنا على رسلها مطروقة لم تشـ ـ ـدِدِ

ويتأثر عنترة بفروسيته فيصور أثر النظرة في قلبه بوقع النبال[3].

يا من رمت مهجتي من بل مقلتها بأسهم قاتـ ـلات برؤهـا عسـ ـر

ويصوره تارة بقوله[4]:

رمت عبيلة قلبي من لواحظـا بكل سهم غريق النزع في الجـ ـور

فأعجب لها سهاماً غير طائشة من الجفون بلا قـ ـوس ووتـ ـ ـر

حركتها

الشعراء يشيدون بالحركة الهينة التي يميل لها الجسم كأنه غصن بـأن قـال أمرؤ القيس[5]:

إذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها تميل عليه هونـ ـة غير مجبال

كحقف النقا يمشي الوليدان فوقه بما احتسبا من لين مس وتسهال

كما تعجبهم المشية البطيئة، قال الأعشى[6]:

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهوينا كما يمشي الوجى الوحل

كأن مشيتها من بيت جارتهـ ـا مر السحابـ ـة لا ريث ولا عجـ ـل

صوتها

يفضلون الصوت الإغن، الذي يشبه بغام الظباء، قال عنترة[7]:

فيا طالما ما زحت فيها عبيلـة وما زحني فيها الغـ ـزال المقنّـ ـع

أغن مليح الدل أحـ ـور أكحل أزح نقي الخـ ـد أبلـ ـج أدعـ ـ ـج

---

1) عنترة، ديوانه، ص 69.
2) طرفة، ديوانه، ص 69.
3) عنترة، ديوانه، ص 80.
4) المصدر نفسه، ص 85.
5) أمرؤ القيس، ديوانه ، ص 14.
6) الأعشى، الديوان، ص 42.
7) عنترة، الديوان، ص 32.

ويحبون أن يكون الصوت رخيماً، قال طرفة[1]:

فحيوني يوم زهـ ـوا غيرهم   برخيم الصـ ـول ملثـ ـوم عطـ ـر

المرأة الجميلة في نظر الشعراء

يستحب أن تكون خفيفة اللحم، ليست زهلة ولا ضخمة الـبطن مـسترخية، وصدرها كأنه المرأة، وإذا ما عرضت أو نظرن بدأ خدها الأسيل الذي لا كزة فيه، وسحرت بعينها التي تشبه عين غزالة ترام حاذرها وتحنو عليها، وتميل بعنقها ميلاً لطيفاً، وجيدها طويل كجيد الظبي الخالص البياض، ويزين ظهرها شعراً أسود شديد السواد. ففي الأبيات الآتية نجد امرأ القيس يصف جسدها ويصور حبه لها، يـصف محبوبته فيقول:

مهفهفة بيضاء غير مفاضـة   ترائبها مصقولـ ـة كالسجنجـ ـل[2]

كبكر المقاناة والبياض بصفرة   غذاها نمير الماء غيـ ـر المحلـ ـل[3]

تصد وتبدي عن أسيل وتتقـي   بناظرةٍ من وحش وجـ ـرة مطفـ ـل[4]

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش   إذا هي نصتـ ـه ولا بمعطـ ـ ـل

وفرع يزين المتن أسود فاحـ ـم   أثيث كقنو النخـ ـل المتعثكـ ـ ـل[5]

غدائره مستشذرات إلى العـ ـلا   تضل القعاص في مثنـ ـى ومرسـ ـل[6]

وكشح لطيف كالجديل مخصر   وساق كأنبوب السقـ ـ ـى المذلـ ـل

إلى أن يأتي لقوله:

وتعلو برخص غير شثن كأنه   أساريع ظبي أو مساويـ ـك أسحـ ـ ـل

تعني الظلام بالعشاء كأنهـ ـا   منـ ـارة ممسي راهـ ـب متبتـ ـ ـل

إلى مثلها يرنو الحليم صبابة   إذا ما اسبكرت بين درع ومجـ ـول

يصف المحبوبة بأنها بيضاء لطيفة الخصر، ضامرة البطن، وصدرها أبيض خاصة موضع القلائد، كأنها مرآة مصقولة خالية من الصدأ، لونها مخلوط ما بـين

---

[1]) طرفة، الديوان، ص 53.

[2]) المهفهفة : اللطيفة الخصر الضامرة البطن، الفاضة: عظيمة البطن، الرائب بموضع القلادة ، السجنجل: المرآة.

[3]) القاناة: الخلط، نمير الماء : لها طفل.

[4]) وجرة: موضع، مطفل: لها طفل.

[5]) الأثيث: الكثير، النخلة المتعثكل: التي أخرجت قنوانها.

[6]) الغدائر: الخصل ، الاستسذار: الارتفاع، العقاص: الخصل: المجموعة من الشعر.

البياض والصفرة، وهي تشبه الدرة التي سقاها الماء الصافي، خدها أسـيل نـاعم تحرسه عيون الظباء التي تنظر إلى أطفالها ولها عنق كعنـق الغـزال أو الظبـي الأبيض، وتفوقه جمالاً عندما ترفع جيدها المعطل بالحلى، وشعرها فـاحم اللـون وكثيف يزين ظهرها كأنه قنوان نخلة، وله ذوائب مجعدة، ولها كشح كأنه في رقته خطاماً متخذاً من الأدم، وساقها كأنه أنبوب صافي لونه كأنابيب السقى.

وتعطي ببنان رخص ناعم كأنه مساويك مأخوذة من شجرة الأسحل، ولهـا وجه يضئ نوره ظلام الليل كأنه مصباح راهب منقطع للعبادة، وهذه المحبوبة يجب أن ينظر لها كل عاقل كلفاً بها[1].

حقاً هذه أوصاف لجسد جميل متناسق، فالشاعر هنا يجسد لنا متعـة النظـر ومتعة الجمال ليصور هالة هذا المحبوب وصفاته الحسية، فالشاعر يجد متعـة مـا بعدها حينما يصف لنا هذا السر، ويبرز لنا هذه المفاتن، متغزلاً في هذه المحبوبـة، غائصاً في خضم مكامن الفتنة والجمال.

هذا لبيد بن ربيعة يصف محبوبته، يقول:

زجلا كأن نعاج توضح فوقـها   وظباء وجرة عطفا آراءمهـا

شبه المحبوبة والنساء حولها ببقر الوحش، ولهن عيون تشبه عيون الظبـاء التي تعطف على أولادها[2].

ولا يختلف طرفة العبد عنه في وصفه المحبوبة بالريم، يقول:

في الحي أحوى ينفض المردشـادن   مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجـد
خدول تراعى ربربا بخميلـــة   تناول أطراف البـرير وترتدي
وتبسم عن ألمي كـأن منـوراً   تخال حر الرمـل دعص له ندى

وكما يقول:

ووجه كأن الشمس حلـت رداء   عليه نقى اللـون لم يتخـــدد

يصف المحبوبة كأنها ظبيا أحوى في كحل العينين، وسمرة الشفتين وحـسن الجيد، وتلبس عقدين من لؤلؤ وزبرجد، شبه الشفتين وهي تبتسم كأنهمـا أقحـوان

---

[1]) شرح المعلقات السبع، ص 20 – 22.
[2]) شرح المعلقات السبع، ص 102.

خرج نوره من دعص ندى. ويصف وجهها كأن الشمس كسته ضياءها، هذا الوجه نقي اللون، غير متشنج كامل النضارة[1].

ويبدو أن عمرو بن كلثوم أكثر تكشفاً وصرامة، فيصف صـاحبته بعـد أن تعرت وأمنت عيون الرقباء، وصف شاهد عيان، فيقول:

تريك إذا دخلت على خـلاء — وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعي عيطل أدمـاء بكـر — هجان اللون لم تقرأ جنينا
وثدياً مثل حق العاج رخصا — حصان من أكف اللامسينا
ومتنى لدنة سمقت وطالـت — روادفها تنوء بما وليـنـا
ومأكمة يضيق الباب عنهـا — وكشحاً قد جننت به جنونا

يقول في وصف المحبوبة: إذا أتيتها خالية، وأمنت عيـون الأعـداء تريـك زراعين ممتلئين لحماً كزراعي الناقة طويلة العنق التي لم تلد بيضاء اللون، وثـدياً مثل حق العاج بيضاء واستدارة لم يلمسه أحد، وقامة طويلة، وراداف تجعلها تقـدم على مهل كناية عن عظمة حجمها، وورك يضيق الباب عنها لامتلائها باللحم[2].

وهذا عمرو بن كلثوم أيضاً بعد أن استهل معلقته بذكر الخمر عاد وتعـرض لوصف المحبوبة، موضحاً زينتها قائلاً:

وسارتي بلنط أو رخـام — يرن خشاش حليهما رنينـا

البلنط: هو العاج، والسارية هي الأسطوانة، يقول تريك ساقين كأسـطوانتين مثـل العاج بياضاً وضخامة، وتسمع أصوات الحلي أي خلاخيلهما تصويتاً[3].

وكان الأعشى قد سمع ذاك القول، فقال:

تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت — كما استعان بريح عشرق زجـل

الوسواس: صوت الحلي، العشراق: شجر صغار فيه حب عنـدما تحركهـا الريح تسمع لها خشخشة، إذا انصرفت: إذا انقلبت إلى فراشها. شبه صوت الحلـي على المحبوبة بصوت شجرة العشرق عندما تحركها الرياح[4].

---

1) المصدر نفسه، ص 129.
2) شرح المعلقات السبع، 129.
3) المصدر السابق، ص 130.
4) المصدر نفسه، ص 184.

كذلك قول طرفة بن العبد:

ندامايَ بيضٌ كالنجوم وقينةٌ   تروح علينا بين بردٍ ومجسد

يذكر المغنية التي تغنيه مع أصحابه وندمائه، ويصف صوتها وحسنه. هـذا شاهد على أن المرأة الجاهلية كانت تعمل في الخمارات والقصور[1]. أمـا أبيـات طرفة بن العبد التي يقول فيها[2]:

تخلس الطرف بعيني برغـز   ونجدي رشـأ آدم غـــر
ولها كشحا مهـاة مطفـل   تفتري بالرمل أفنـان الزهر
وعلى المتنيـن منهـا وارد   حسن النبت أثيـث مسبكـر
تحسب الطرف عليها نجـدة   بالقومى للشبـاب المسبكـر
بادن تجلو إذا ما ابتسمـت   عن شتيت كأقاحي الرمل غـر
وإذا تضحك تبدي حببـا   كرضاب المسك بالماء الخصر
بدلته الشمس من منبتـه   برداً أبيض مصقول الأشـر
صادفته حرجـف في تلعـة   فسجا وسط بلاط مسبطـر
وإذا قامت تداعـى قاصـف   مال من أعلى كثيب منقعـر
تطرد القر بحر صـادق   وعليك القبظ أن جاء بقـر
لا تلمني أنها من نسـوة   رقد الصيف مقالين نـذر
كنبات المخر يمأدن كمـا   أنبت الصيف عساليج الخضـر

ففي هذه الأبيات تجد طرفة يصف حبيبته بأنها: تسارق النظر بعينين كعيني المها في سعتها وشدة سوادهما وبياضهما، ولها خد أسيل كخد الغـزال الـصغير، وخصر يشبه في استوائه وطياته خصر المهاة المطفل التي تنفرد بوحيدها وتحنـو عليه وتميل، وهذا أبين لحسنها من أن تكون في قطيع، وهذه المهـاة تنتقـل بـين الأفنان ترعى زهرها، وتجتني من أطرافها الفضة، فهي في مرعى خصب حـسن، تجتزي به عن شرب الماء، وذلك أهضم لكشحها وأتم لحسنها، ويتدلى على ظهـر المحبوبة شعر منسدل طويل ملتف غزيراً وهي رقيقة جداً حتى لتحسب أنها تحتمل

---

1) المصدر السابق، ص 61.
2) طرفة، الديوان، ص 47.

مشقة حين ترتفع عينيها لتنظر ثم وصفها بالبدانة، ووصف أسنانها بأنها رقاق بيض كالأقاحي، ووصف ريقها بالكثرة حتى لا تتغير رائحته، وشبهه في طيبه وبرده بالماء البارد الممذوج برضاب المسك، هبت عليه ريح من الشمال وهو في مسبله فكسن واستقر.

ثم عاد لوصف عجزها فقال إنها تقوم من مكانها فتشبه رملاً ينهال من كثيب، وهي لذلك تدفئ الضجيع شتاء وتبرده صيفاً، وهو غير ملوم في حبها؛ لأنها من نسوة جميلات منعمات مخدومات قليلات الأولاد، لا يرضعن، وذلك أصلح للاستمتاع بهن، يتأوهن كسحائب رقاق، أو كنبات صغير لين اسمه العسلوج، شديد الخضرة والتثني.

وهذا المنخل اليشكري من بني يشكر من قبيلة بكر في حدود شبه الجزيرة الشرقية يقول: إنه تمتع بمحبوبته في يوم ممطر، وهي جميلة كاعب منعمة لبسها الحرير والدمقس، وكانت طور إشارته في مشية فاتنة[1].

ولقد دخلت على الفتاة ... الخدر في اليوم المطير
الكاعب الحسناء ترفل ... في الدمقس وفي الحرير
فدفعتها فتدافعت ... مشي القطاة إلى الغدير

وهذه قصة لامرئ القيس، ذكر فيها قصته مع صواحبه يوم الغدير، وما كان من عقره لهن ناقته وأقتسامهن متاعة، وركوبه على رحل صاحبته فاطمة[2].

وبيضة خدر لا يرام خباؤها ... تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا ... على حراصاً لو تيسرون مقتلي
إذا ما الثريا في السماء تعرضت ... تعرض اثناء الوشاح المفضل
فقالت يمين الله مالك حيلة ... وما إن أرى عنك الغواية تنجلي
خرجت بها أمشي تجر وراءنا ... على أثرينا ذيل مرط مرحل
فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى ... بنا بطن خبت ذي حقاق عقنقل

---
[1]) شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، ص 432.
[2]) شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص 16.

هي قصة من مذاهب الشباب والتوافر على انبعاث اللذات، يتناول فيها زينة المرأة العربية، وما كانت تبلغ إليه بمحبوبته من التنعم، فذكر خـدرها وأحراسـها، وإنه خرج بها من الحي إلى مكان حريز يتهنأ فيه بالانفراد معها، وتعفيتهـا الأثـر أذيال مرطها المرحل.

أيضاً في هذه الأبيات الآتية تجد الأثر الواضح لواقع الشباب، وما فيه مـن أفراح الحياة، وتمجيد لذات العيش والمتع. وهو يقول:

سموت إليها بعد ما نام أهلهـا   سمو حباب الماء حالاً على حـال
فقالت سباك الله إنك فاضحـي   ألست ترى السمار والناس أحوالي[1]
فقلت يمين الله لن أبرح قاعـداً   ولو قطعوا رأسي لديك وأوصـالي
حلفت لها بالله حلفة فاجـــر   لناموا فما إن من حديثٍ ولأصـال[2]
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت   هرصتُ بغصن ذي شماريخ ميـال[3]
فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بعلها   عليه القتـام سئ الظن والبـال[4]
يغط غطيط البكر شد خناقُـه   ليقتلني والمـــرء ليس بقتّـال
أيقتلني والمشرفي مضاجعـي   ومسنونةٌ زرقٌ كأنياب أغـــوال
وليس بذي رمح فيطعنني بـه   وليس بذي سيف وليس بنبـــال
وقد علمت سلمى وإن كان بعلُها   بأن الفتى يهذي وليس بفَعـــال

هذا هو الجمال الحسي الذي حظي بالكثير من الشعراء، فهم يصفون الجـسد وصفاً حسيا شاملا، يذكرون القصص الشبابية مع محبوباتهم، فيجـدون فـي ذلـك المتعة واللذة، وقد كان لامرئ القيس الحظ الأوفر في ذلك؛ لأنـه أول مـن وقـف واستوقف وأول من قيد الأوابد، وكذلك أول من شبه المرأة بالبيضة.

4/الجمال الروحي

حقاً كان الاهتمام منصرفا إلى المحاسن الجسدية، وهو الطابع العام الـشائع في الشعر العربي عموما والشعر الجاهلي على وجه الخصوص، إلا أنهم لم ينـسوا

---

[1]) السمار: جمع سامر وهو الجليس المناوم، وهو أيضاً متحدث القوم بالليل. الأحوال : جمع حول، ويقال أحوال القوم فلانا أي صاروا حوله.
[2]) الصال: المصطلي بالنار .
[3]) أسمحت : لانت، هصرت : عطفت، القتام: الغبارز
[4]) الغطيط: صوت يتردد في الصدر.

الجوانب الخلقية والنفسية، فقد ذكروا المرأة بالحياء والعفة والتمنع، وإن لم يطيلـوا في ذلك، كما وردت هذه الصفات ضمن الأوصاف الجسدية، ومن ذلك أن الأعشى يصف صاحبته هريرة ذاكراً وجهها وفمها وحلاها مرطب نشرها ويشبه ذلك بطيب الزنبق، ويقارن بين رائحتها الطيبة ورائحة الروض الذي جاد به الغيـث، ويـذكر ضمن كل ذلك أخلاقها فيقول[1]:

ليست كمن يكره الجيران طلعتها ... ولا تراها لسر الجار تختتـلُ[2]

يكاد يصرعها لـولا تشددهـا ... إذ تقوم إلى جارتها لكسـلُ

فهي حبيبة إلى الجيران، كما هي حبيبة لنفسه، كما أنها لا تطلع على أسرار الجيران، وتكتم السر، ولا تلوك سيرة جيرانها.

والأعشى وإن لم يقف عند المحاسن الجسدية، بل فصل في نـشرها اللذيـذ، فإنه لم يقف أيضاً عند محاسنها الخلقية وحياءها وقفة متأنية، وأحسن من وقف عند صفات حبيبته ووصف عنقها وأخلاقها وحياءها، الشنفرى في قصيدته التي مطلعها:

ألا أم عمرو أجمعتْ فاستقلـت ... وما ودعت جيرانها إذا تولـت

يقول في أخلاقها[3]:

لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعهـا ... إذا مشت ولا بـذات تلفـت[4]

تبيت بعيد النوم تهـدي غبوقها ... لجاراتهـا إذا الهـدية قلـت

تحل بمناجاة عن اللـوم بيتهـا ... إذا ما البيـوت بالمذمـة حلـت[5]

كأن لها في الأرض نسياً تقصه ... على أمهـا وإن تكلمـك تَبلَّتِ[6]

أميمة لا تخزى ثناها حليلهـا ... إذا ذُكروا النسوان عفت وجلـت[7]

إذا هو أمسى آب قُرة عينـه ... مآب السعيد لم يسلْ أين ظلـت[8]

---

[1] شرح المعلقات السبع، ص 183.

[2] تختتل وتختل: بمعنى واحد. والمراد أنها لا تمشي على مهل لتخدع جارها وتسمع سره. وتختتل: تتسمع لسر القوم.

[3] المفضلياتن ص 108 – 109.

[4] القناع: ما يغطي به الرأس والوجه.

[5] المناجاة: المفعلة من النجوة.

[6] التنسي: الشيء المنسي. تقصه : تتبع أثره.

[7] الثناء: إخبارك عن الشيء بالحسن أو القبيح. فأمّا: فهو إخبار عن الشيء الحسن.

[8] آب: رجع.

هذه المحبوبة نوت الرحيل، وأجمعت كذا، أي عزمت عليه. وفي القرآن الكريم: (فأجمعوا أمركم وشركاءكم)[1] و(فاجمعوا كيدكم)[2]. وقال الخليل: إذا جمعت الإبل ثم سيقت، استقلت وسارت.

بعد ذلك يعرج على أخلاقها، فيقول: لا قناعها سقوط ولا هي ذات تلفت في المشي، فقد وصفها الأصمعي بأنها ذات حياء وليست مريبة؛ لأن المريبة تتلفت وتسقط القناع. فهي كذلك تؤثر بزادها على جاراتها لكرمها الفياض. وخاصة عند الجدب وبرد الشتاء وصعوبته حيث تذهب الإبل وينفذ الزاد، فيبان الكريم. وبذلك لا تذم أبداً لا يثارها الناس على نفسها، فالذم لا يلحق بها. ويقول كأنها من شدة حيائها، إذا مشت كأنها تطلب شيئاً ضاع منها، لا ترفع رأسها ولا تتلفت. وكذلك تنقطع في كلامها لا تطيله قليلة الكلام ترمي إلى الذي تريده. ويقول إذا ذكرت أفعالها لم تسوء حليلها، لحسن مذهبها وعفتها. فإن زوجها حسن الظن بها لا يسأل أين طلت؛ لأنها لا تبرح بيتها.

فهي حبيبة خجول ذات جمال وأدب، كريمة إذا تهدى لجيرانها وتبرهم، وتحفظ مودتهم، وهي شريفة عفيفة اللسان، طيبة السمعة، إذا ذكرها الناس حمدوها، وهي زوجة صالحة تسر زوجها، وتحسن معاشرته، ولذلك فزوجها يعود إليها مشتاقاً يلقاها قرير العين لم تبرح بيتها في غيابه، وإلى ذلك جميلة تكاد تجن من حسنها لو جن أحد من الحسن قبلها.

قال الأصمعي: هذه الأبيات أحسن ما قيل في خفر امرأة وعفتها[3].

فالغزل إذن ما هو إلا تصوير لمحاسن المرأة الجسدية والمعنوية وتلتقي نظرة الشعراء إلى الجمال الجسدي عند معنى واحد هو: التناسب والتناسق والانسجام، وقد استحسنوا في المرأة الوضاحة والصباحة والهيف والرشاقة والخفر، وأحبوا أن تكون الرشيقة الهيفاء ضامرة الخصر ممتلئة الردفين بارزة النهدين[4].

---

1) سورة يونس، آية 71.
2) سورة طه، آية 64.
3) شرح اختيارات المفضل، الخطيب التبريزي، ت: فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية: بيروت، 1987، 157/1.
4) الغزل في الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، ص 33.

وقد يحول بين الشاعر ومحبوبته؛ لأنه صرح بحبها وتغزل بها، كما حـرم عنترة زواج عبلة، على أن بعض العرب كانوا لا يحولون بين شاعر تغزل وبـين حبيبته التي خطبها، يدلنا على ذلك أن دريد بن الصمة رأى تماضر بنت عمـرو –الخنساء- تهنأ ذواداً لهاجري، فأحبها وقال[1]:

حيوا تماضر واربعوا صحبي وقفوا فإن وقوفكم حسبي
ما أن رأيت ولا سمعت بـه كاليوم طالي أينق جـرب
متبذلاً تبـ ـدو محاسنـ ـه يضع الهناء مواضع النقب
أخناس قد هام الفؤاد بكـم واعتـ ـاده داء من الحب

وخطبها إلى أبيها فرفضته؛ لأنه شيخ كبير، ولم ترفضه لأنه تغـزل فيهـا. وتغزل زهير في زوجته أم أوفى، وتغزل أمرؤ القـيس فـي زوجتـه أم جنـدب. فقال[2]:

خليلي مرا بي على أم جندب لنقضي حاجات الفؤاد المعـذب
فإنكما إن تنظراني ساعـ ـة من الدهر تسعفني لدى أم جندب
ألم ترياني كلما جئت طارقـاً وجدت بها طيبا وإن لم تطيـب
عقيلة أتراب لهـا ولا دميمة ولا ذات خلق إن تأملت جانـب

حب المرأة للشباب والمال

بعد أن تناولنا خُلق وأخلاق النساء، ندلف لنرى رأي الشعراء في حب النساء للشباب والمال، وصدودهن عن الصديق إذا قلّ ماله وحين يدب فيه الهرم والشيب. في قول علقمة في إحدى قوافيه الفاخرة حين يقول[3]:

فإن تسألوني بالنساء فإننـ ـي خبير بأدواء النساء لطبيب
إذا شاب رأس المرء أوقل ماله فليس له في ودهن نصيب

وقول امرئ القيس[4]:

أراهن لا يحببن من قلّ مالُه ولا من رأين الشيب فيه وقوسا

---

[1]) الأغاني، 11/9.
[2]) المرجع نفسه، 330/3.
[3]) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، محمد هاشم عطية، ص 307.
[4]) المرجع السابق، ص 308.

الفخر لنيل رضى المحبوبة والافتخار بنسائهم

هذا هو عنترة بن شداد مخاطباً محبوبته، بأن تثني عليه بما علمت من محامدة ومناقبة، موضحاً لها إنه سهل المخالقة إذا لم يهضم حقه حيث يقول[1]:

أثني علي بما علمت فإنني ... سمح مخالقتي إذا لم أظلم

وإذا ظلمتُ فإن ظُلمي باسلٌ ... مر مذاقُه كطعم العلقم

يعدد عنترة محامده ومناقبه مفتخراً بها أمام محبوبته لنيل رضاها وحبها قائلاً إذا ظلمت وجد ظلمي كريهاً مر كطعم العلقم أي الحنظل.

الشاهد: أن كل هذا الفخر مغزاه إرضاء هذه المحبوبة، ولم يتوقف عند هذا الحد بل يتعداه إلى ذكر خصاله وشمائله عند الحروب والقتال قائلاً[2]:

هلا سألت الخيل عني يا ابنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلم

إلى قوله:

يخبرك من يشهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

يقول إذا سألت الفرسان عن حالي في الحرب، يخبروك بأني كريم عالي الهمة، وأعفّ عند اغتنام الأموال[3]:

هذا فخر بنساء القبيلة، وخير من يمثله عمرو بن كلثوم، يفتخر بنساء قبيلته قائلاً[4]:

على آثارنا بيض حسان ... نحذر أن نقسم أو تهونا

أخذن على بعولتهن عهداً ... إذا لاقوا كتائب معلمينا

يقول على أثارنا في الحروب نساء بيض حسان، نحاذر عليهن من الأعداء أن يسبوهن ويقسموهن.

كانت العرب تشهد نساءها الحروب ليقاتل الرجل عن حرمها مخافة العار بسبي الحرم.

---

[1]) شرح المعلقات السبع، ص 157.
[2]) المصدر نفسه، ص 132.
[3]) شرح المعلقات السبع، ص 159.
[4]) المصدر نفسه، ص 120.

ويقول: قد عاهدت أزواجهن إذا لاقوا كتائب من الأعداء أن يثبتوا في حومة القتـال ولا يفروا.

كما يقول:

إذا ما رحن يمشين الهوينا كما اضطربت متون الشاربينا

يقتن جيادنا ويقلن لستـم بعولتنا إذا لم تمنعونـــــــا

ظعائن من بن جشم بن بكر خلطن بميسم حسبا ودينـــا

يصف هؤلاء النساء إذا مشين يمشين مشياً رقيقاً، لثقـل أردافهـن وكثـرة لحومهن، ثم شبهن في تبخترهن بالسكارى في مشيتهم. هؤلاء النساء يعلفن خيلنـا ويقلنا لستم أزواجنا إذا لم تمنعونا من سبي الأعداء إيانا.

ويفتخر بأصل هؤلاء النساء أنهن من قبيلة بني بكر جمعن إلى الجمال الكرم والدين[1].

الشاهد: أن الشاعر عمرو بن كلثوم شديد الفخر بقبيلته وخاصة نساءها وقد وصفهن بعبارة "بيض حسان" إنهن من جذور عربية أصيلة، واصطحابهن للحـروب دليـل على خوفهم عليهن، ويواصل فخره بهن أنهن يمشين في تبختر وهذا دليـل علـى عزها وكرامتها.

وهذا لبيد بن ربيعة يقول:

وهم ربيع للمجاور فيهم والمرملات إذا تطاول عامها

يقول: هم لمن جاورهم كالربيع، والنساء اللوائي نفـدت أزوادهـن بمنزلـة الربيع لسوء حالها[2].

وهذا طرفة بن العبد، يوصي ابنة أخيه معبد بان تثني عليه بعد موته، وهـذا يؤكد أنها عزيزة عليه وهو فخور بها بين نساء القبيلة، يقول[3]:

فإن مت فأنعيني بما أنا أهلـه وشقي على الجيب يابنة معبـد

ولا تجعليني كامرئ ليس همه كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي

---

1) المصدر السابق، ص 142.
2) شرح المعلقات السبع، ص 124.
3) المصدر نفسه، ص 73.

بطئ عن الحلّى سريع إلى الخنا ذلولٍ بإجماع الرجال ملهـــد

يقول: إذا هلكت فأشيعي خبر هلاكي بثنائي الذي استحق وشقي جيبك علـي ولا تجعليني كرجل يبطئ عن الأمور العظيمة ويسرع إلى الفحس.

الشاهد: أن الشاعر فخور بابنة أخيه معبد، وقد تخيرها من بين نساء قبيلتـه لـذكر مواقفه والثناء عليه، هذا دليل على أن المرأة هي موضع الفخر والإعتزاز، ليس أن تكون زوجة أو محبوبة، بل يمكن أن تكون بنت، أو أخت، أو ابنة أخ أو بنت العـم أو الخال، أو فرد من القبيلة موضع فخر.

الموت والحب

يرتبط الحديث عن الطلل بذكر النساء عادة فلقد صور لنـا الـشعراء تلـك الغربة العاطفية، واشتكوا من الفراق، الذي هو موت روحي عميق، حيث أنه مـع كل فراق يشعر المرء بفقدان الحياة وتقطع القلب وقد بكى أمرؤ القيس كثيراً وربط في شعره بين الموت والحب فقال[1]:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

وإن تك ساءتك مني خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تنسلـــي

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنّك مهما تأمري القلب يفعـــل

إن هذه المحبوبة قاتلة بدموعها، وبجفائها وبتمنعها، والمعاملة معهـا قاتلـة، وقومها لو أبصروا الشاعر لقتلوه، وهكذا ترى الربط بين الحب والقتل، أما الفـراق والقطع فهو أمر وارد دائماً إلى جانب الحب. مما يجعل الحب مهدداً دوماً بـالموت في كل مراحله.

ونجد هذه الصورة أكثر وضوحاً في شعر عنترة الذي خبرنـا أنـه ذكـر محبوبته وسط المعركة حين كانت السيوف تلمع، حيث يقول:

علقتها عرضا وأقتل قومها زعما لعمرو أبيك ليس بمزعم[2]

فهذه المحبوبة توجد وسط الأعداء وهم قومها، وكذا تجـد الحـب محفوفـا بالمخاطر من جميع الجهات، وهو حين يخاطب محبوبته تنتظر أن حـديثاً لطيفـا،

---

[1]) أمرؤ القيس، الديوان، ص 25.

[2]) عنترة ، الديوان، ص 16.

ولكننا نجده يحدثها عن الحرب، فبين الحرب والحب علاقة وثيقة، الحب يتخلل الحرب والعكس، فالحب هو الحياة، والحياة تحمل الموت بين طياتها، ومن ثم يبرز الموت في الحب.

فها هو الحارث بن حلزة يقول:

آذنتنا ببينها أسماء ... رب ثاوٍ يمل منه الثواء[1]

فهو يحدثنا عن خطر يلوح له مهدداً لأمنه، وهو فراق محبوبته أسماء بعد عهد طويل من الاستمتاع بالقرب منها.

وعموما فإن الشعر الجاهلي قد عكس رأي الجاهليين في المرأة، فهي لا تتصف بالجليل من الخلال، ولا تعرف الوفاء والإبقاء على العهد، وإنما تميل حيث الشباب والمال، وتنفر حيث العجز والفقر، يقول علقمة[2]:

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... عليم بادواء النساء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له في ودهن نصيب

يردن ثراء المال حيث علمنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب

ورغماً عن ذلك كانت المرأة تسيطر على حياتهم وشعرهم وغالباً ما تبدأ قصائدهم بذكر المحبوبة والوقوف على الأطلال وهذا واضح في افتتاحهم القصائد بالمقومات الطللية.

المرأة عند امرئ القيس

شغلت المرأة امرئ القيس، وسلبت لبه وسيطرت على تفكيره كثيراً، وكانت الطبيعة من أسباب سعادته فيأتي غزله بها أو وصفه لجمالها لوحات جميلة، كما هي الطبيعة التي بهرته بألوانها المختلفة، فكان يجانس بين هذين العنصرين "المرأة والطبيعة" بتمازج فني بديع يستعير من صفات أحدهما ليضيفهما على الآخر، حتى كان غزل امرئ القيس محوراً في شعره ونموذجاً يتحدى به باقي الشعراء حتى عصور متأخرة.

---

[1]) أنظر الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع المعلقات ، ص 80-81.

[2]) الهجاء الجاهلي، عباس بيومي، مؤسسة شباب الجامعة 1985، ص 53.

فقد وصف فاها ساعة السحر عند ما تتغير الأفواه بعد النوم. وقد سبق هـذا الوصف الجميل وصف حسي لجمال المرأة في قوله في الأبيات:

وإذ هي تمشي كمشي النزيف يصـدعه بالكثيب البهـر

برهرهة رؤدة رخصـ ـ ـة كخرعوبة البانة المتفطـر

فتور القيام قطيع الكـ ـلام تفتر عن ذي غُروبٍ خصر

فهو يشبه مشية هذه المرأة بمشية النزيف الذي نزف دمه فثقل فـي حركـة ومشيه، وقد يكون قصد بالنزيف السكران فقصر نفسه بسبب هذا الكثيب الذي أفقده الوعي كالنزيف. "برهرهة" أي رقيقة الجلد ملساء رخصة سريعة الـشباب وهـي حرعوبة يقصد البان الغض المتفظر العود، وهي فتور القيام أي بطيئة فـي قيامهـا قليلة في كلامها، وعندما تتبسم تكشف عن ثغر جميل.

ويصفها أيضاً بأنها لينة حسنة الساقين "خدلجة" وذلك في قوله[1]:

همالة رؤد خد لجـ ـ ـة كعميمة البردي في الرحض[2]

ممكورة يجلى الظلام بها ريا العظام كبيضة النقـص

وريقها كالسفرجل والزنجبيل علاهما العسل المصفى :

كأن المـدام يأنيابهـ ـ ـا وصوب الغمام بماء غلـل

وطعم السفرجل والزنجبيل علي ويصافـ ـي العسـل

فأمرؤ القيس في وصفه للمرأة لم يقترب ولم يوحش، وإن كان هـذا حـال الغزل في كل عصوره، إلا أن امرأ القيس كان أكثر قرباً فـي غزلـه فمحبوبتـه ممكورة تجلي الظلام بها لإشراقها، ولينة العظام كبيضة النعام، ومبـسمها وريقهـا كطعم السفرجل والزنجبيل بالعسل المصفى.

وعلى قدر انشغال امرئ القيس بالمرأة إلا أن ما يلفت الانتباه هو أن كلمـة "عشق" وهي تعني أقصى حالات الحب وردت مرة واحدة في ديوانه، وليس هـذا فحسب، وإنما لتعبر عن عشق المرأة له حيث أصبح هو معشوقاً بها:

---

[1]) امرئ القيس، الديوان، ص 32.

[2]) المصدر نفسه، ص 32.

فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها عليه القتام سيئ الظن والبال(1)

مظاهر حضارية في غزل امرئ القيس:

الغزل هو الذي كشف لنا عن بعض مظاهر الحضارة ومن المظاهر المتصلة بالمرأة في عصره، كما كانت المرأة والخمرة في شعر الأعشى كشفتا عن مظـاهر حضارية.

فأمرؤ القيس خلال غزله بالمرأة وصف اصنافا متعددة مـن الثيـاب التـي ترتديها، وأنواع العطور والحلي وأدوات الزينة التي تتزين بها. وخاصة أنها المرأة ذات المكانة والغنى، فهي نؤم الضحى، ترفل في رغد العـيش، ناعمـة، وليـست البدوية التي تسعى وراء المال والكلا وقد وردت تلك السمات في شعره حيث يقول:

من القاصرات الطرف لو دب محول من الذر فوق الإتب منها لأثرا(2)

فالإتب ثوب رقيق له جيب وليس له كمان، فهو هنا يتحدث عن رقة جـسد هذه المرأة ورقة ثوبها.

وذكر "المئزر" وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن، وجاء معه ذكـر الورد والأقاصي فكثيراً ما شبه الشعراء ثغر المرأة بالأقاحي:

عهدها بي ناشئا ذا غِرة فاصل المئزر ذا بطن أقب(3)
وهي إذ ذاك عليها مئزر ولها بيت جوار من لُعـب
ولها ثغر نقي لونـ ـ ـه كالأقاحِي يرى فيه شنـب

والمئزر للرجل والمراة.

وذكر الحنيق وهو ثوب الكتان:

على كالحنيق السحق يدعو به الصدى له صدد ورد التراب دفيـ ـن(4)

أما "المفضل" وهو الثوب الواحد المبتذل يلبسه الرجل والمـرأة فـي البيـت للخادة، فجاء في معلقته:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفضل

---

1) المصدر السابق، والصفحة ذاتها.
2) امرئ القيس ، الديوان، ص 68.
3) المصدر نفسه، الديوان ، ص 294.
4) المصدر نفسه، ص 283.

فجئت وقد نضت لنوم ثيابهـ ـ ـا   لدى الستر إلا لبسة المتفضـ ـل
خرجت بها تمشي تجر وراءنـ ـا   على أثرينا ذيل مرط مرجـ ـل
إذا التفتت نحوي نضوع ريحها   نسيم الصبا جاء بريا القرنفل
مهفهفة بيضاء غير مفاضـ ـ ـة   ترائبها مصقولة كالسجنجـ ـل[1]

وجاء ذكر الورد والسجنجل "وهي المرأة بالرومية فقد شبه نـ ـضارة عنـ ـق المراة وصدرها بالمرأة المصقولة. وصف الشعر في كثافة وجـ ـاء ذكـ ـر المـ ـسك "والتفضل" الثوب في قوله:

غدائره مستشزرات إلى العـ ـلا   تضل المدلارأي في مثنى ومرسل[2]
تضحى فتيت المسك فوق فراشها   نئوم الضحى لم تنطق عن تفضل

كذلك ورد ذكر الطيب في قوله:

وباناً والوياً من الهند ذاكيـ ـاً   ورنداً ولُبنى والكباء المقتـ ـ ـرا

والرند: هو عود الطيب، وكذلك الألوي وهو أجود أنواع الطيب.

فهو قد وصف النساء وهن في الهودج، ووصف ما عليهن من ثياب هي من صنع العراق، فلفت انتباه امرئ القيس النساء وهن في الهودج ساعة الرحيل، فجاء بتفاصيل دقيقة حولهن، وفي قصيدة أخرى يصفهن وهن مـ ـرتجلات وقـ ـد علـ ـون هوادج "عمقة" وهو ضرب من الوشي يرفلن باثواب هي هذه المـ ـرة مـ ـن صـ ـنع أنطاكية:

علون بأنطاكية فوق عمقـ ـة   كجرمة نخلٍ أو كجنـ ـة يثرب

فالمرأة سيطرت على ذهن امرئ القيس وأخذت بجميع حواسه، وقد وصـ ـف أمرؤ القيس كل ضروب الثياب التي ترتديها المرأة في مراحل عمرها المختلفـ ـة[3] فذكر "الدرع" وهو قميص ترتديه المراة الحدثة.

وبيت يفوح المسك في حجراته   يعبد من الآفات غير مـ ـ ـروق
دخلت علي بيضاء جم عظمامها   تُعفى بذيل الدرع إذ جئت مورقي

---

[1]) امرئ القيس، الديوان، ص 15.
[2]) المصدر نفسه، ص 17.
[3]) شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص 10.

ويقول أيضاً:

وقد أذعر الوحش الرتاح بقفرة   وقد اجتلى بيض الخدود الروائقا
نواعم تجلو من متون نقيـــة   عبيراً وربطاً جاساداً وشقائقـا

"الربط" ضرب من الثياب ترتديها النساء "الجاسد" ثوب مـشبع بـالزعفران، فشبه حمرته بشقائق النعمان.

وردت لفظة "الدمقس" وهو الحرير الأبيض، حيث يقول[1]:

فظل العذارى يرتمين بلحمهـا   وشحم كهداب الدمقس المفتـل

حب المغامرة عند امرئ القيس

البدوي مغامر بطبعه؛ لأن فخاخ العدو تحيط به من كل صوب وحدب؛ ولأن الحماسة عنده متوفرة، فليس ثمة من درجات وسط، ولا من علاقات تواطؤ ونفـاق أخلاقي، سواء في حرب الدفاع الواحة والعرض، أو الغزو من أجل الثأر، أو الفوز بالماء والسبيء والمال، أو سواء في العلاقة مع الطبيعة مع الجـدب أو الخـصيب فيها، مع الهاجرة أو سرب الليل وسط الخلاء والصمت، وفي حضن المجهـول أو الخوف.

فمن عدة المغامرة الصبر وقوة العزيمة، وإيمان الفرد بزاته، وأنه لابد يوماً ميت؛ لأن كل ما هو آت آت.

أما حب المغامرة عند امرئ القيس، فهذا هو موضوع آخر عالجـه بـشبابه الفض، وروحه الفتية، وهي تلك المغامرات الصاخبة مع فتيان القبائل، والتي اشتهر بها في أرض الجزيرة العربية. وأمرؤ القيس أميـر مغـامر فـي رداء صـعلوك متحرر، ومن هذه الصفة، يصوغ فن هذه المغامرات شعراً كمـا يمارسـها لهـواً ومتعاً، فصراحته في التعبير كأباحيته في المعاينة، وهو قادر على قول ما يحـسه، وأن يترجم ما يقوله، هذا إلى جانب خبرته بمداعبة النساء، وخبرته بكلامهن وهـو ما نقله من محاوراته معهن شعراً عذباً مرحاً في قوله[2]:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة   فقالت لك الويلات إنك مرجلـي

---

[1]) شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص 10.

[2]) ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، دار المعارف، مصر، ص 9.

تقول وقد مال الغبيط بنا معـاً عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

فقلت لها سيري وأرخي زمامـه ولا تبعديني عن جناك المعلـ ـل

فمثلك حبلى وقد طرقت ومرضعاً فأليهتها عن ذي تمائم مغيـ ـ ـل

والمغامرة عند امرئ القيس مضمونة النتيجة؛ لأنه فتى قـادر، ومغـامر لا يخاف، ثم هو محبوب من النساء، يرضين بمعابثته لهن، وينال منهن ما يريد.

ومغامرة أخرى يقول فيها[1]:

وبيضة خدر لا يـرام خباؤهـا تمتعت من لهو بها غير معجـ ـل

تجاوزت أحراسا وأهوال معشـر على حراص لو يشرون مقتلـ ـي

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشـ ـاح المفضـل

فقالت: يميت الله ما لك حـيلـة وما إن أرى عنك العماية تنجـ ـلي

خرجت بها تمشي تجر وراءنـا على أثرينا ذيل مـ ـرط مرحـ ـل

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحـى بنا بطن حقف ذي ركام عقنقـ ـل

إذا ما إلتفتت نحوي تضوع ريحها نسيم الصبا جاءت بريا القرنفـ ـل

ففي هذه الأبيات التي غامر فيها ودخل على محبوبته في الخدر ذي الهودج، وهو مراكب النساء. وقوله مرجلي أي تاركي أمشي راجلة. أما الغبيط فهـو قتـب الهودج، وخص البعير؛ لأنهم كانوا يحملون النساء في الهوادج على الـذكور مـن الإبل من أجل أنها أقوى وأصبر، وقد يقال للناقة بعير.

وقوله "سيري" أي هوني عليك ولا تبالي، وأراد بالجنى ما يجني منها مـن القبل واللمس وغير ذلك، والمعلل: من العلل وهو الشرب بعد الشرب. أما التمـائم: معاذات تعلق على الصبي. المغيل هو المرضع وأمه حبلى. فـأخبر أن المراضـع والحبالى معجبات به، وخصهن دون الأبكار؛ لأن البكر أشد محبة للرجال وأبعد هذا عن الفرك وهو بغض الرجال. وامرئ القيس هو أول من شـبه المـرأة بالبيـضة لبياضها ورقتها. وغير معجل: لم أفعله مرة ولا مرتين فأعجل عنه؛ ولكنـه فعلتـه مراراً.

[1]) امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، دار المعارف، مصر، ص 11- 15.

ومعنى "يشيرون" يظهرون، أي هم حراس لو يظهرون قتلى مـن غـيظهم علي. وهذه المغامرة قد يكون ثمنها القتل.

أما المفضل: فهو الذي جعل بين كل خرزتين لؤلؤة، وقال أهل المعاني أراد بالثريا الجوزاء. ونصت نزعت. واللبسة هيئة اللباس. والمتفضل: اللابس ثوبا واحداً.

أما قوله مالك حيلة، أي احتيال، أي تجي والناس حاوي! والعماية: الجهالة، وهـو من عمى قلبه. وقوله: "خرجت بها تمشي" أي خرجت من البيوت لأخلو بها. وتجر مرطها ليخفى أثره وأثرها فلا يستدل عليهما. وقوله: "أجزن" أي قطعنا، والحقـف من الرحل هو المعوج، ركام: هو بعضه فـوق بعـض، والعقنقـل: أي المنعقـد المتداخل، وفي قوله "تضوعت الريح" انتشرت وتحركت والريا هي الرائحة.

والجرأة في المغامرة هي النغمة التي يرددها أمرؤ القيس في كل معابثاتـه، جرأة تنبع من تهتك خلقي من كلا الطرفين، منه ومن صاحبته، وقـد تكـون تلـك الصاحب زوجاً لآخر، ولكن ذلك يزيده شغفاً بالمغامرة، ودفعاً نحو الخوض فيهـا، ثم المباهاة بكل ذلك دون ما حرج أو مراعاة لقيم أو لأخلاق.

وقوله كذلك في مغامراته النسائية:

سموت إليها بعد ما نام أهلهـا	سمو حباب الماء حالا على حال
فقالت سباك الله إنك فاضحـي	ألست ترى السمار والناس أحوالي
فقلت: يمين الله أبـرح قاعـداً	ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي
فلما تنازعنا الحديث وأسمحـت	هصرت بغصن ذي شماريخ ميال[1]
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها	عليه القتام سئ الظـن والبـال[2]
يغط غطيط البكر شُد خناقـه	ليقتلني والمـرء ليس بقتـال[3]

ونحن لا نجد في الشعر الجاهلي نظير مغامرات امـرئ القـيس بأباحتهـا وجرأتها وخروجها على القيم التي كان المجتمع يرعاها بقسوة فإن يعتـدي علـى زوجة رجل آخر متسللاً، وأن يتلمس الوسائل والأسباب إليها، ثم يصرح بكل ذلـك

---

[1]) أراد بالغصن جسمها لنعومته وتثنيه، وشبه شعرها بسماريخ النخيل لتداخله وغزارته.
[2]) القتام: الغبار.
[3]) البكر: الفتى من الإبل.

في شعره شيء لم يألفه الشعر بغض النظر عن أن يألفه المجتمع أم لا يألفـه، قـد يقضي شاعر مغامر مع أمه أو جارية أو فتاة من هاتيك اللائي اقترفن هذا النـوع من الحب، ورفعن رأيته، وأن يعرض بقبيلة أسر إحدى فتياتها، ولكن أن يعبث هذا العبث كله، وأن يقدح في هذا الزوج لهو شيء انفرد به أمرؤ القـيس فـي شـعره وربما كان ذلك من بين تلك الأسباب التي دفعت والده إلى طرده، فخرج هائما على وجهه يعاشر الصعاليك.

وقد شغلت المرأة امرأ القيس، فخص شعراً كثيـراً فـي وصـفها متنـاولاً ملامحها الخارجية دون أن يسير غور نفسيتها، أو يتعمق في شخصيتها، وإنما هـو وصف مادى حسي تلعب الغريزة في تصويره محاولة أعطاءهـا صـورة الأنثـى الكاملة، فهي ليست فتاة أحلام، أو رفيقة حب طاهر وعفيف، وإنما امرأة ينظر إليها من واقع معاشرته لها أو على أقل تقديره مغامراته معها[1].

البكاء والوقوف على ديار المحبوبة

عند استهلال القصيدة بذكر الأطلال –أن أول صورة تلقانا في شعرهم هـي بكاء الديار القديمة وذكر المحبوبة- هذا أمرؤ القيس يقول[2]:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل	بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح، فالمقراة لم يعف رسمها	لما نسجتها من جنوب وشمـال
ترى بعر الآرام في عرصاتهـا	وقيعانها كأنه حب فلفـ ـ ـ ـل
كأن غداة البين يوم تحمـ ـ ـوا	لدى سمرات الحي ناقف حنظل
وقوفا بها صحبي على مطيهـم	يقولون لا تهلك أسـى ويحمـل
وإن شقائي عبرة مهراقـ ـ ـة	فهل عند رسم دراسٍ من معول
كدأبك أم الحويرث قبلهـ ـ ـا	وجارتها أم الرباب بمأسـ ـ ـل

هنا يبكي الشاعر ديار المحبوبة ويذكر مواصفها، الدخول فحومل، وتوضـع والمقراة. ويوصف المواضع بما فيها من بعر الظباء، دليل على رحيل القوم عنها، ويواسيه أصحابه بأن لا يهلك من الأسى والحزن على فراق المحبوبة.

---

[1]) الشعر الجاهلي، سيد حنفي، ص 67.

[2]) شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص 5 -8.

ويقول إن شفاءه دمعات مصبوبة على هذه الديار ويتساءل هل في هذه الديار من مبكي يشاطره الأحزان. ويقول : معاناته هذه ووجدة بها كقلة خطه فيها قلبهـا، مثل أم الحويرث وجارتها أم الرباب.

وهذا طرفة بن العبد يصف أطلال المحبوبة قائلاً[1]:

لخولة أطلال ببرقة تهمـــد   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقوفا بها صحبي على مطيهم   يقولون لا تهلك أسى، وتجلـد

كأن خروج المالكية عـدوة   خلايا سيقين بالنواصف مـن در

يصف الشاعر أطلال المحبوبة تلك المرأة الكلبية، ويصف الأرض التي بها حجارة وحصا كأنها بقايا وشم على ظهر الكف، ويذكر صاحباه يوصيانه بالـصبر وعدم الأسى على الفراق، كما وصف مواكب العشيقة كأنها سفن عظيمة. وهذا لبيد بن ربيعة يقف على ديار المحبوبة فيقول:

عفت الديار محلها فمقامهـا   بمنى تأبد غولها فرجامهـــا

فمدافع الريان عرى رسمهـا   خلقا كما ضمن الوحي سلامها

دمن تجرم بعد عهد أنيسهـا   حجج خلون حلالها وحرامهـا

يصف ديار المحبوبة بعد الارتحال عنها. أصبحت غفاراً، وهي كانت بموقع يسمى "مى" وقد توشحت الديار الغولية والرجامية كما توشحت أماكن اندفاع المـاء بجبل "الريان" وذلك لارتحال المحبوبة وقد مضت سنون فيها الأشهر الحرم وأشهر الحل منها[2].

إلا أن عمرو بن كلثوم قد شذ عنهم في ذكر الأطلال لكنه لم يبتعد عن ذكـر المحبوبة، نجده قد استهل معلقته بذكر الخمر قائلاً:

ألا هبي بصحنك فاصبحينـا   ولا تبقي خمور الأندرينـا

ألا استيقظي من نومك أيتها الساقية، واسقيني الصبوح بقدوحك العظـيم ولا تدخري خمر هذه القرى التي هي بالشام[3].

---

1) شرح المعلقات السبع، شرح الزوزني، ص 97.

2) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

3) المصدر نفسه، ص 126.

وهذا عنترة بن شداد يبدأ معلقته مستفهماً:

هل غادر الشعراء من متـردم أم هل عرفت الدار بعد توهـم
يا دار عبلة بالجواء تكلمـي وعمى صباحا دار عبلة وأسلمـي
فوقفت فيها ناقتي وكأنهـا قدن لأقصى حاجـة المتلـوم
وتحل عبلة بالجواء وأهلنـا بالحزن فالصمـان فالمتلثـم
حييت من طـل تقاوم عهده أقوى وأقفـر بعد أم الهيثـم

يقول هل تركت الشعراء موضعاً مسترفعا إى أصلحوه، أي لم يتركوا شـيئا يصاغ فيه شعر إلا وقد صاغوه فيه، ويسترسل في مخاطبة ديار المحبوبة وكيـف أصبحت خلا لا سكان فيها بعد رحيلها.

وهذا يؤكد شدة حبه لها، حتى يصل إلى مخاطبة ناقته "شدينة" ودعا عليهـا بأن يحرم اللبن، والحمل والولادة وذلك ليكسبها الشدة والقوة على مواصلة الـسير للحاق بالمحبوبة يقول:

هل تبلغيني شدينـة لعنت بمجروم الشراب معرم

وهذا الحارث بن حلزة يبكي لفراق المحبوبة ذاكراً ديارها يقول:

آذنتنا ببينهـا أسمـاء رب ثاوٍ وتمل منه الثواء
بعد عهد لنا ببرقة شماء فأدنى ديـارها الخلصاء

يقول أعلمتنا بالفراق هذه المحبوبة، ورب مقيم تمل إقامته ولكن أسماء ليس منهم، يريد أنها مهما طالت إقامتها لا تمل، عزمت على الفراق بعد أن لقيتها ببرقة شماء وخلصاء التي هي أقرب ديارها إلينا ويذكر مواضع عهده بها(1).

وهذا الأعشى يتعرض للقينة هريرة في مطلع معلقته قائلاً:

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجلُ

هريرة قينة لرجل من آل عمر بن مزن ويقال لها أم خليد، يقول:
هل تستطيع فراقها ووداعها أم أنك تفزع لذاك(2).

كما أن النابغة لم يخالف سابقيه وها هو يذكر ديار محبوبته قائلاً:

---
1) المصدر السابق، ص 167.
2) الشعر الجاهلي، سيد الحنفي، ص 418.

يا دار مية بالعلياء والسنـ ـد أقوت وطال عليها سالف الأبد
وقفت فيها أصيلا كي أسائلها عيت جواباً وما بالربع من أحد

وهذا على سبيل المثال والنموذج لا الحصر.

وقد اخترنا هذه النماذج من شعر المعلقات لما فيها من شدة البكاء والحنـين ولجودتها؛ ولأن فيها الشاعر امرئ القيس أول من وقف واستوقف في الشعر.

هذا وقد كان المجتمع الجاهلي ينظر للمرأة نظرة خاصة وشفافة وبحذر شديد فهي محط الفخر والاعتزاز عندما تكون أم الأبطال ويبذل من أجلها كل غالٍ ونفيس عندما نصاب بأذى كأن تسبى أو تأسر.

كما نستشف أن المرأة الجاهلية لم تكن مبتذلة في زيها فهي كانـت ترتـدي الجلباب والخمار والثياب الواسعة ولعله عندما جاء الإسلام اقر هذا اللباس الساتر. ولم تكن مهضومة الحقوق كما تدعي بعض الجهات، وحتى يومنا هذا ألا فهي حرة لها الحق في التصرف في أموالها وإدارتها حسب ما تشاء.

كما نخلص إلى أن المرأة في الجاهلية كانت زينة ومتجملة تستعمل كل أنواع الحلي ومتعطرة تستعمل العطور من المسك وغيره.

ومع ذلك فهي عاملة إن كانت أمة أو جارية وحتى إن كانت سيدة فهي تدير بعض الأعمال في المنزل، وهذا دليل على مشاركتها.

كما كانت تعمل في الغناء في الحوانيت وغيرها من أماكن اللهو، وتعـصر الخمر وتسقي الندامى، وليس في ذلك عيب؛ لأن المجتمع جاهلي وليس هناك ضابط ديني. وقد أخبرنا عن ذلك كله ما سجل لهم من شعر.

لذا نرى شعراء المعلقات مثلا قد تناولوا المرأة في شعرهم مرات ومـرات ولم تخلُ قصيدة من ذكر المحبوبة والوقوف على ديارها وأطلالها. بل زاد بعضهم ذكر مفاتنها ووصفها دون تحفظ، والبعض منهم جعلهـا موضـع فخـر، وكـانوا يذكرونها في معاركهم وحروبهم، وهذا يدل على سمو مكانتها.

ومن خلال هذه الدراسة توصلت للآتي:

1. الشاعر الجاهلي كان يهتم بالمرأة والدليل على ذلـك ذكرهـا فـي مطلـع قصائدهم، والتباكي على ديارها وأطلالها.
2. قليلاً ما ذكرت المرأة كزوجة في شعر المعلقات، وأحسب أن المرأة الـسيدة لم تذكر في الشعر وهذا عيب عندهم.
3. على الرغم من غياب الوازع الديني إلا أن المرأة كانت محتشمة وتـضرب الخمار والقناع وتلبس الجلباب والثوب.
4. كانت لهذه المرأة ثقافة خاصة بها تتمثل في الزينة والحلي ولبس الأساور من العاج والفضة، وتعمل العطور مثل المسك وغيره.
5. المرأة في ذلك العصر عاملة من أعمالها الرعي والحلب والغزل والغنـاء، وصنع الخمر وإن كانت هناك خصوصية للسيدة والأمة والجارية.
6. وأخيراً كان للشعر والشعراء قيمة كبيرة عندهم، وهناك مـن رفـع الـشعر شأنهم وهناك من حطهم وأقعدهم.

هذه الدراسة ذات حدود وهي متعة المرأة في الشعر من خلال هذا المبحث ومن خلال محاور محددة لذا أرى أنها غير كافية لإيفاء هذا الموضوع حقه كاملاً يقـوم بالآتي:

1. إجراء دراسات عن الدور النفسي الذي تمثله المرأة في نفس الرجل الجاهلي مما أهلها لتحتل مكانتها في الشعر، وكذلك عن مدى إخلاص الرجـل لهـا لدرجة البكاء على الأطلال والدمن والديار.
2. إجراء الدراسات المختلفة وربطها بـالواقع الحـالي للمجتمعـات العربيـة والإسلاميةن مع التركيز على العادات والقيم التي أقرها الـدين الإسـلامي والتي كانت سائدة في ذلك الزمان. كالخمار، والقناع، والجلباب، والثـوب، وغيره وأثر هذه القيم على الشعر الجاهلي، واثر السفور كذلك عليه.
3. لم تظهر المرأة كشاعرة من كبار الشعراء إلا في إطار ضـيق جـداً فـي العصر الجاهلي، مما يحتم البحث أكثر في دور المرأة كشاعرة، وهل يـؤثر ذلك على الشعراء ومدى تناولهم للمرأة في شعرهم.

4. عمل دراسة واسعة على ثقافة المرأة الجاهلية خاصة جانب الزينة من حلي، وأساور، والطيب مثل المسك، والزعفران، وغيرهـا ومقارنـة ذلـك مـع الحاضر.

وفي الختام نسأل الله أن يوفقنا لما فيه الخير وأن يجعلنا من الـذين يـصونون عرض هذه المرأة ونستوصي بها خيراً.

المبحث الثاني

الخمر والميسر

1/الخمر

من القيم الاجتماعية التي تفشت في المجتمع الجاهلي الخمر والميسر، وهذان لهما جانب نفسي واجتماعي، فالعربي يعيش في بيئة قاسية تكبله بسلاسل من الجبر والعنف، وهذا يؤثر على وجدانه، ولا يهرب من ذلك الواقع النابض بالقسوة غير الخمر، ففيه يعيش أوقاتاً من السعادة، ويثري وجدانه بالرؤى والأماني، وتمده بما يغني خياله، وهي من جانب آخر مظهر من مظاهر تبديد المال، وبذله في سخاء وأريحية.

العربي حريص على المال، فإذا سمح به لقاء متعة مؤقتة، وجلسة هانئة فقد ارتفع بنفسه عن قيد المال، وأثبت لنفسه بذلك الصنيع مكرمة، ومن هنا كثر في الشعر الافتخار بشرب الخمر، وإهانة المال في سبيلها، يقول ابن قتيبة: "كانوا يشربون الخمر لتزيدهم جرأة وإقداماً"(1).

والعربي بشربه للخمر ينسى بعض همومه، قال الشاعر: (2)

فاشرب على حدثان الدهر مرتفقا   لا يصحب الهم قرع السن بالكأس

فشرب الخمر مظهر من مظاهر الفتوة، وجانب من جوانب شخصية العربي، فالإنسان إذا شرب اهتز للندى، وسرت فيه أريحية الكرم، وترفع عن عوارض المنع، وسمات البخل، فالخمر تغير من طبائع الناس، يقول عمرو بن كلثوم(3):

ترى اللحز الشحيح إذا أمرت   عليـه لمالـه فيهـا مهينـا

فالبخيل الشح متى مرت عليه وذاقها فقد تغيرت طباعه، فسمح بما بخل، يقول عنترة بن شداد(4):

وإذا شربت فإنني مستهلـك   مالـي وعرضي وأفـر لم يكلمِ

فالخمر مرتبطة بالسخاء، والندى الدفّاق.

---

1) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، انظر الهجاء الجاهلي، ص 90.

2) البيان والتبيين، الجاحظ، 164/1.

3) شرح القصائد السبع، ابن الأنباري، ص 373.

4) ديوان عنترة، ت: عبد المنعم شلبي، المكتبة التجارية، القاهرة، ص 149.

الخمر عند الشعراء

كانت الخمر عندهم من أهم متع الحياة، وقل أن تجد شاعراً في الجاهلية لا يذكر الخمر فهي مظهر من مظاهر الفتوة والشباب والقوة.

فالخمر تجري على كل لسان يقول حسان بن ثابت[1]:

ونشربهـا فتتركنـا ملوكـاً　　وأُسداً مـ ـا ينهانا اللقـ ـ ـاء

وكانوا يشربون الخمر، لأنها تشعرهم بالأريحية، وتبعث على الكرم، يقول عمرو بن كلثوم[2]:

ترى اللحز الشحيح إذا مرت　　عليـ ـه لمالـ ـه فيهـا مهينـا

وقد عني العرب بالخمر ومجالسها، فوصفوها مدققين بوصفها، وذكروا أنواعها وكؤوسها وندمائها، وكانت مجالس الخمر تستكمل بالغناء حيث تغني الغيان وترقص في هذه المجالس، وذكروا أن عبد الله بن جدعان كانت له قينتان عرفتا بالجرادتين، كانتا تغنيان في مجالس شربه وقد وهبهما لأمية بن أبي الصلت حيث كان قد مدحه[3] وكان من العرب من يدمن شربها فتعبث بعقله وسلوكه، حتى تضيق به قبيلته فتخلعه متبرئة من جرائمه. فالمدمن تعزله القبيلة، ويقول طرفة في معلقته[4]:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي　　وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلهـا　　وأفردت إفراد البعيـ ـر المعبـ ـد

ولولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتى　　وجدك لم أحفل متى قام عودي

فمنهن سبقُ العاذلات بشربـ ـة　　كميت متى ما تعـ ـل بالماء تُزبد

الخمر مثلها مثل الآفات الأخرى التي كانت تشيع في هذا المجتمع الجاهلي كالقمار، واستباحة النساء وغيرها[5].

ولبيد بن ربيعة يفتخر بهذا النوع ويقول: [6] مخاطباً محبوبته.

---

[1]) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ت. ع وليد عرفات، دار صادر بيروت، 1/1.
[2]) شرح المعلقات، الخطيب التبريزي، ص 322. اللحز: البخيل. أمرت: أديرت.
[3]) الأغاني، أبي الفرج ج8، ص 327 دار الكتب مصر 356هـ - 1976م.
[4]) ديوان طرفة، دار صادر بيروت، ط 1989م، ص 11 – 12.
[5]) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، ص 112.
[6]) ديوان لبيد، تحقيق إحسان عباس، ط 1962م، ص 41 – 48.

أنت لا تعلمين كثرة ليالي الطيبات التي استلذذت فيها لهوي ومنادمتي للكرام، أبيت أخدمهم، وأنت لا تعلمين كم من راية خمار قصدتها حين نصبت، واشتريت الخمر غالية لندماي، من كل زق مقبر، قد فض ختامها فتلألأت وإني لاصطبح بها قبل أن يصحو الدجاج.

بل أنت لا تدرين كـم من ليلة　　　طلق لذيذ لهوهـا وندامهـا

قد بت سامرها غايـة تاجـر　　　وافيت إذ رفعت وعـز مرامهـا

أغلي السباء بكل أدكن عاتـق　　　أو جونة قدحـتْ وفُض ختامها

بادرت حاجتها دجاج بسحـرة　　　لأعلّى منها حين هـب نيامهـا

وهذا طرفة كذلك يجاهر بولعه بالخمر، ويفتخر بأنه سيد يشترك مع قومه في مهامهم، وخمير جلي خمارة وخمار.

فإن تبغني في حلقة القوم تلقني　　　وإن تلتمسني في الحوانيت تصطد

أما المنخل فقد افتخر بأنه يشرب الخمر شرب الملوك ذوي القصور، وهو في حالة النشوة يكون الملك صاحب الخورنق والسدير. وعندما يفيق من السكر فهو البدوي الأصيل، وشربها بماله كثيراً وقليلاً(1):

فـإذا انتشيت فإنـي　　　رب الخورنق والسدير

وإذا صحوت فإنـي　　　رب الشويهـة والبعير

ولقد شربت من المدامة　　　بالقليـل وبالكثيـر

كما أولع بالخمر عنترة العبسي، وافتخر بشرب الخمر بعد اشتداد الحرب في قدح مجلو منقوش، أو اشتراها بدينار وشربها من زجاجة صفراء مخططة، ومعها إبريق، وإنه يستهلك ماله في سكره(2):

ولقد شربت من المدامة بعدمـا　　　ركد الهواجر بالمشوق المعلـم

بزجاجـة صفـراء ذات أسـرة　　　قُرنت بأزهـر في الشمال مفدم

فإذا شربتُ فإنـي مستهلـك　　　مالي وعرضي وافـر لم يكلـم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى　　　وكما علمت شمائلـي وتكرمـي

---

1) الأصمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون. المنخل بن مسعود بن عامر بن ربيعة، ص 52.

2) شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، ص 197.

وافتخر المرقش الأكبر بأنه قديرعلى امتلاك الحسان واحتساء الخمر الروية الجيدة التي يشربها بماله، قال لحبيبته خولة[1]:

يا خول ما يدرك ربت حـرة   خـودٍ كريمة حبهـا ونسائهـا
قد بت مالكها، وشاربها ريـةٍ   قيل الصباح، كريمه بسبـائها

وها هو أمرؤ القيس يعلن أنه ودع الصبا إلا أربع لذات الخمر أولادهن[2]:

وأصبحت ودعت الصبا غير أنني   أراغب خـلاتٍ العيش أربعـا
فمنهن قولي للندامى ترافقـوا   يراجون نشاجاً من الخمر مترعا

أما حاتم فقد بلغ ولعه بالخمر أن أوصى امرأته أن تنضح قبره بالخمر قائلاً[3]:

أماوى إما مـن فاسعـى بنطفـةٍ   من الخمر ريا فانضحن بها قبـري
فلو أن عين الخمر في رأس شارق   من الأسد وردٍ لاعتلجنا على الخمر

وبلغ ولع عروة بالخمرة رهن امرأته "سلمى" وهو يقول[4]:

سقوني الخمر ثـم تكنفوني   عداة الله مـن كـذب وزور
فلا والله لو ملكت امـري   ومن لي بالتدبر في الأمـور
إذا لعصيتهم في حب سلمى   على ما كان من مسك الصدور

وكان فتيان الجاهلية يفتخرون بأنهم يتعاطون الخمر والميسر ويتمتعون بالنساء، وتكاد تكون هذه الأمور الثلاثة من مظاهر الفتوة عند بعض شبابهم وقد جمعها المنخل اليشكري في قصيدته الرائية التي أولها[5]:

إن كنت عاذلتي فسيري   نحو العراق ولا تحوري

وعمرو بن كلثوم زعيم التغلبيين يبدأ معلقته بها ويفتخر بأنواع الخمور التي شربها، ويقول أنها باعثة علي الكرم في مطلع معلقته[6]:

---

[1]) المفضليات، المفضل الضبي، ش عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، طذ، 34/2.
[2]) ديوان امرئ القيس، ص 10.
شعراء النصرانية، ص 122.
[3]) الحياة العربية من العشر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، ص 442.
[4]) الأغاني، أبي الفرج، 27/3.
[5]) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (أبي علي أ؛مد محم بن الحسن)، نشره أحمد أمين وعبد السلام هرون،، دار الجيل بيروت، ط1، 1411هـ - 1991م، 523/2.
[6]) ديوان عمرو بن كلثوم، ش: عمر الفاروق، دار العلم بيروت، ص 92.

ألا هبي بصحنك فاصبحينـا فلا تبقي خمور الأنـدرينا

مشعشعة كأن الحص فيهـ ـا إذا ما الماء خالطها سخينا

تجور بذي اللبانة عن هـواه إذا ما ذاقها حتى يلينـ ـا

ترى اللحز الشحيح إذا أمرت عليه لماله فيـها مهينـ ـا

شغف الجاهليون بالخمر في مجامعهم الفرحة في الأعراس والأعياد، وفي التحالف وقدموها قرى للضيفان، قال الأسود بن يعفر النهشلي(1):

ولقد لهوت – وللشباب لذاذة بسلافة مزجت بماء عوادي

من خمر ذي نطق أغن منطق وفي بها لدارهم الإسجـاد

يسعى بها ذو تومتين مشمـر قنأت أنامله من الفرصـاد

أما زعيم الخمر الأعشى: كان له معصر يستخرج فيه ما يهديه إليه الناس من أعنابهم، وكان يختاف إلى نصارى الحيرة وأساقفة نجران، ويقيم عندهم على الشراب والغناء، ويتلقن بعض عقائدهم، فلم يكن بدعاً أن يجيد صفة الخمر ويتفوق في وصف سقاتها وشرابها. وهو يقول.

وكان الخمر العتيق من الأسفنط ممزوجـ ـة بمـ ـ ـ ـاء زلال(2)

وسبيئـةٍ ممـ ـا تعتـق بابـل كدم الذبيح سلبتُهـا جريالهـ ـا(3)

وكانت الحروب ديدن سكان الجزيرة العربية، فتشربوها لينسوا بها همهم، وشربوها كذلك في السلم لتزيج الفراغ باللهو والمتعة والطرب، فقد شربوها في أوان شتى ذكرها الغالي، منها كما أسلفنا الذكر: الغمر، القدح الصغير، والعقب أكبر منه، والصحن، والرفد القدح العظيم(4).

أما الزمن الذي اعتادوا أن يشربوها فيه، فإن أكثر الأزمنة ذكراً عند الشعراء الذين تعرضوا لذكرها، هو الغداة فأمرؤ القيس يشبه الطير الطروب، من المطر الداجي بشارب الخمر غداة، وهي أول ما يعصر "وقد ألقيت فيه توابله" بقوله:

---

1) المفضليات، 18/2.
2) الأسقنط: أجود الخمر وأعلاها.
3) السبيئة: الخمر، جريا لها: حمرتها. (يقول شربت فظهرت حمرت لونها في وجهي وأعطافي).
4) المكاكي: جمع مكاء، طائر كثير الصفر، الجواء: البطن من الأرض العظيم.

كأن مكاكي الجواء غديـ ـة صبحن سلافاً من رحيق مفلفل[1]

وعمرو بن كلثوم هتف في ساقيته أن تبارده بها صباحاً "ألا هبي بصحنك فاصبحينا"

وعنترة فإنه يشربها، وقد اشتعل الجو ناراً، ولاذ كل حيوان إلى ظل يقيه اللظى، عندئذ يصطفي عنترة بمدامته قائلاً:

ولقد شربت من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلـ ـمِ

ولبيد يصر على الإمعان في التبكير بقوله:

باكرت حاجتها الدجاج بسحره لأعل منها حين هب نيامهـ ـا[2]

يتضح من هذا أن الزمن المفضل عندهم بداية اليوم بها. وأن هذا التقليد وتلك العادة تجعلنا نتصور مدى إقبال هذا الشاعر البدوي على الخمر، ولا سيما إذا علمنا مكانة كل من امرئ القيس وعمرو بن كلثوم.

أما مجالس الخمر والأدوات المستعملة فيه من آلات طرب وكاسات خمر ونساء، هذا المظهر يتمتع به الشاعر البدوي عندما يؤوب إلى القرى الحضرية في أيام السلم، فإنه يكون مظهر من مظاهر الفرح والإنس عامراً بالندماء، تضيق ساحته بالطرب وتدار الراح بكاسات تحملها الغواني وهن ينشدن بأصوات شجية تلحن على نغمات الموسيقى.

ويملأن مجالس شرب الخمر بهجة وسروراً بترفهن ولين جانبهن فهذا مجلس طرفة يعرضه بقوله[3]:

ندامايَ بيض كالنجـ ـوم وقينـ ـةٌ تروح علينا بين بردٍ ومجسـ ـدِ

رحيب قطاب الجيب منها رقيقةٌ بجس الندامى بضـ ـةُ المتجـ ـرد

إذا نحن قلنا اسمعينا أنبرت لنا على رسلها مطروقة لم تشـ ـدد

---

1) القالي، الأمالي 7/20 .

2) باركت حاجتها: معناها حاجتي في الخمر، لاعل منها: من العلل وهو الشرب.
السبع الطوال، ابن الأنباري، ص 110.

3) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص 27 – 30.

ولبيد العامري بشرب خمراً غالية الثمن، عتقت وعبق دبها حتى أسود لونه وعتقت ختامه، وانسابت صافية على نغمات أوتار العود التي تداعبها أنامل القينة حيث يقول[1]:

أغلى السباء بكل أدكن عاتقٍ   أو جونة قُدحتْ وفض ختامهـا

بصبوح صافية وجذب كرينة   بموتـ ـر تأتا لـه إبهامهـ ـا

وعمرو التغلبي يوضح الكيفية التي اعتادوا أن يشربوا بها، وكيف تبدأ القينة وكيف يسير الشراب فوضح المعتاد أن يعطي الأيمن فالأيمن حين قال[2]:

صبنت الكأس عنا أم عمـرو   وكان الكأس مجراها اليمينـا

وعنترة العبسي يشرب بنفسه، وهو يذكرها في مجال الفخر ورفع قيمته في نظر بنت عمه، عندما طلب منها، أن تقيسه بمقاييس الكمال، في المجتمع آنذاك. ومن صفات الكمال، في المجتع آنذاك. ومن صفات الكمال في المجتمع شرب الخمر، وهو يشربها وقت الهجير ليوضح مدى تحمله طاقته الجبارة ودفع ثمنها دراهماً محلوة في قوله[3]:

ولقد شربتُ من المدامة بعد ما   ركد الهواجـر بالمشوف المعلِـمِ

وها هو طرفة يقطع على نفسه وعداً مفتوحاً لكل مبكر يبدأ يومه معه بكأس مترعة خمراً قائلاً[4]:

متى تأتني أصبحك كأساً رويةَ   وإن كنت عنها غانياً فاعن وازدد

وتحمل إلى مجلس الشراب في أواني مثل القدح الضخم الواسع ويسمى الصحن كشراب عمرو بن كلثوم، وتارة يكون في إبريق ساطع اللون كسناء برق مصفاة هو الذي شرب عنترة، عندما دفع لصاحب الخمارة الدنانير المضروبة، فأعطى الإبريق وكأسه الموشاة حيث قال:

بزجاجة صفراء ذات أسـرة   قرنت بأزهر في الشمال مفـ ـدم

---

[1]) الأسباء: شراء الخمر، الأدكن: الزق الأغبر. العانق: الخالصة . ونقل لكل ما خلص: عاتق. الجونة: الخابئة، الكرينة: المغنية. تأتاله: من آلت الأمر.

[2]) المصدر نفسه، ص 323.

[3]) المصدر نفسه، ص 166.

[4]) المصدر نفسه، ص 126.

ومرة تحمل في الزق، وفي الخابية، وكلما اشتد سوادها دليلاً على عتقها، ويشبه هذا النوع بالطين. وعندما يراد شربها يزال ختمها بصعوبة، لتحجر الطين الممزوجة بزبد الخمر. ويتضح من هذا أن أواني الخمر التي يصفها لنا الشعراء منها ما هومحلى، ومنها ما هو مجاوب. وانفرد لبيد بذكر الزق والخابية في قوله:

أغلى السباء بكل أدكن عاتق   أو جونة قدحـت وفض ختامها

يتضح لنا من هذا التجوال مع شعراء العصر الجاهلي في متعة الخمر، حول مجالس خمرهم، وتقاليد شربها، والأواني المستعملة فيها أن صغيرهم مثل طرفة وأميرهم مثل أمرؤ القيس، وزعيمهم مثل عمرو بن كلثوم، ولبيد العامري، وفارسهم مثل عنترة لا يحس بغضاضة في اعترافه لشرب الخمر. بل الأمر يتعدى الاعتراف إلى الفخر بشربها. ومعنى هذا أن شربها عادة مقبولة من قبل المجتمع، لكن مع هذا لهم موقف معاد من إرتياد خمارة لأخرى، ويشتد هذا العداء ويصل لدرجة الطرد والعزل الاجتماعي؛ لأن هذا الفرد المنغمس في ملذاته، سيكون قطعاً بمناي عن المروءة، التي جعلها المجتمع الجاهلي من أعز عاداته التي يبذل في سبيل بقائها الغالي والنفيس.

كما كان من أشرافهم من حرم الخمر على نفسه في الجاهلية، ومن هؤلاء قيس بن عاصم المنقري وهو الذي يقول[1]:

لعمرك أنا للخمر ما دمتُ شارباً   لسالبة مالي ومذهبة عقـ ـ ـلي

كما أن الشعراء لم يذكروا في شعرهم قط من أن نساء هذا المجتمع من كانت تشرب الخمر. إذن هي متعة تخص الرجال كما في الميسر أيضاً[2].

2/الميسر

إن لعب الميسر من العادات التي افتخر المجتمع الجاهلي بممارستها. وكانت لهم نظرة خاصة لمن يعلب الميسر، وهي لا تختلف عن نظرتهم لصفة الكرم، واكتمال المروءة، وكان الزمن المفضل لممارسة هذه اللعبة والتصرف فيما يربحه المغامر، يجعلان الميسر عند مجتمع الجاهلية، صفة تبرر افتخارهم بممارسته.

---

1) شرح المعلقات السبع ، الزوزني، ص 101.
2) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، ص 136.

أما الشعر الجاهلي فقد التزم الصمت حياله، ولم يأت في شعرهم إلا لماما، وكانت العرب تستخرج بالميسر الأموال، تقرى به الفقير والمعسر، فأصحاب الميسر حين يأتي الشتاء، وتضن الأرض يعولون الناس، وقد مدح الأعشى قوم عامر بن طفيل بهذا فقال[1]:

المطعمون الضيف إذا ما شتـوا والجاعلو القوت على الياسـر

والذي يقدم على بذل ماله بهذه الوسيلة جواد ذو ثراء، والفقير ليس لديه ما يدفعه إن غرم، والبخيل لديه ولكنه يضن.

ولنقف مع كل مغامر من الشعراء المغامرين لنتبين المبررات التي ارتكزت عليها افتخار المغامر، والعرب كما تبين لنا مما تقدم تفتخر بكل ما لديه صلة بالمروءة وتنفر كل ناء عنها.

والميسر الذي يلعبه لبيد، تضرب أقدامه في أعز ما يمكن من نوق كثيرة اللحم، وأن نتيجة هذه المغامرة ليست له، وإنما المستفيد منها هم جيرانه، من عشيرته وجيرانه القرباء، والضيف واليتيم ذي المسغبة يتمتعون بها كما يشاؤون والأرامل، تكل لهن الجفان باللحم يفيض من جوانبها الزبد وقتا الشتاء القارض والرياح الباردة حيث يقول:

وجزور ايسار دعوت لحتفها بمغالق متشابه أجسامهـا[2]

أدعو بهن لعاقر أومطفـل بذلت لجيران الجميع لحامها[3]

فقد قال لبيد أنه طالما دعا ندماءه إلى نحر الجذور، حيث يلعبون بأزلام متشابهة، ينحرون الناقة عاقراً؛ لأنها أسمن، أو مطفلاً -لأنها أغلى- وهو يكسب فيطعم الجمع لحمها، حتى الجيران والصيفان يشبعون وينعمون كأنهم في وادي خصب في قوله:

فالضيف والجار الجنيب كأنّما هبطاً تُبالة مخضباً أهضامهـا[4]

---

1) الأعشى، الديوان ، ص 181.
2) الجذور: الناقة تشترى للذبح. الأيسار: جمع يسر وهو الذي يضرب بالقداح. حتفها: يجرها، مغالق: القداح التي يضرب لها.
3) عاقراً: أي لا تلد.
4) المعلقات، ص 113.

وصف عنترة بها البطل الذي نازله في ساحة الوغى –وهو عادة يضيف لقبيلته كل الصفات المحمودة- فجعله ماهراً فيها ولا سيما زمن الشتاء، حيث يقول:

ربذ يداه بالقداح إذا شتـ ـا هتاك غايات التجار ملـ ـ ـ ـوم[1]

ويقول ابن الأنباري مشيراً لهذه الظاهرة: "وهذا كان مدحاً عند العرب في الجاهلية وقوله (إذا شتا) قال يعقوب: إنما يضربون بالقداح في شدة الزمان، وكلب البرد"[2]

وقال الألوسي: "وكان لعبهم بالميسر منبعثاً عن السخاء وكرم الطبع فإن أهل الثروة والأجواد منهم في شدة البرد وكلب الزمان ييسرون أي يتغامرون" ومن هنا يذكرون من أخلاق الرجل الكريم المياسرة، وحين يهجونه يعيرونه بالكف عنه، ويسمونه "البرم" وعليه جاء قول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك:

ولا برما تهدى النسياء لعرسـه إذا القشع من برد الشتاء تقعقعـا[3]

فهو ينفي عن مالك إمساكه للمال وعدم الأخذ في الميسر، وقيده أيضاً تقعقعه برد الشتاء.

وطرفة بن العبد يفتخر بلعب الميسر؛ لأنه لا يأخذ ما يكسبه في لعب الميسر، وإنما يتركه لمن لا يفوز حيث قال:

وأصفر مصبوغ نظرات جواره على النار واستودعته كف مجمد[4]

أما المرقش الأكبر يفخر بأقبال قومه على الميسر، لأنهم يؤثرون نفع الناس وإغاثتهم حين يكفهر وجه الأرض، على كنز الأموال، وحين يمر على الناس في الضيق:

إذا يسروا لم يورث الميسر بينهم فواحش ينعى ذكرها بالمصايف[5]

فقومه عند الميسر غير سفهاء، ولم يغنوا حتى لا يؤثر عليهم ما ينقل حديثاً الناس حين يذهب الغاشية.

---

[1]) الربذ: السريع الضرب بالقداح. غايات التجار: العلامات والرايات.

[2]) شرح السبع الطوال، ابن الأنباري، ص 350.

[3]) بلوغ الإرب، الألوسي، 70/1 – 71.

[4]) الصفر: قدح - المصبوغ: ضد الذي عيرته النار. الجوار: مراجعة الحديث. المجمد: الذي لا يفوز.

[5]) المفضليات، ص 233.

وقد مدح الشاعر قوماً بأنهم أعداء النوق العظيمات السنام؛ لأنهم ينحرونها فترغو صغارها، وهم لا يفرحون إذا فازوا، ولا يبالون بالغرم إن كان في عسرة، أسخياء كلفون بالميسر إذا ما عجز غيرهم عنه قائلاً: (1)

أعداء كوم الذرى ترغو أجنتها   عند المجازرين الحي والجحر
لا يفرحون إذا فاز فائزهـ ـم   ولا تضيق عليهم أزية العسـ ـر
هم الخضارم والأيسار إن ندبوا   إذ لا نجيل قداحا راحنا يسـ ـر

فالعرب في الجاهلية أولعوا بالميسر مباهاة بها ومفاخرة، وعطفا على المحاويج، فقد كان الجاهلي يجد متعة ما بعدها متعة حينما يلهو في الميسر أو يكسب رهاناً أو يقدم مكرمة، أو يعول صاحب حاجة.

وقد أشاروا بقدرتهم على المياسرة قال الشاعر(2):

وإذا تعذرت السواعد والتوت   جال المغدي وسطها المضبوح(3)
أغلى به رحو الإزار معذل   فغدا يغْار له دم مسفـ ـ ـوح(4)

وبهذا صار الميسر عند مجتمع الجاهلية لا يقدم عليه إلا سمح جواد، وهو من مكملات صفة المروءة التي يتطلع كل كريم للوصف بها.

ولعل أوضح خلق اجتماعي من أخلاق العرب – وأكثر فائدة للناس- الخمر والميسر.

ففي هذا نفع الخمر والميسر إذ هما من الوسائل الاجتماعية التي توجد نوعاً من التكافل والتضامن، وتخلق حالة من البذل، وتنأى بالفقير عن مهانة السؤال، فيأخذ الأموال بعرف اجتماعي، والأغنياء يفعلونها بأريحية وتنافس.

ولعل أوضح خلق اجتماعي من أخلاق العرب – وأكثر فائدة للناس- الخمر والميسر في الجاهلية. كما في قوله تعالى:(يَسْئَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَفْعِهِمَا وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) (5)

---

1) بلوغ الأرب، 3/ 59.
2) بلوغ الأرب، 59/3.
3) السواعد: مجاري اللبن في الضرع.
4) المغدي: القدح العالي:.
5) سورة البقرة، آية 219.

المبحث الثالث

الفروسية

لكل ما تقدم فإننا لا نتوقع منه إلا التعاطف مع خيله واللجوء إليها كلما أبلهمت عليه الهموم فهي رفيقه في قسوة الطبيعة، وفي لحظات الخطر، والترويح عن النفس والتأمل في الطبيعة الساكنة والمتحركة. هذه الصحبة أتاحت لهم فهم دقائقها ومعرفة محاسنها والتمييز بين الجيد والأجود منها:

لهذا أمرؤ القيس يتحدث عن فرسه فيستقصى أوصافه ووقت رحلته في قوله:

وقد اغتدى والطير في وكناتها　　بمنجرد قيد الأوابـ ـد هيكـ ـ ـل[1]

مكر مفر مقبل مدبر معـ ـاً　　كجلمود صخر حطه السيل من عل

ففرس امرئ القيس الذي يبكر قبل استيقاظ الطير، فهو ضخم ورشيق، عظيم الجسم قصير الشعر سريع العدو يكر ويفر ويقبل ويدبر كأنه صخرة قذفها السيل من مكان شاهق، وسرعته هذه تتنوع مرة تكون كهذه الصخرة أو كسقوط الحجر الذي حطه السيل حطاً، وتارة تتعذر رؤيته ولا يسمع إلا أزير.

كذلك خصه بصفات تنبي عن مكنون العواطف، فخص فرسه بنعومة الجسم حتى اللبد لا تستقر على متنه، وحياه بأحسن الألوان وأحبها إلى نفوس العرب حيث قال:

كميت يزل اللبد عن حال متنـة　　كما زلت الصفواء بالمتنـ ـ ـزل[2]

ويقول الألوسي في هذا اللون: (الكمتة والجمة وهو أحب الألوان إلى العرب مع الحوة. والكمتة حمرة تداخلها قنوء)[3] لاحظ أن هذا اللون عند العرب، فهو محبوب أولاً ونافع ثانيا، فعنصر الجمال هنا مقصود لذاته، وهو منشأ التعاطف.

ودخلت عليه صفات تتوق الحسناء للتمتع بها وهي دقة الخاصة المتوفرة في أيطلا الظبي، ورشاقة ولد الثعلب وخفة حركته وأناقتها. فإنه جمع كل الصفات التي

---

[1]) اغتدى: من الغدو. وكناتها: أوكارها، منجرد: قصير الشعر. قيد الأوابد: الوحوش. الهيكل: الضخم. أمرؤ القيس، الديوان، ص 19.

[2]) عن حال متنه: أي وسطه. والصفواء: الصخرة الملساء.

[3]) بلوغ الإرب، الألوسي، 94/2 – 95.

تساعده على تلك السرعة فأخذ من الظبي والثعلب خفة الجسم، ومن النعامة قوة الساقين حيث عبر عن ذلك في لطف متكامل هو الغذاء العاطفي المؤثر حيث قال:

له أيطلاء ظبي وساقا نعامة　　　وإرخاء سرحان وتقريب تتقل(1)

في هذا المبحث ثمة حقيقة يجدر ذكرها في هذا المجال، هي أن الحيوان في غاية الأهمية بالنسبة لبناء القصيدة العربية القديمة وتنميقها وربط أطرافها، ولولاه لما استطاع شاعر إكمال لوحاته الشعرية التي هي محور قصيدته.

لقد ارتبطت قلوب البدويين بتلك الحيوانات وأحبوها حبهم لباديتهم، تلك البادية التي كانت أكبر عامل ساعد على خصوبة خيالهم، وتوقد قريحتهم وجعلت شعرهم منبعاً ثراً للعديد من الصور الجميلة واللوحات المنمقة.

وإن أكبر أثر باقٍ يدل على حياة الحيوان في شبه الجزيرة العربية في العهد الجاهلي هي تلك القصائد الجاهلية التي وصف فيها الشعراء الحيوان وهي كثيرة جداً. وكان تركيزهم في هذا الوصف على الإبل والخيل عن مجموعة الحيوانات الأليفة. والخيل هي التي تحملهم للقاء العدو كما تحملهم للقنيص وحلبات الرهان.

لقد عاشوا مع الحيوانات الأليفة في دورهم ومضارب خيامهم، ومع المتوحشة في البيد والتلول والأودية والوهاد، واصطادوا المتوحش منها فرادى وجماعات، واقتربوا منها وشهدوا حركة الحيوان وسكونه، وراقبوا ما يعتريه من تغيير في فصول السنة المختلفة، في لونه وجسمه وحركته، كما لاحظوا ما ينتاب فروته وتضاعيف جسمه من تغيير فرضته طبيعة حياته وأملته الظروف المتغيرة المحيطة به، كذلك انفرد العرب عن سائر الأمم على زمانهم بجانب السلوك الحيواني.

كانت معرفة الشعراء العرب تتعدى المعرفة العامة التي تتأتى للغالبية العظمى من الناس ويستوي فيها الجميع باختلاف درجات ذكائهم، وكانت معرفة واعية لبقة استطاعوا بها رصد كل صغيرة وكبيرة عن حياته فأتحفوا قارئ شعرهم بكل جديد وطريف، وكانوا يصيدون الحيوانات لا ليأكلوا من لحمها فقط كما كان

---

[1]) أيطلاء: الكشح وهو ما بين آخر الضلوع إلى الورك. إرخاء: جري ليس بالشديد. السرحان: الذئب. التقريب: رفع اليدين ووضعهما معاً. التتقل : ولد الثعلب

يفعل الناس بل كانوا يذبحونها ويفحصون أجزائها الداخلية جزءاً جزءاً ويدونون كل ذلك في شعرهم.

1/ الخيل

تأليفها – أصولها – نوعها – وتقسيمه

اختلف المؤرخون في تحديد الفترة التي تؤلف فيها الخيل وذهب بعضهم إلى سرد قصص عديدة تغلب بعضها مسحة خرافية واضحة وتتحكم في البعض الآخر ملكة الخيال الخصب.

وقد جاء في أنساب الخيل لابن الكلبي ما راوه محمد بن الشايب عن أبي صالح بن عباس قوله: أول من ركب الخيل واتخذها اسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وأول من تكلم العربية الحنيفية التي أنزل الله سبحانه وتعالى قراءنه على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم- بها. قال: فلما شب اسماعيل عليه السلام أعطاه الله القعس، فرمى عنها، وكان لا يرمي شيئاً إلا أصابه فلما بلغ أخرج الله من البحر مائة فرس، فأقامت ترعى بملكه ما شاء الله، ثم أصبحت على بابه فرسانها وانتجها وركبها.)[1]

هذا وقد كانت للخيول عدة أنواع، وكان أفضل هذه الأنواع وأكرمها وأعلاها ثمناً العراب، وهذا النوع يطلب للسباق واللحاق، لذا ينافس عليه والملوك والخلفاء وأثرياء القوم، وقد انتشر هذا النوع في أجزاء عديدة في بلاد العرب، في نجد واليمن والعراق والشام ومصر والمغرب وغيرها. واهتم الغربيون بها اهتماماً بالغاً وحافظوا على نسلها وتوالدوها وتوارثوا نوعها جيل عن جيل إلى يومنا هذا. وأغلب الظن أن شهرتها قد وصلت إليهم عن طريق الصلات التجارية وربما رأوا بلاءها في المعارك التي خاضوها ضد المسلمين في الشام وتركية وأراضي الدولة البيزنطية، وربما نقلها معهم العرب إلى الأندلس حيث نشأت دولتهم العربية الإسلامية وانتقلت من الأندلس إلى الأجزاء الأخرى من القارة الأوربية وجميع بلدان العالم.

[1]) انساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، ابن كلبي، ط، دار الكتابة القاهرة، مصر، 1946م، ص 12.

والنوع الثاني يلي العراب أهمية هو البران وهي خيول عجمية أهم صفاتها الصبر على السير وسرعة المشي، وتجاب من بلاد الروم والترك.

النوع الثالث: المولد بين العراب والبران وكانوا يسمعون الناتج هجيناً إذا كان الأب عجمياً والأم عربية وإذا كان العكس سموه معرباً. وهذا النوع اشتهر بالمشي لمسافات طويلة، وسرعته المتوسطة(1).

ومن الملاحظ أن المؤرخين العرب لم يهتموا بتاريخ تأليف الحصان في شبه الجزيرة العربية بقدر اهتمامهم بأكرم وأعرق الخيول العربية وأصولها التي تفرعت منها. وقد وصفوا ذلك الفن في أنساب الخيل العديد من الكتب أشهرها كتاب ابن الكلبي، وكتاب الخيل للأصمعي.

ومما يجدر الإشارة إليه أن ابن الكلبي ذهب إلى حصر أصول أجود أنواع الخيل في جزيرة العرب إلى فحلين هما: زاد الراكب، والعوج(2). ولعل العرب أول من سمي خيولهم وتأثير بهم الأفرنج(3).

ومن هذه الفحول أيضاً الحباس وناعق وهي لبنى فقيم قال فيها دكين في رجاء الفقيمي الراجز مشيراً بذكرها:

وقد اغتدى قبل الصباح الفاتق ... وقبل عصفور الأذان الناطـ ـق

والصبح مثل قطع الخزرانق ... يرسن السابق وابن السابـ ـ ـق

بينا لخياسيات والأواف ـ ـ ـ ق ... وبين آل ساطـ ـع وناعـ ـ ـق(4)

وقال أمرؤ القيس ممجداً فرسه:

فظل لنا يوم لذيذ بنعمة ... فقل في مقيل نفسه متعيب

وعبر شداد بن معاوية العبسي والد عنترة الفارس الجاهلي المشهور عن حبه لفرسه "جروة" ومدى أهميته في حياته فهو لا يبيعها مهما بلغت به الحاجة ولا يعيرها لأعز عزيز ولا يتركها نهباً المهار حتى لا تنضي قوتها، ويحرص علي

---

1) صبح الأعشى، القلقشندي، 14/2.

2) أنساب الخيل، ابن الكلبي، ص 115.

3) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

4) المصدر نفسه، ص 116.

تدفئتها في الشتاء، وإذا ما جاء وقت الصيف غذاها بكل ما هو طيب وخصص لها ستّ نوق كريمة غزيرة اللبن لتشرب من لبنها فقد صدر لنا كل ذلك في قوله[1]:

فمن يك سائلاً عني فإنـ ـي وجروة لا تباع ولا تعـ ـار
مقربة الشتاء ولا تراهـ ـ ـا وراء الحي تتبعها المهـ ـار
لها بالصيف آصرة وجـ ـلّ وستّ من كرائمهـا غـ ـزار

وعندما رثى مالك بن الريب نفسه بكى وتذكر ثلاث لا رابع لهم سيفتقدهم بعد موته سيفه ورمحه الرديني وجواده الكريم فقال[2]:

تذكرت من يبكي علي فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقر خنذيذ يجر عنانـ ـ ـه إلى الماء لم يترك له الدهر ساقيـا

وكان اقتناء الخيل مظهراً من مظاهر الجاه والعز، لذلك صارت فخر لمقتنيها، وهي مبعث الأمن والسعادة. قال عبيد بن الأبرص واضعاً اقتناء الخيل في مصاف الباع والخير والندى والبر.

تذكرت أهلي الصالحين بمحلوب فقلبي عليهم هالك جد مغلـ ـوب
تذكرت أهل الخير والباع والندى وأهل عتاق الجرد والبر والطيب[3]

وقال عبيد ممتدحاً فتياناً من بني أسد مفتخراً بعزهم ونيل مجدهم:

مرو اللقاء ومبقو العقد إن عقدوا إذا أضاع من الميقاق مشترط
رجع إذا حضر النادي حلومهـ ـم وفيهم الزحف والخطي والربط[4]

وافتخر الأخنس بن شهاب التغلبي بكثرة الخيل حول ديارهم وكيف كانوا يصبحونها حليباً ويغبقونها حليباً. وهي بحق أهل لكل ذلك فهي قوية مضمرة، خيل حرب وغارات وتعداء.

ونحن أناس لا حجاز بأرضنا مع الغيث ما نلقى ومن هو غالب
ترى رائدات الخيل حول بيوتنا كمعزى الحجاز أعجزتها الزرائب
فيغبقن أحلابا ويصبحن مثلـها فهي من التعداء في شـ ـوازب[5]

---

1) أنساب الخيل، ص 68.
2) جمهرة أشعار العرب، ص 27.
3) عبيد بن الأبرص، الديوان، ص 37.
4) الزعف. الدرع الواسعة. الخطي: الرمح، الربط، الخيول تربط في الأفنية وتعلق، الواحد ربيط.
5) المفضليات، ص 160.

وامتدح حميد بن ثور آل مطرق فلم يجد أشرف من امتداحهم بما يستعدون به من معدات وأدوات الحرب وأهلها الخيل والأسنة.

لا تغزون الدهر آل مطـرق   لا ظالماً أبداً ولا مظلومـا
قوم رباط الخيل وسط بيوتهم   وأسنة زرق تخال نجومـا[1]

وقال أمرؤ القيس يصف فرسه:

الخير ما أطلعت شمس وما غربت   مطاب بنواصي الخيل معصوب
وقد أشهد الغارة العشواء تحملنـي   جرواء معرفة اللجين سرحوب
كأن هاربها إذا قام ملحمهـا   على بكرة زوراء منصـوب

وجعل عنترة زحفه بالخيل لا بالجيوش

وخيل قد زحفت لها بخيـل   عليها الأسد تهتصر اهتصـار[2]

وكان شهيد على تفريقه جموع الأعداء وتشبثه الخيل والفوارس وقدم الخيل على فرسانها لجليل قدرها وثقل وزنها يوم البأس.

والخيل تعلم والفوارس إننـي   فرقت جمعهم بطعنة فيصـل[3]

ولا ترى أبدع من رقة هذا العربي في وصف فرسه، حين أزور من كثرة ما ناله من أرماح الأعداء إذ يقول[4]:

لما رأيت القوم أقبل جمعهـم   يتذامرون كررتُ غير مذمم[5]
يدعون عنترة والرماح كأنهـا   أشطان بئر في لبان الأدهـم[6]
ما زلت أرميهم بثغرة نحـره   ولبانة حتى تسربل بالـدم[7]
فأزور من وقع القنا بلبانـه   وشكى إلى بعبرة وتحمحـم[8]
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى   ولكان لو علم الكلام مكلمـي

---

[1]) الأمالي، القالي، 248/1، المكتب التجاري بيروت.
[2]) عنترة، الديوان، ص 179.
[3]) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.
[4]) عنترة، الديوان، ص 179.
[5]) يتذامرون: يتخاصمون على القتال.
[6]) أشطان : الحبال جمع شطن؛ اللبان: الصدر.
[7]) الثغرة: كالبقرة وزناً ومعنى. والثغرة: هي الهمهمة التي في الحلق ، اللبانة: الصدر.
[8]) الأزورار:الميل، التحمحم: صهيل فيهحنين – أي صوت متقطع.

وافتخر طرفة بحماية سربه بسيوف ضوارب وخيل أعوجية منامرة نسبها لأعوج فقال[1]:

حين يحمي الناس تحمي سربنا وأضحى الأوجه معروض الكلام

بحسامات تراها رسبـ ـ ـ ـا في الضريبات مترات العصـ ـم

وفحول هيكلات وفـ ـ ـ ـج أعوجيـ ـ ـ ـات على الشأ وأزم

لقد اتفق الشعراء على مجموعة من الصفات المستحب توفرها في عامة الخيل وبعضها مجموعة من الصفات المستحب توفرها في عامة الخيل وبعضها مجموعة أوصاف تأتي لخيال الشاعر وخامرات عقله وسنرى ذلك بالتفصيل عند ذكر فرس أمرؤ القيس في الصيد.

ومرجع الشاعر في هذه الحالة صورة مرئية أو معاشة أو مسموعة عن فرس حرب كأبد ويلات معارك جمة، فأبدى ما أبدى فيها من كفاءة واستعداد وبذل وخرج صاحبه إما منتصراً جذلاً أو مهزوماً مكتئبا. وعلىضوء كل ذلك، المعاش المرئي والمسموع استطاع الشعراء تكوين صورة نموذجية كفرس الحرب ترتقي عند بعضهم إلى مصاف الخيل المثالية التي تعيش في خيال الشاعر لا في واقع حياتهم المعاش.

وإذا نظرنا نظرة ثاقبة لكل هذه الصفات استعطنا تكوين صورة بائنة لنوع تلك الخيول التي كانت ساعدهم الأيمن في حروبهم داخليا وخارجيا.

فمن محبوب الصفات في خيل الحرب، طول الظهر، والسرعة، وتمام الخلقة، وطول الجسم والضمور من الصفات المحبوبة في الخيل عامة وفي خيل الحرب خاصة. فالضمور محبوب؛ لأنه ينم عن تناسق الجسم وسرعة الجري. والطول محبوب؛ لأنه يثلج صدر فارسه يعلو ظاهر يفوق به الفرسان الآخرين، ولهذا العلو مدلوله النفسي لمحارب مهموم في حاجة لقليل من التشجيع وفرس عنترة الذي اقتحم عليه الأهوال وسجل عليه بطولاته الأسطورية يدعو فعلاً للتأمل. قطاته ضخمة وصلبة كأنها صخرة يغشاها المسيل ليل نهار.

---

[1]) طرفة، الديوان ، ص 179.

ولم يعني الجاهليون بحيوان عنايتهم بالخيل، فهي حبيبة إلى نفوسهم عزيزة عليهم، يكرمونها ويؤثرونها بالطعام والشراب، وهي زينة الفارس يمتطيها في نزهه وصيده، وتكون حصنه عند الغارة وسلاحه في الكر، ونجاته عند الفرار؛ ولكل ذلك خصوها بعناية فائقة، وليس أكثر من أن تفدى بالأنفس ويجاع لها العيال، كما يقول الشاعر[1]:

مفداة مكرمة علينا   يجاع لها العيال ولا تجاع

وكانوا يتركونها عند بيوتهم، ولا يرسلونها ترى مع أنعامهم حباً في المحافظة عليها، يقول ربيعة بن مقروم[2]:

وجردا يقربن دون العيال   خلا البيوت يلكن الشكيما

وكانوا يحفظونها من البرد ويصنعون لها الأردية والأغطية لتقيها قسوة البرد وشدة الحر، يقول عنترة[3]:

مقربة الشتاء ولا تراها   وراء الحي يتبعها المهار
لها بالصيف أصبرة وجل   ونيب من كرائمها عِزاز

ويسقونها الماء الدافئ في الشتاء، ويسقونها اللبن يقول المتلمس[4]:

أبقت لنـا الأيـام وال   لمزبات والعاني المرهقْ
جردا بأطنـاب البيوت   تُغـل من حلَبٍ وتُفيـقْ

وكانوا يصنعون لها النعال لتحفظ حوافرها من صلابة الأرض وشدة الصخور، كما يقول زهير[5]:

تهوى على ريذات غير قائـ ـ ـرة   تحذى وتعقد في أرساغها الخـ ـدم

وقد حافظوا على كرمها وأصالتها ونقاء عنصرها، واهتموا بنسلها وأنسابها ونجابتها، وهذا علقمة يفخر بنسب فرسه واصالتها فيقول[6]:

وقـ ـد أقود أمام الحـ ـي سهلبـ ـ ـة   ويهدي بهـ ـا نسب الحي معلـ ـوم

---

1) شرح الحماسة، المرزقي، 210/1
2) المفضليات، ص 185.
3) عنترة، الديوان، ص 309.
4) ديوان المتلمس، ص 245 – 246.
5) زهير، الديوان ، ص 156.
6) علقمة، الديوان،

ولشدة عنايتهم بأنسابها وصفاتها وطباعها، فقد ألفوا في ذلك كتباً مثل أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام لابن الكلبي، والخيل للأصمعي، وأسماء خيل العرب وفرسانها لابن الأعرابي، ونخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد لمحمد الجزائري وغير ذلك. وقد أختاروا لها أسماء وحفظوها، ونسبوا إلى فرسانها، ونسبوا الفرسان إليها، ففرس عامر بن طفيل (المزنوق) وفرس والده الطفيل (قرزل) وفرس مالك بن نويرة (ذو الخمار) وفرس الفارس عنترة بن شداد (جروة) وفرس قيس بن زهير العبسي (داحس والغبراء) وفرسا خذيفة بن بدر الفزاري (الحنفاء والخطار) ومن خيل زيد الخيل (الهطال والورد ودوول) وغير ذلك[1].

وقد وضفوا الفرس وصفاً دقيقاً، وصفوا جسمه وقوته، وعظم هيكله، ووصفوا سرعته ونشاطه، ولهم نوعان من الوصف، نوع يمثل الفرس الذي يبكرون معه إلى الصيد واللهو والطرب، فهو يباكر الوحوش ويقيدها، كفرس امرئ القيس وفرس آخر يغدون عليه إلى الحرب والقتال، أعدوه للحرب والغارة والفروسية، كفرس عنترة الذي يتسربل بالدم.

وخير مثال لفرس الصيد فرس امرئ القيس، وخيل الكر والحرب خيل أو فرس عنترة بن شداد:

ففرس امرئ القيس فرس أعدت أولاً للصيد.

2/ الصيد

ما هو الصيد؟

إن أحب الأعمال إلى نفوس الجاهليين؛ ما يتيح للفرد أن يظهر فيه مهارته الحربية، وقوة احتماله، كان عمل الصيد من الأعمال المحببة إليهم وكل منهم يمارسه وفقاً لحالته الاجتماعية وإمكاناته المادية.

فالأمراء والمؤسرون يمارسون الصيد بالخيل، وهؤلاء الفرسان يصطادون بقر الوحش بخيلهم الأصيلة التي لا تباري في العدو. فهم يبكرون بادئين رحلتهم. كما سنرى في أبيات امرئ القيس.

---

[1]) أنساب الخيل في مواضع مختلفة، ابن الكلبي.

أما طريقة الصيد فإنهم يبحثون في العراء والفيافي الشاسعة عن بقر الوحش، وتساعدهم خبرتهم بمجاهل الصحراء في وجود الصيد زرافات ووجدانا.

هذه المجموعة من الصيادين، قد فوجئت بقطيع من بقر الوحش فدب الذعر فيه واختلط نسقه؛ لأنه اعتاد منهم القتل. وتدفقت نحو الخيل بغتة، وقصدت أجوده وأسرعه فأدركته بسهولة ويسر.

وعندئذ يضعون عصا الترحال، وقد ملأهم الحبور، وتدب الحركة في القفر، وتشعل النيران، وتوضع القدور على الأثافي، ويتصدد الشواء حول السنة النيران، فأمرؤ القيس حدد لحظات الظفر بالصيد حيث يقول:

فعادي عداءٍ بين ثور ونعجـ ـة دراكاً ولم ينضح بماء فيغسل(1)

فظل طهاة اللحم من بين منضج ضعيف شواء أو قدير معجل(2)

ومنهم من يصطاد على الأقدام، وهم يعدون مبكرين أيضاً ويفضلون الأيام الممطرة ليساعدهم التراب الندى في تعطيل الصيد ويقلل من سرعته، ويسهل اصطياده، فيحملون سهامهم وقيسهم وكلابهم ويشقون في اكتساب الفريسة، على المباغتة وحدها، وهي تعتمد على اليقظة وحدة السمع في النجاة بنفسها. فإذا انكشفت لهم بقرة وحش، بادروها بالسهام كل يأمل في فوز سهمه، وخفة عدوه وسرعة كلبه، وبعد لحظات من مجابهة السهام للصواب، ينفرد الموقف للكلاب المعلمة للطراد، فتلج في طلب النصر حتى لو كان ثمنه روحها.

ولبيد العامري يصور رحلة الصيد الشعبية هذه بقوله:

ونسمعن رز الأنيس فراعـها عن ظهر غيب وانيس سقامها(3)

فغدت كلا الفرجين تسحب عنه مولى المخافة خلفها وأمامهـا(4)

إن هذا الفزع من البقر وسرعة تمييزها للوشوشة من الإنسان حتى لو كان على مسافات، ووسط الأحراش يعكس لنا بوضوح مدى انتشار مهنة الصيد في هذا المجتمع.

---

1) فعادي: ولي بين اثنين في طلق.
2) الضعيف: الذي قد صفف، مدققاً على الجمر.
3) الزر : الصوت الخفي، الفرج: الواسع من الأرض. والفرج أيضا : الثغر، والثغر موضع المخافة.
4) مولى المحافظة: الموضع الذي فيه المخافة.

ورحلة الصيد غير مقصورة على بقر الوحش، وإنما كل صيد لهذه مجموعة الصيادين، تقصد نعامة بأولادها، ونجد النعامة أيضاً مثل البقرة الوحشية تعلمت تمييز الهمس المبعث من الإنسان مهما كان حذراً، متبرقعاً بأشباح الظلام، فإن حيلته قد لا تجدي مراراً وتكراراً.

إن رحلة الصيد بقدر ما تكون مكللة بالنجاح والبشر عند الأمراء بخيلهم الكمتة. يصاب البدوي الراجل حيناً مرارة الفشل.

والحيوانات التي يصطادها الجاهلي في شبه الجزيرة العربية تجدها في كل طريق يسلكه الشاعر متجولاً في الفيافي سواء في رحلة صيد، أو بحثاً عن مكان مناسب لبعض الظعن يضع فيه عصا الترحال، وهذه الحيوانات قد تكون محببة إلى نفس الشاعر الجاهلي، يتأمل جمالها ويدخل على نفسه البهجة بكل حالة من حالاتها، مذعورة أو غافلة أو عابثة أو مربعة.

وقد سجل الشعراء طبائع الظباء والعين، فهي تسير في مجموعات متتابعة في نسق واحد وأنها تكون حذرة ويقظة لحماية نفسها من نبل الصياد. وهذا يتضح في قول امرئ القيس عن رحلة صيده يقول[1]:

فعن لنا سرب كـأن نعاجـه   عذارى دوار في ملاء مدبل

فأدبرن كالجزع المفصل بينه   بجيد معمم في العشيرة مخول

وكذلك النعام تناوله الشعراء فوصفوا الأماكن التي يتخذها مستقراً لبيضه، وكيفية سيره لينجو من الصائد. وأكثر ما حاز اهتمامهم منه سرعته.

وهناك نوع من الطير، تعرض الشعراء لذكره عرضا. فأمرؤ القيس عندما أراد أن يحدد الزمن الذي يبدأ فيه صيده كشف بهذه المناسبة عن عادة الطيور التي تتخذ لنفسها أوكاراً تؤوب إليها وتغدو منها مبكرة.

ولم يهمل أمرؤ القيس عجز فرسه، بل زاد على جمال امتلائها وتقابل دفتيها، بسترة سوداء مسدلة على طول امتداد الفرجة في هيئة منسقة مستقيمة حيث قال:

ضليع إذا استدبرته سد فرجـه   بضاف فويق الأرض ليس بأعزل[2]

---

[1]) أمرؤ القيس، الديوان، ص 23.

[2]) المصدر نفسه، ص 20.

فهذا الفرس قوي وبذنب ضاف، كما يكره في الفرس أن يكون ذنبه إلى جانب الأرض وأن لا يكون قصير الذنب ولا طويلاً يطأ عليه، ويستحب أن يكون سابقاً قصير العسيب كفرس أمرؤ القيس هذا.

ولشدة سرعة هذا الجواد فإن الراكب الخفيف يقع عن ظهره بسبب شدة ضغط الريح، أما الراكب الثقيل فتلعب الريح بثيابه لسرعة جري الجواد. وهذا يتمثل في قوله:

يزل الغلام الخف عن صهواته   ويلوي بأثواب العنيف المثقل[1]

كذلك في قوله:

درير كخذروف الوليد أمـره   تتابع كفيه بخيط موصـل[2]

حيث شبهه في سرعته كذلك وسرعة عدوه بالخذروف في دورانه إذا يولع في فتل خيطه وكأن الخيط موصولاً. فهو في سرعته كأنه دوامة يلعب بها الصبي، حين يلفها بخيط على أصبعه، ثم يديرها سريعاً.

وهو بعد ذلك كثير النشاط سريع الحركة له هباب وحمى عند شامه كالقدر حين يغلي، وينصب في عدوه انصباباً تكاد حوافره تمس الأرض فلا يثير غباراً كما تثير الجياد التي تضرب الأرض ضرباً لا يكاد الفارس المتمرس أن يثبت على صهوته، كما يقذف بالرجل الثقيل الذي قلت خبرته بركوب الخيل فطيرانه هذا الذي لا يثير غباراً فقد صوره في قوله:

مسح إذا ما السابحات على الونى   أثرن الغبار بالكديد المركـل[3]

ويواصل أمرؤ القيس في وصف جسم فرسه فلا يفوته وصف كتفي فرسه حيث قال:

كأن على المتنين منه إذا انتحى   مداك عروس أو صلابة حنظل[4]

---

[1]) أمرؤ القيس ، الديوان ، ص 20.
[2]) المصدر نفسه والصفحة.
[3]) المصدر نفسه ، ص 21.
[4]) المصدر نفسه، ص 22.

وفي هذا البيت يصف فرسه بأنه صلب الجسم كأنه صخرة من صخور العرائس، فمن عاداتهم دق طيب العروس في صخرة قوية كذلك شبه جسمه بالحجر الذي يسحق فيه الحنظل دلالة على قوة جسم الفرس.

ويسير بهذه الطريقة الاستقصائية لفرسه في جميع أوصافه واقفاً متكئاً، ومستقيماً وصامتاً ومصوتا، وها هو يشبه صهيل فرسه في صدره بغليان قدر على نار متأججة فقال:

على الذيل جياش كأن اهتزازه   إذا جاش فيه حمية على مرجل[1]

ويترك الوصف هذا ويعرضه في مشهد آخر، يطارد به ويشبع هوايته من الصيد ويجعل حالة أصحابه متجولين بين القدور والشواء، وكلهم تنطق حاله بشكر صاحب النعمة في إعجاب يجعل البصر حائراً حيث قال:

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه   متى ما ترق العين في تسفل

وقد أعد هذا الفرس للصيد فنجد دماء الطراد تسيل على صدره وتصبغه فكأنه عصارة حناء خالطت شيباً قد سرح ورجل ونجد هذا في قوله:

كأن دماء الهاديات بنحـ ـره   عصارة حناء بشيب مرجـ ـل[2]

ومن عاداتهم، تعظيم السباق من الخيل والمبادرة في تسجيل كل انتصار يحرزه. وذلك التقدير ناشئ من اعتمادهم عليه في الصيد وتسهيل نيل مقاصدهم[3].

فكانوا يبادرون بتخضيب نحر الحصان السابق بدم الصيد ليكون علامة على كرم أصله. وهذا ما دفع أمرؤ القيس أن يفتخر بخضاب نحر فرسه، فحصانه لم يسبق إلى مجرد صيد، وإنما يصطاد العاديات من الصيد.

وفي قوله: "كأن دماء الهاديات بنحره" شبه دم الوحش بصدر هذا الفرس بعصارة الحناء على الشيب، وإنما أراد بشيب قد غسل عنه الحناء، ومرجل. وعصارته: ما عصر منه؛ وإنما أراد حمرة الدم بصدره كحمرة الخضاب في

---

1) أمرؤ القيس، الديوان ، ص 23.

2) الهاديات: المتقدمات من كل شيء. المرجل المسرح.

3) بلوغ الإرب، 18/3.

الشيب، ولا يريد أنه أشهب؛ لأنه قد وصفه بالكمتة، ومن زعم أن العرق يبس بنحره فأبيض فقد خلط أيضاً؛ لأنه نفى عنه العرق بقوله: "لم ينضح بما فيغسل".

وما دام الفرس قد وصل إلى هذا العمق في حنايا الضمير فلا مفر من صحبته الدائمة ووجوده المتصل تحت نظرات صاحبه الجائعة التي لا تشبع، والظمأ التي لا تروى. وهذا في قوله:

فبات عليه سرجه ولجامـ ـه وبات بعيني قائماً غير مرسل[1]

ومع هذا أنه لما جئ به من الصيد لم يرفع عنه سرجه وهو عرق، ولم يقلع لجامه فيعتاف على التعب فيؤذيه ذلك[2].

وبجانب هذا التعاطف بين البدوي وفرسه، في ساحات الوغى والإشراف على الهلاك حيث تتشابك أسنة الرماح وينهمر الدم دفاقاً ينشر ثوبه الأرجواني على الفرس وقوائمه قد احتلجت به، وأنات الفوارس قد اختلطت حمحمة الخيل، وامتزج الدمع بالدم والعرق، وعندئذ اختفت لغة الإبانة والوضوح، وبقيت لغة العاطفة الممتزجة، فقرأت عينا الفارس والفرس، اسم الحياة بين طيات شبح الفناء، وينبغي أن نصمت وتصغى إلى الفارس عنترة بن شداد مثلاً في فرس الحرب والغارة، فهو فرس أصيل صبور جرى تحدث عنه عنترة في معلقته المشهورة في مواضع مختلفة فلم يجمع الحديث عنه في موضع واحد، ونرى ذلك في وصف عنترة لفرسه في ساحات الوغى وكيف يستمتع بذلك في هذه الأبيات التي تصور لنا ذلك تصويراً دقيقاً ورائعاً فقال[3]:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالـك إن كنت جاهلة بما لـ ـم تعلمي
إذ لا أزال على رحلة سابـح نهد تعاوزه الكمـ ـاة مكلـ ـم
طوراً يعرض للطعان وتـارة يأوى إلى حصد القسي عرمرم
يخبرك من شهد الوقيعـة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم
لما رأيت القوم أقبل جمعهـم يتذامرون كررت غير مذمـ ـم

---

1) غير مرسل: غير مهمل.
2) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص 120.
3) عنترة، الديوان، ص 207- 219.

يدعون عنتر والرماح كأنهـ ـ ـا أشطان بئر في لبان الأدهـ ـ ـم
ما زلت أرميهم بثغـ ـرة نحـ ـ ـره ولبانة حتـ ـى تسربـ ـل بالـ ـ ـدم
فأزور من وقـ ـ ـع القنـ ـا بلبانـ ـه وشكى إلـ ـى بعبـ ـرة وتحمحـ ـم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لـ ـو علم الكـ ـلام مكلمي
والخيل تقتحم الختار عوابسـ ـ ـا ما بين شيظمة وأجـ ـرد شنظـ ـم
ولقد شفى نفسي وأبرا سقمهـ ـ ـا قيل الفوارس ويك عنترة أقـ ـدم

في هذه الأبيات يبدأ بالتساؤل فهو يسأل عبلة، ألم نسأل الخيل عنه ونستوضح أمر فرسها ماذا كانت فاعلة في الحرب، فقد كان صهوة جواده سريع الجرئ كأنه يسبح في الهواء سباحة، وهو ضخم مرتفع، في صدره جروح من طعان الفرسان وكذلك في جسمه آثار مما خلفته الرماح والقسي، وعلى مثل هذا الفرس يصول عنترة في الحروب ويبلو البلاء الشديد، فإذا كانت الغنائم فهو يقف منها وينصرف عنها، ويسترسل في حديثه عن الحرب وشدة بلائه، ثم يعود إلى ذكر فرسه الذي بكر عليه، ويخوض به غمار المعركة، وتنهال عليه الرماح فهي في صدره قريبة كأنها حبال مرسلة في بئر، وتسيل الدماء على صدره غزيرة كأنها سربال غطى جسمه، وفرسه يميل من شدة وقع الرماح وجراحها وتسيل دموعه فهو يصهل ويحمحم لما أصابه من ألم.

وليتعاطف عنترة مع فرسه، ويشعر بآلامه، فهو حيوان أعجم لو يستطيع الكلام لكلمه وحاوره وشكا غليه ما به، ومع ذلك كله ففرسه بين هذه الخيل وسط غبار المعركة عابسا يخوض الغمرات، وقد أوضح عنترة حال فرسه وعاطفته وقوته وشدته، ولم يقف عند جمال جسمه ووصف ثيابه فحسب، وقد أظهر صورته وأحواله من خلال الحرب، ووصف القتال وقد وصف الخيل شعراء كثر، وشبهوها في سرعتها بالظبي والنعامة والذئب وحمار الوحش والباز والعقاب والطير ولعل بيت النابغة في هذا المجال من خير ما وصفت به سرعة الخيل ومرورها مرا سريعاً عنيفاً كالطير التي تهرب خفيفة تجاه من دفعة المطر القوية، فهو يقول[1]:

[1]) لبيد، الديوان، ص 252.

وقريب من هذا تشبيه لبيد كتيبة فيها خيل سريعة كالحمام تبارى الرماح عند العشى، حيث يقول:

ومشعلة رهوا كأن جيادهـــا   حمام تبارى بالعشى سوافـــلا

أما عمرو بن كلثوم فقد وصف الخيل في معلقته عند الحرب قائلاً:

وردن دوارعاً وخرجن شعثاً   كأمثال الرصائع قد بلينــــا[1]

فعمرو بن كلثوم وصف الخيل ووضع عليها بعضاً من الألبسة ليقيها من الحرب، فصور قوة أجسامها، ومتانة تركيبها وصلابة بنيتها وضمورها فشبهها بالعنان أو "بالرصيعة" وهي عقدة العنان على قذال الفرس وقد بليت هذه الأفراس من التعب كما تبلى الأعنة.

وقد تناول الشعراء الجاهليون كل ما وقعت أعينهم عليه من حيوان الصحراء، فقد وصفوا الذئب والقطاة والباز والنعام والظباء وغيرها، سواء أكان وصفهم لها مباشراً أم عن طريق التشبيه.

ولابد أن يرتبط ذكر الحيوان عندهم بذكر الصيد، فصراع كلاب الصيد مع البقرة أو الثور أو الحمار أو الأتان وخلفها شعوراً بالمأساة والمغامرة، فقد عنو بهذه المشاهد عناية كبيرة، تأملوا فيها ودققوا النظر في مشاهدها، وكثير من الشعراء الذين برعوا في وصف الصيد، وكل له أسلوبه وصوره ولوحاته، فمن أولئك الشعراء زهير ولبيد والنابغة وأمرؤ القيس، وكان أمرؤ القيس أكثر الجميع ذكر للصيد؛ لأنه أعد فرسه للتنزه ومطاردة الحيوان، ومجالس اللهو التي تصيب نصيبها من لحوم الطرائد، فنجده في قصيدته البائية التي ذكر فيها أم جندب، يصور قطيعا من النعاج ترعى في خميلة، وهن لفتونهن وصباهن كالعذارى اللواتي يمسين بملأ مهدب، فينادي صاحبه أن ألجموا الفرس، قبل أن تجفل النعاج فتهرب، وحملوا صاحبه على فرس شديد المتن فانطلق كدفعة من المطر العشي القوي المتدافع وخلف وراءه سحابة غبار، وراح الغلام يستحث فرسه ويزجر ويحركه بساقه

---

[1]) عمرو بن كلثوم، المعلقة، ص 10.

وسوطه، فانطلق الفرس يجود بكل نشاطه وسرعته، حتى أدرك القطيع، فأعمل فيه رمحه طعناً وضرباً، فصرع فريقا ونجأ فريق، بفضل قرون حديدية بالمخرز.

وقد تهيأ للقوم طعام فنزلوا ونصبوا ثيابهم على أسنة الرماح تقيهم حر الشمس، فطعموا ورموا عيون الوحش، فبدت متناثرة حول رحالهم وأخبيتهم جزع لم يثقب لما فيه من سواد وبياض ناصعين، وبعد أن طعموا وغادروا مجلسهم كانت مناديلهم أعراق الجياد يمسحون بها ما علق في أيديهم من دسم، وحملوا بقية الصيد على الحيوان كأنها عدول التمر. وفي القصيدة تفصيل فني كبير يوضح تلك الصورة ويجلو مشاهدها يقول[1]:

فبينما نعاج يرتعين خميلـــة كمشي العذارى في الملا المهدب
فكان تنادينا وعقد عـــذاره وقال صحابي قد شاونك فاطلـب
فلأيا بلأي ما حملنا وليدنـــا على ظهر محبوك السراة مجنـب
وولى كشؤبوب العشى بوابل ويخرجن من جعد تراه منصـــب

حتى إذا قال أدركهن صور مشهد القتال قائلاً[2]:

فعادى عداء بين ثور ونعجـة وبين شئبوب كالقضيمة قرهـب
وظل لثيران الصريم غماغـم يداعسها بالسمهري المعلـــب
فكاب على حر الجبين ومتـق بمدربة كأنمـا ذلـق مشعـــب

ثم يدعو صحابه إلى النزول فقد وجبت الوليمة:

وقلنا لفتيان كرام ألا أنزلـوا فعالوا علينا فضل ثوب مطنـب
وأوتاده ماذيـة وعمـــاوه ردينيـة فيها أسنـة قعضـب
وأطنابه أشطان خوض نجائب وصهوته من أتحمـى مشرعـب
فلما دخلناه أضفنـا ظهورنا إلى كل حاري حديـد مشطـب
كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لـم يثقـب
نمش بأعراق الجياد أكفنـا إذا نحن قمنا عن شـواء مضهب
ورحنا كأنا جوء أتى عشيـة تعالى النعاج بين عـدل ومجقب

---
[1]) امرئ القيس، الديوان، ص 50 – 55.
[2]) المصدر نفسه، ص 57.

ففي الأبيات الأربعة الأولى من "فكان تنادينا" إلى فللسوط الهوب".

يقول في قوله: "فكان تنادينا" أي كان نداء بعضنا بالخروج على مطاردة الوحش، وعقد عذار الفرس من العجلة ومعنى "شأونك" سبقتك. أي حمل غلامنا على ظهر هذا الفرس لنشاطه وامتناعه والمحبوك: القوي المجدول، والسراة: الظهر. والمنجب: الذي في يده وصلبه إنحناء، وهذا هو المستحب في الجياد. وكشؤبوب العشى. أي أنه أعزر من غيره، وأشد دفعة في الجري. وقد شبه شدة دفعه في الجري بدفعة المطر. وخص شؤبوب العشى؛ لأنه أعزر من غيره. والجعد: هو الشديد، والبداوة والمنصب: المرتفع المنتصب؛ وصفه بذلك لشدة وقع حوافره فيثير ما لا يكاد يثور. والمعنى يخرج من مكان خصب ند فيثير ما لا يكاد يثور. والمعنى يخرج من مكان خصب ند قد تجعد ثراه لنداوته، وربت أرضه ونصت لريها وثراها كما في قول الله سبحانه وتعالى (فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ)[1].

أما في قوله: "فللسوط الهوب...". إذا حركه بساقه ألهب الجري أي يجري شديد، وإذا ضربه بالسوط در بالجري، وإذا زجره وقع منه موقعه من الأهوج. أي شبه الفرس بالجنون في حركته ونشاطه عند الزجر. والمنصب: هو الذي يستعين بعنقه في الجري ويمده.

بعد هذا اتجه إلى صورة مشهد القتال، فأبطال المشهد الصوري النعاج والثيران، والأصحاب.

ففي الأبيات من "فعادى عداء" إلى قوله: "فكاب على حر الجبين" هنا يقصد بالنعاج: بقر الوحش. وشئبوب: هو الثور المسن، وإنما خصه بالذكر لفضله على الثيران والنعاج لسنه وقوته، وإنه فحلها الذاب عنها، كما قال الله تعالى في سورة الرحمن: (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) [2]. فذكر الرمان والنخل وهما من الفاكهة لفضل ما فيهما. والمسهري: الرمح الشديد والمشعب: هو مخرز يشعب به. أي أن رمحه قوي وشديد وذي مخرز.

---

[1]) سورة الحج آية 5.

[2]) سورة الرحمن، آية 68.

بعد المشهدين السابقين مشهد الدعوة إلى الخروج للصيد وكيفية الاستعداد لها، ومشهد القتال والصراع مع الصيد، وكيف كانت رحلة الصيد مكللة بالنجاح والظفر بالفريسة. ففي المشهد الثالث والأخير يدعو أصحابه للنزول فقد وجبت الوليمة. لنرى كيف كانت الدعوة للوليمة في هذا المشهد الصوري في قوله: "وقلنا لفتيان كرام ألا انزلوا" إلى قوله: "ورحنا كانا جوء أتى عشية"[1].

ففي هذه الأبيات يصور لنا مشهد الوليمة: وكرم الضيافة ففي البيت الأول من المشهد يصور لنا أصحابه بأنهم فتيان كرام. والمطنب: المشدود بالأطناب وهي جبال الخباء أي نزلوا من خيولهم ودخلوا الخباء.

والمأذية: الدرع وردينة وقعضب: امرأة وزوجها يعضون الرماح. والمشرعب: هو المصنف. والجاري منسوب إلى الجيرة، وشطب السيف:طرائقه. والمهضب: هو الذي لم يدرك نضجه.

ولا ننسى بعد ذلك فرسه وماله من قوة ومكانة في نفسه، ونفس أصحابه، وما له من بلاء عظيم في الصيد بحيث تجد دماء الطرائد تسيل على صدره وتخالط لونه كأنها "عصارة حناء بشيب مخضب".

فكثير من الشعراء تحدثوا عن الصيد ورحلته وذكروا في ذلك قصص بين كلاب الصيد والنعاج والثيران، وكيف كانت تلك المغامرات في الرحلة بين بقر الوحش والكلاب. فقد تناول غير شاعر صورة الثور وصراعه مع كلاب الصيد وخروجه منتصراً كالنابغة، وزهير والمتلمس وغيرهم.

وقد لاحظ الجاحظ أن الشعراء في مجال الرثاء والموعظة يجعلون كلاب الصيد هي التي تقتل بقر الوحش، أما إذا كان العشراء في مجال المديح فتكون الكلاب هي المقتولة والثيران هي المنتصرة"[2] فألفوا القصص في تلك المشاهد شعراً يروي على مر الدهور والأزمان. لكن خير من يمثل الفارس وفرس الصيد امرؤ القيس، وفرس الحرب يمثله عنتر بن شداد. وتصوير الرحلة تصويراً رائعاً

---

[1]) أمرؤ القيس، الديوان، ص 60.
[2]) الحيوان، الجاحظ، 20/2.

من مغامرات واستمتاع بالفريسة ولهو وشرب على شرف الفريسة هو الذي قيد الأوابد وحب المغامرات في الصيد والنساء أمرؤ القيس جندج بن حجر.

المبحث الرابع

الكرم – الحرية – الشجاعة - المروءة

1/الكرم

الكرم من العادات المتأصلة عند العرب، لذا الفخر به من أهم أغراضهم الشعرية، والكرم اسم جامع لصفات الإنفاق والبذل، وهو دائماً مقترن بالمال والثقافة وكانت العرب تتفاخر بذلك ويكاد أن يكون الكرم سنة متوارثة بينهم وعرف سائد.

فالكرم مقترن به الجود والسخاء والسماحة والفضل والضيافة وكل ماله علاقة بالعطاء وإذهاب المال فيما يعود على المرء بالذكر الحسن والثناء الجميل، فهو ميزة ذات مفهوم اجتماعي يعتمد على قوانين لا يخل بها أحد من أفراد المجتمع وإلا كان عقابه معنوي رادع متمثل في الذم والهجاء الذي قد يطال القبيلة بأكملها.

والكرم والجود مترادفان بمعنى البذل والعطاء، فقد جاء في قواميس اللغة: "جدت له بالمال جوداً، وجاد الرجل بماله يجود جوداً"[1]

وقد ذكر ابن عبده ربه أسماء من انتهى إليهم الجود في الجاهلية فكانوا الأكثر كرماً وعطاء والأشهر في الذكر عند الحديث عن الكرم والجود هم: حاتم بن عبد الله الطائي، وهرم بن سنان، فكعب بن مامة الأيادي[2].

صفات الكرم

وبعد نتساءل هل للكرم عند العرب حدود تحده؟ وهل له ضوابط تضبطه؟

وفي الإجابة عن تلك التساؤلات نقول: الذين تكلموا عن الحدود والأجواد، وذكروهم وأثنوا عليهم لم يحددوا أي ضوابط للجود، ولا أشاروا للحد الذي يسمى الإنسان عنده جواداً، ولكن يفهم أن الجود عند العرب هو البذل والعطا وليس له حد ينتهي إليه، بل يكون مستمراً حتى فناء المال وهلاك النفس بعد المال؛ ولذا وصفوا كعب بن مامه بأنه أجود الأجواد وقد قال فيه الشاعر[3]:

يجود بالنفس إن ضن البخيل بها   والجود بالنفس أقصى غاية الجود

---

1) انظر : اللسان باب الدال فصل الجيم.
2) العقد الفريد، ابن عبده ربه، 193/1.
3) انظر: اللسان مادة "فضل"

ومن صفات الكرم السخاء، وهو وصف مرادف للجود يوصف به الرجل والمرأة، فيقال: سخي وجواد وكريم.

ومنها أيضاً: الفضل فيقال فضل يفضل وهو فاضل، ورجل مفضال كثير الفضل، والفواضل الأيدي الجميلة.

وتأتي السماحة كصفة من صفات الكرم، وهي صفة طيبة تتقدم على الجود والكرم والفضل، ففيها شفافية النفس المعطاءة التي تنطلق بالمد وتسرع للهبة سجيته إلى الإنفاق والبذل سمحاً وفعله سماحة.

ومن خصال الكرم "القَرى" والضيافة فهي أكثر صفات الكرم التصاقاً بحياة الجاهلي وأقرب قبولاً لدى سكان الصحراء مما تتصف به حياة ساكنيها من شظف وعنت، فتضطرهم هذه الطبيعة القاسية إلى الانتقال الطارئ والرحلة التي لا يستطيع المسافر تحديد أمد لها ولا يتوقع لها نهاية، فقد يخرج في طلب الضالة وهو لا يظن أن ذلك يأخذ منه بعض اليوم لكن يحصل لما لم يكن في الحسبان، فقد لا يكون الزاد كافياً، فيحتاج أثناء رحلته للطعام وإلا هلك.

أ/ أزواد الركب

وهم العرب الذين يكفون المسافرين مؤنة السفر، ويضمنون لهم معاش الطريق وزاد الرحلة، ونذكر منهم. مسافر بن أبي عمرو بن أمية، وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ابن عبد العربي بن قصي، وأبي أمية بن المغيرة بن عمير بن مخزوم، والأسود بن المطلب بن عبد العربي بن قصي(1).

مآدب العرب

اشتهر أهل الجاهلية بمآدبهم، والتي كانت لها أعراف وتقاليد يلتزمونها في كثير من أحوالهم، ونحسب أن لهم من أشكال المآدب وضروب الدعوات ما ليس لغيرهم من الشعوب.

وكأنهم بتعدد المناسبات التي تقام للطعام والإطعام يعوضون بذلك قسوة الطبيعة وظواهر الحرمان وشظف الصحراء، الأمر الذي لم يكن متوقعاً من أناس

---

1) المنمق في أخبار قريش، محمد حبيب البغدادي، تحقيق خورشيد سيد أحمد فاروق، ط1، 1405هـ - 1915م، ص 368.

يعيشون حياة غير مستقرة لا تساعد على التأني في صنع المناسبات وفي أنواع المأكولات والأطعمة. ومن المناسبات التي يطعم فيها الطعام:

الوليمة

وهي طعام الزواج، وكانوا يدعون لها الأشراف والوجهاء وأهل الشأن والمكانة الاجتماعية الخاصة.

المأدبة

وهي إعداد الطعام للناس كافة، وقد فخروا بذلك وأشادوا بالأدب الذي لا يخص بدعوته أحد من الناس دون الآخر فقالوا[1]:

نحن في المشتاة ندعو الجفلي   لا ترى الآدب فينا ينتقـر[2]

الدعوة

وهي تقديم الطعام للحي والمقيمين فيه بلا استثناء وبدون مناسبة محددة.

الخرس

وهو الطعام الذي يصنع للنفساء من النساء خاصة.

العقيقة

وهو الطعام والدعوة إليه عندما يولد الولد.

الإعذار: هو الطعام الذي يصنع للختان.

الشندخ

هو طعام يقدم بمناسبة الزواج وإعلانه وما يبتهج به رب الضالة عند وجودها.

النقيعة

وهي الطعام الذي يصنع للقدوم من السفر ويدعى إليه.

---

[1]) ديوان طرفة بن العبد، قصيدة رقم 5.

[2]) المشتاة: الشتاء . الآداب: الداعي إلى الطعام. ينقر: يختار.

الوكيرة

وهي الطعام الذي يصنع للقدوم من السفر ويدعى إليه وفرقوا بين حال وحال في تقديم الطعام. وتشميته، فجعلوا "التحفة" هو الطعام الذي يصنعونه للزائر، أما الأضياف فطعامهم يسمى بالقرى وسموا طعام الوفاة بالوضيمة[1].

وما يهمنا هنا اهتمام الجاهليين بالكرم والضيافة والضيف وأن القرى إحدى مآدبهم ومناسبات حياتهم التي يفخرون لها ويجدون فيها متعة السخاء وراحة النفس ورضا الضمير.

وعليه لم يعد مستقربا أن يكون للضيف مساحة كبيرة من شعر الشعراء وفخر الفاخرين بمحامد أجودهم وأعمال الفضيلة عندهم، وقد نال إكرام الضيف شيء كثير من الاهتمام الجماعي، وقلّ ما عرض شاعر من العرب للمدح أو الذم إلا وجعل من شعره نصيباً طيباً للمدح يكرم العربي لضيفه أو هجائه بإهماله.

عرف الضيافة

تأصل قرى الضيف في العقل العربي حتى صار حقاً لازماً لا يلغيه أو يقلل منه حال من الأحوال أو ظرف من الظروف الطارئة في حياة العرب، وحتى الحرب وهي أقصى ما يقع بينهم لا تمنع أحد المتحاربين من تقديم القرى للمحارب الآخر إذا نزل عليه، فذكر أن أبا كرب تبع غزا الأوس والخزرج في يثرب عندما أنفوا طاعته وعصوا أمره، فكانوا يحاربونه في النهار فإذا جن الليل أخرج الأوس والخزرج طعام لضيافة لجيشه وقدموا لهم القرى الذي يرونه واجباً عليهم حتى في مثل تلك الحال من الحرب والقتال[2].

أما أهل الوبر أو البادية المتنقلون في فجاج الصحراء وأنحاء الجزيرة فكان شأنهم عجيباً في إقراء الضيف والاهتمام به مع ما يعترى الناس عن عوز وفاقة.

وهم ينتشرون في الصحراء ويذهبون في مجاهلها كل مذهب يطلبون الخصب ويتبعون الغيث ويرتادون مواقع الحياة أياً كان.

---

1) المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد على، دار العلم للملايين ط3، 1980م، 18/5.

2) العقد الفريد، ابن عبده - 334/3

النار: كانت النار هي الهادي والدليل وهي الدعوة إلى النزول وتناول الطعام، وكانت توقد لطبخ الطعام، فكانت وسيلة لم يلبث العرب أن جعلوا إيقادها تعبيراً عن كرمهم وحبهم في صنع الجميل.

وغد وصف العرب النيران حسب الغرض الذي توقد من أجله فمنها نار الحرب ونار القرى التي يوقدها الجواد في الليل، وخاصة في ليالي الشتاء وغيرها ليستدل بها الأضياف.

قال الأعشى[1]:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة   إلى ضوء نار في اليفاع تحرق
فشبت لمقرورين يصطليانهـا   وبات على النار الندى والمحلق

ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى "النار" قول الحطيئة[2]:

متى تأتيه تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نار عندها خير موقـد

وأحسن ما قيل في هذه النار أيضاً قول الشاعر[3]:

له نار تشب بكـ ـ ـل رادٍ   إذا النيران البستْ القناعـ ـ ـ ـا

وهذا أحد أركان الجاهلين يأمر علامة الإبقاء والاستجلاب للأضياف قائلاً[4]:

أوقد فإن الليل ليل قـ ـ ـر   والريح ما تراه ريح صـ ـ ـ ـر
عسى يرى نارك من يمـ ـر   إن جلبت ضيفا فأنت حـ ـ ـ ـر

فمن حبه للضيف وإكرامه له، رهن مجئ الضيف يعتق غلامه من العبودية، فإن متعة هذه تجعل النفس تواقة لذلك بكل تلهف وشوق.

فالنار لها أهميتها عند العرب حتى أصبح احتكارها من قبل أهل السلطات والقوه علامة من علامات السيادة، وصار حقا شخصيا لا يقوله الآخرون إلا بإذن صاحب الامتياز فيقول مهلهل بن ربيعة في رثاء أخيه كليب[5]:

تبنت أن النار بعدك أوقـ ـدت   واستب بعدك يا كليب المجلـ ـس
وتكلموا في أمر كل عظيمـ ـة   لو كنت تشاهدهم بما لم ينبسـ ـوا

---

1) ديوان الأعشى، ص 16.
2) ديوان الحطيئة، ص 2.
3) نهاية الإرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، 13/1، بدون ط بدون ت.
4) المرجع نفسه والصفحة.
5) الحماسة 928/2.

وكان كليب وائل لا توقد نار كرم مع ناره.

فلا اختلاف أن النار عامل جذب للأضياف ودلالة يقصدها السفر وأهل الحاجة، وموقدها هو مثوى المعوزين كما يقول أمرؤ القيس[1]:

لنعم الفتى تعشو إلى ضوء ناره طريف بن مالك ليلة الجوع والخصر

ب/ الكلب

بجانب النار كان الكلب رمزا من رموز هداية الضيف، وخاصة أن النار لم تكن متقدة طول الليل، وربما أطفأتها الرياح أو المطر، فالكلب يهدي الضيف ليعرف أين يتجه وأن الضيف لشدة حرصه على القرى وحبه في أن يجد المأوى ينبح كما ينبح الكلب لعل الكلاب تجيبه فيعرف مكان الحي فيتجه إليه.

وكان من الكلب حارسهم الذي لا يغمض جفنه وخادمهم الذي لا يفارق مضارب الخيام، وقد عرفوا عن الكلاب هذا الألف المحبب إلى نفوسهم فكانوا إذا أرادوا المبالغة في وصف شيء بشدة الألف قالوا: "ألف من كلب"[2]، والكلاب معروفة بتبعيتها لسيدها أينما ذهب وعلى كل حال حتى إذا أجاعه صاحبه وحرمه لذة الطعام، فإذا ضربوا مثلاً بشخص لئيم تذله وتهينه فيطبعك قالوا: "أجع كلبك يتبعك"[3]، وكانوا إذا أرادوا المبالغة في وصف شخص بالجوع قالوا: "أجوع من كلبه حومل"[4]، وحومل هذه امرأة من العرب كانت لها كلبة تربطها في الليل تحرس بيتها، وتطردها في النهار تلتمس لها طعاماً. فلما طال عليها ذلك أكلت ذنبها من الجوع فصارت مضرب مثل.

وفي الطارق ليلا الذي يستنتج بصوت الكلب حتى تعرفه الكلاب مكان الحي قول الشاعر[5]:

ومستنبح بات الصـ ـدى يستتيمه فتاة وجوز الليل مضطرب الكسر

رفعت له ناراً ثقوبـ ـ ـاً زنادهـ ـا تليح إلى الساري: هلم إلى قدري

فلما أتى والبؤس رادف رحلـ ـ ـه تلقيته مني بوجه امـ ـرئ بشـ ـ ـر

---

1) ديوان أمرؤ القيس، ص 110.
2) مجمع الأمثال، الميداني، ت: أبو الفضل أحمد النيسابوري، دار مكتبة الحياة بيروت، 1961م، 67/1.
3) المصدر نفسه، ص 165.
4) مجمع الأمثال، الميداني، ت: أبو الفضل أحمد النيسابوري، دار مكتبة الحياة بيروت، 1961م، 67/1.
5) الأمالي، أبي الغالي، دار الكتاب العربي بيروت، 210/1.

فقلت له أهلٌ كأهل فلـ ـ ـم يجـ ـر   بك الليل إلا للجميل من الأمـ ـ ـر

وكادت تطير الشول عرفان صوته   ولم تمس إلا وهي خائفة العقـ ـ ـر

وفي ذات المعنى قول عمرو بن الأهتم حيث يقول(1):

ومستنج بعد الهدوء أجبتـ ـ ـ ـه   وقد حان من ساري الشتاء طـ ـروق

يعالج عرنيناً من الليل بـ ـ ـارداً   تلف رياح ثوبـ ـ ـه وبـ ـروق

أضفت ولم أفحش عليه ولم أقـ ـل   لأحرمه إن الغنـ ـاء يضيـ ـق

فقلت له: من قيل عرفاني اسمـ ـه   لينافس بي إن الكريـ ـم رفيـ ـق

فهو أحسن لقاء ضيفه بالبشاشة والترحاب والاطمئنان حتى يأنس الضيف، وجهز له اللحاف الوثير والراحة التامة.

وعن آداب الضيافة يقول حاتم الطائي(2):

قد روى للضيـ ـف منصوبـ ـة   وما ينبح الكلـ ـب أضيافـ ـ ـه

وإن لم أجد لنزيـ ـل القـ ـ ـرى   قطعت لـ ـه بعض أطرافـ ـ ـه

وحاتم يرى أن كلبه يهدي الضيف ويدله عليه قائلاً(3):

تدل ضيفي علي في غلس الليـ ـل   إذا النـ ـار نـ ـ ـام موقدهـ ـ ـ ـا

ويزعم أن كلبه قد تخلق بطبيعة خاصة فصار جباناً لا يهر الغرباء، يصور ذلك قائلاً(4):

إذا ما بخيل الناس هرن كلابـ ـه   وشقّ على الضيف الضعيف عقورها

فإنني جبان الكلب بيتي موطـ ـا   أجـ ـود إذا ما النفس شح ضميرهـ ـا

وليس على نار حجاب يكنُهـ ـا   لمستوبص ليـ ـلا ولكن أنيرهـ ـ ـا

ويقول أيضاً(5):

بأني لا يهر الكلب ضيفـ ـي   ولا يقضي نجي القـ ـوم دونـ ـ ـي

فالجاهلي يفخر بأن ناره موقدة، وصدره رحب للضيف، وكلبه جباناً، وكل هذا ليكون مضيافاً عالي المكانة.

---

1) شعر عمرو بن الأهتم، ت: مسعود محمود، مؤسسة الرسالة ط 1984م، 93.
2) ديوان حاتم الطائي، ط بيروت، 254.
3) المصدر نفسه، ص 265.
4) ديوان حاتم الطائي، ط بيروت، ص 245.
5) المصدر نفسه ، ص 289.

1/استقبال الضيف

الجاهلي يجد سعادته ومتعته في إكرام الضيف، ولذلك يهش عند مجيئه، ويفرح بمقدمة، ويرى أن القرى وحده غير كاف، فالقرى الحقيقي طلاقة الوجه والترحاب بالضيف، وذلك هو الأدب الأخلاقي الذي يفخر به حاتم قائلاً: [1]

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحـ ـل جديـ ب

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريـ ـم خصيب

أما عروة بن الورد فيقول[2]:

فراشي فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهني عنه غزال مقنـ ـ ـ ـع

أحدثه إن الحديث من القـ ـ ـرى وتعلم نفسي أنه سوف يهجـ ـ ـع

فالبشاشة والترحيب بالضيف والإيثار له واللطف هي من سمات الرجل الكريم، الذي يأخذ ضيفه بالرفق ويؤاسه حتى لا يشعر بالعزلة أو ا لغربة، وهو يسامره.

5/ خدمة الضيف

بعد استقباله والترحاب به، لابد من خدمته والعناية به، فقد أعطى الجاهلي هذا الجانب حقه، فيقول هذلول بن كعب العنبري[3]:

لعمر أبيك الخبر إني لخـ ـادم لضيفي وإني إن ركبت لفـ ـ ـارس

وإني لاشري الحمد أبغى رباحه وأترك قرني وهو خزيـ ـات ناعس

أما سيد تميم قيس بن عاصم فيفخر بخدمة ضيفه قائلا[4]:

أيا ابنة عبد الله وابنة مالـ ك ويا ابنة ذي البردين والفرس والورد

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكيلا فإني لست آكله وحـ ـ ـ ـدي

أخا طارق أو جار بيت فإنني أخاف ملامات الأحاديث من بعـ دي

وإني لعبد الضيف من غير ذلة وما بي إلا تلك من شيـ ـم العبـ د

---

1) المصدر السابق، ص 309.

2) ديوان عروة بن الورد، ص 65.

3) الحماسة، ص 70.

4) الأغاني، أبي الفرج، 68/14.

فالجاهلي الكريم يواجه لوم المشفقين وتذمر الأقربين لانحرافه في الكلام وحسن السخاء كما يقول حاتم[1]:

وقائله أهلكت في الجود مالنـا ونفسك حتى ضر نفسك جودهـــا

فقلت دعيني إنما تلك عـادة لكل كريم عـــادة يستعبدهـــا

ويقول:

فلوميني إذا لم أقر ضيفـــي وأكرم مكرمـي وأهـن مهينـــي

وفي المعنى ذاته يقول ذو الرمة[2]:

أعاذل غضي من لسانك عن عذلـي فما كل من يهوي رشادي على شكـل

فما لام يوما من أخ وهو صـادق إخائي ولا أعتات على ضيفها إبـلـي

إذا كان فيها الرسل لم تأت دونـه فصالي ولو كانت عجافـاً ولا أهلـي

وإن تعتذر بالمحل من ذي ضروعها على الضيف يجرح في عراقيبها نصلي

فمبررات الضيافة أقوى من عوامل التفهم لموقف العازلة.

فالحديث عن النفس والضيافة والجود لابد أن يشفع بالشجاعة لأنها الجانب الأقوى والمتمم لكمال المرء الذي يبحث عنه فيقول حاتم[3]:

وأني لاقري الضيف قبل سؤاله وأطعن قدماً والأسنة ترعـف

فالضيف والجار بينهما رابط قوي في وصف الجود كما يقول عنترة[4]:

وإني لاحمي الجار من كل ذلة وأفرح بالضيف المقيم وأبهـج

أحيانا يكون إكرام الضيف جزء من الوصية، كما يقول الأعشى[5]:

الضيف أوصيكم بالضيف إن له حقا على فاعطيه واعتـرف

واختم القول عن صفة الكرم بقول الألوسي: "إذا لم يهم ضيف حكموه على أنفسهم واسمتها نواله ما وجدوه من نفسهم وهذا شعرهم ينطق بما جبلا عليه ويعرب عما ألفوا وجنحوا إليه". ومما يوضح أن ظاهرة الكرم تقليد كل من يجيد

[1]) ديوان ذو الرمة، ص 187.
[2]) المصدر نفسه، ص 160.
[3]) ديوان حاتم الطائي، ص 223.
[4]) ديوان عنترة بن شداد، ص 37.
[5]) ديوان الأعشى، ص 359.

عنه أو يتهاون فيه يعرض نفسه للشتم وقال عمرو بن كلثوم، ساخراً من خطب عدواته[1]:

نزلتم منزل الأضياف منـ ـا فعجلنا القرى أن تشتمونـ ـا

2/الحرية والإباء

العربي بطبعه يميل إلى الحرية وحياة التنقل والترحال بعيدا عن القيود التي تتنافى وطبعه، وكان لهذا الفهم آثار سيئة بجانب آثاره الحسنة، فلم يكد العربي يخضع للقانون العام المنظم للعلاقات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ألا لينفلت منه.

فالتمادي في حب الحرية طبيعة جبل عليها البدوي، فإن كان قد عاش في بيئة مجدبة نادرة الزرع شحيحة بالخير عامة، فإنه قد استعاض عن هذا الفقر المادي بأعظم الغنى، هو الحرية والإباء، فقسوة الطبيعة حرمته كثيرا من الوسائل المادية الحسية التي يترفه بها المتحضرون ولكنه استمتع بخير ما يستمتعون، فعاش منبسط النفس، كالبطحاء، صافي المشاعر كالشمس المشرقة، والبدر السافر.

العربي يفضل الموت على حياة المذلة، ويرى أن الضيم لا يصلح به إلا الحمار. والشنفري ينفذ هذا فعلا لا قولا حيث يقول[2]:

أقيموا، بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميـ ـ ـل

فالقصيدة تبدأ بالثورة على أهله، فهو أبى لا يقبل الضيم، ويكره الذل والهوان، ويترفع عما يأباه خُلقه، والوطن عنده ليس مجرد الموقع الجغرافي يعيش فيه الإنسان حياته، حتى ولو كانت حياة الذل والهوان، وإنما الوطن الحقيقي عنده، هو ذلك الغناء الذي يجد فيه كرامته وعزته.

فهنا نراه عكس إخوانه من الصعاليك، فبينما خلعتهم قبائلهم، كان هو الذي خلع قبيلته، غير أن الشنفري وإن كان تخطى مرحلة القول إلى الفعل إلا أنه لم يفته تعليل الفعل، فهو يقول:

---

1) شرح القصائد العشر، 361.
الضيافة وآدابها في الشعر العربي القديم، مرزوق بن صنيتان بن شباك، ط الفرزدق التجارية، الرياض، ط1، 1414هـ - 1993م

2) انظر: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، ط4، ص 350.
* بلوغ الإرب في شرح لامية العرب، جمع وتحقيق: محمد عبد الحليم القاضي ومحمد عبد الرازق عرفان، دار الحديث، ص 30.

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعـ ـزل

لعمرك ما بالأرض ضيق على امرئ سرى راغبا أو راهبا وهو يعقـ ل

وهذا منتهى التجرد، ذلك الذي يخرج من قوم يحمونه إلى وحش الصحراء حين يقول: ولي دونكم، أهلون سوى عملي الإيمان بالذات والقدرة على التفرد: وأرقط زهلول وعرفاء جيأل الإباء والقدرة على التفرد صنوان، فالأبي قد يصل به الأمر إلى العقد النفسية. فالشنفرى شاعر لا يريد أن يكون مقامه على ذلك وهوان، فما مقامه في أرض لا يجد فيها حريته، وإنه بقادر على أن يجعل من كل البلاد بلدا له.

فالفقر، والنفس البدوية العزيزة هما محور أبياته السابقة، فجفاف الصحراء، ومطاردة الشرائد، والتنكر للمذلة، وايثار الوحوش على الأهل؛ لأنها أحفظ للسر، وأحرص على الجار، وكل هذا يدل على الإيمان بالذات.

يلفت عزة نفس الشنفرى أن أوصي ألا يدفن بعد موته، بل يترك لتأكله الضبع؛ لأن ذلك أحوط له من يبقى جسمه فيمثل به العدو[1].

أ/العفة

يتصف العربي عن سلوك الجشع، وأي سلوك يخدش الكرامة في هذه البيئة التي قامت فيها الأخلاق على الإباء، والإعتزاز بالشرف، كان لابد للرجال والنساء من العفة، ومن التعفف؛ لأن العدوان على العرض يجر ويلاً وحرباً، وكان لابد من الغيرة على العرض أن يمس أو يخدش، والعفة شرط من شروط السيادة فهي كالشجاعة والكرم.

فالعفة من حياة العربي أنواع، فمنها ما هو مشهور عن العرب كافة، من الحرص على العرض، ويدخل فيها وقاية المرء لعرضه نفسه، وكذلك تعففه عن جيرانه كما قال شاعرهم[2]:

أغشى إذا ما جارتي خرجـ ـت حتى يواري جارتي الجـ ـ در

---

[1])) انظر: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، ط4، ص 350.

* بلوغ الإرب في شرح لامية العرب، جمع وتحقيق: محمد عبد الحليم القاضي ومحمد عبد الرازق عرفان، دار الحديث، ص 32.

[2]) البيت لمسكني الدرامي، خزاعة الأدب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، ط العصور، 258/2.

والنوع الثاني: هو نوع خاص من العفة، وهو التعفف عن بعض الحقوق، كأن يتعفف الفارس عن غنائم الحرب، ويتعفف الطاعم عن المبادرة إلى الطعام، وهذا النوع أعلى الأنواع؛ لأنه يتعفف عن حق.

ومن ثم كان الثاني لوناً مميزاً من العرب، ويحق له أن يفتخر بعفته بهذا الموضع، يقول عنترة:

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وهذا اللون هو الذي يفتخر به الشنفرى حين يقول:

وإن مدت الأيدي إلى الزاد، لم أكن بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

ولم تكن العفة حيلة العاجزين أو تعلة المحرومين، وإنما كانت حيلة الرجال ومفخرة من مفاخر الأبطال.

الاعتداد بالنفس

اشتهر العرب الاعتداد بالنفس، وربما كانت نونية عمرو بن كلثوم، وميمية عنترة العبسي تعبيراً عن بعض جوانب هذه ا لعزة.

فنونية عمرو من نوع الاعتداد بالنفس في صورة قبيله حيث يقول

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينـ ـا

بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا

أما قصيدة عنترة فهي اعتداد بالنفس، ولكن في ذورة فردية يقول:

وإذا ظلمت فإن ظلمي باسـ ـل مـ ـر مذاقته كطعم العلقـ ـم

الشجاعة[1]

سمة كريمة من أهم الأخلاق التي تقوى الاعتداد بالنفس، وعدة البدوي القلب الشجاع، والأخلاق الكريمة، والصبر، فحمل السلاح شيمة العربي؛ لأن يرى سلاحه جزء منه لا يفارقه في سلم أو غيره، فهو ملازم له في كل أوقاته وترى طرفة يقول[2]:

ولولا ثلاث هن من عيشـ ـة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي

---

1) بلوغ الأرب في شرح لامية العرب، ص 37.

2) شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، ط2 1964، ص 173.

فمهن سبق العـ ـاذلات بشربـ ـة كميت متى تعل بالماء تزيـ ـد
وكري إذا نادى المضاف محنبـ ـا كسيد الغضا نبهتـ ـه المتـ ـورد
وتقصير يوم الدجن، والدجن معجب ببهكنة تحت الطراف المعمـ ـد

فثلاثة طرفه هي:

1. المسابقة إلى شرب الخمر المعتقة التي تحتاج إلى المزج بالماء لتزيد.
2. نجدة المحتاج الخائف.
3. اللهو مع النساء في ظلام الليل.

أما الشنفرى يقول:

ثلاثة أصحاب: فؤاد مشيع، وأبيض إصليت، وصفراء عيطل فثلاثة الشنفرى فتظهر ترفعاً عن لذات الدنيا –مهما قيل في حكمة طرفة- فهناك بون شاسع –بين حكمة طرفة- التي تجعل ثلثي أحبائه خمراً ولهواً، وبين حكمة الشنفرى التي تجعل أحباءه:

1. قلباً شجاعا جسورا غير خائف.
2. سيفاً صقيلاً صارما.
3. قوسا متينة طويلة العنق.

أ/حسن البلاء في الحروب

الشجاعة هي الأداة لحسن البلاء في الحروب، وإن كانت الحروب بين العرب عامة قد اندلعت، وطالت أيامها بين كثير من القبائل، وشعر الحرب في أدب العرب كثير، ومتعدد المناحي، فالبدوي الصعلوك يجد متعة حينما يدخل اشتباكاً بمعونة غيره من الصعاليك أحياناً، أو بمفرده تارة أخرى، مع من ظلموه، ومع قوافل الأغنياء، وهي أشبه ما تكون بحرب العصابات.

وقد أحبها الصعلوك حباً شديداً، حتى إنه ليتصور أنها تحزن عليه، أو تفرح به.

فالجانب الرفيع من تعليل الصعاليك للحرب، لا يستوي فكرياً إلا عند عروة بن الورد، ومن أجل ذلك يقول جامعو موسوعة الشعر العربي: إن شعر عروة "هو

بمثابة شهادة تاريخية واجتماعية عن تلك الظاهرة الفريدة التي هي الصعلكة، كحركة احتجاج جماعية على نمط من الحياة الاقتصادية، في سبيل نمط آخر، لم يستطع أن يتبين عروة حدوده الايجابية، إلا من خلال أخلاق الفروسية العربية، وقد وضعت لخدمة أغراض عادلة للجماعة المضطهدة، بعيداً عن هدف الغزو لغرض التفوق وزيادة الثروة والمال"[1]

4/ المروءة وقوة الهمة

المروءة صفة لا تعطي كل الناس، وإنما هي منة يخص بها المولى عز وجل من يشاء، وقد اشتهر من العرب بهذا الأمر طائفة منهم: حاتم الطائي، ومعن بن زائدة، فضرب بهما الأمثال، وليس معنى ذلك أن كل عربي كانت عنده هذه الهمة وهذه المروءة، فكم من رجل كان يقف على أعتاب الملوك مادحاً، وفي نفس الوقت يفضحه في زوجه، فهذا ما فعله النابغة الذبياني مع النعمان بن المنذر، وقصيدته "المتجردة" خير شاهد على ذلك ثم ينخلع قلبه، ويطير كل مطير حينما يتوعده النعمان، فيبادر بالاعتذار مرتجفا خائفا[2]:

أتاني –أبيت اللعن- أنك لمتني وتلك التي اهتم منها وأنصـ ـ ب

فبت كأن العائدات فرش لـ ـي هراساً به يعلي فراش ويقشـ ـ ب

ثم نراه، وهو الذي كان بالأمس يكشف سره، ويفضح عرضه، يقول فيه اليوم:

فإنك شمس والملوك كواكـ ـب إذا طلعت لم يبد منهـ ـ ن كوكـ ـ ب

فهذا التلوث لم يصفه إلا قلة المروءة، وضعف الهمم.

الوفاء[3]

كان من عادات العرب أنهم يتعاقدون في المحالفات على الدم، والماء والطيب، ويتمسحون بالكعبة، وكان الغدر معرة يتجافون عنها وإذا ما غدر أحدهم، رفعوا لواء بسوق عكاظ ليشهروا به.

---

[1]) انظر: موسوعة الشعر العربي، مطاع صفدي وأيليا حاوي، شركة خياط للكتب والنشر، بيروت، ط1970/3/10م،ص57.

[2]) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق وشرح كرم البستاني، ص 17.

[3]) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، ص 360.

لكل ما تقدم كانت إجابة قيس بن عاصم تعبر بصدق وأمانة عما يصبو إليه البدوي من صفات الكمال، حين قيل له (بم سدت قومك؟ قال: ببذل الندى، وكف الأذى، ونصرة المولى، وتعجيل القرى"[1]: فالبدوي يجد المتعة في تلك الصفات، وهذه الصفات هي التي أقرها الإسلام، وحث عليها رسولنا الكريم –صلى الله عليه وسلم- وأصل لها.

---

[1]) بلوغ الإرب، الألوسي، 187/2.

المبحث الخامس

الأسفـ ـ ـ ـار

السفر لغة

اسفرت الإبل إذا ذهبت في الأرض. والسفر: خلاف الحضر، وهومشتق من ذلك لما فيه من الذهاب والمجئ كما تذهب الريح بالسفير من الورق وتجي، والجمع أسفار. ورجلٌ سافر ذو سفر وليس على الفعل؛ لأنه لم يرد له فعلٌ، وقوم سافرةٌ وسفر وأسفار وسفّار، وقد يكون السفر الواحد. يقال رجل سفر وقوم سفر، ثم أسافر جمع الجمع.

قال الأصمعي: كنزة السافرة بموضع كذا أي المسافرون. قال: والسفر جمع سافر، كما يقال شارب وشرب، ويقال رجل سافر وسفر أيضا. وعند الجوهري: السفر قطع المسافة والجمع الأسفار والمسفر الكثير الأسفار القوي عليها، والأنثى مسفرة. وسمي السفر سفراً؛ لأنه يسفر عنه وجوه المسافرين وأخلاقهم فيظهر ما كان خافياً منها. ويقال: سفرت أسفر سفوراً خرجت إلى السفر، فأنا سافر وقوم سفر مثل صاحب وصحب، وسفار مثل راكب، وفرس سافر اللحم قليله.

والسفرة بالضمة طعام يتخذ للمسافر، وبه سميت سفرة الجلد. وفي حديث زيد بن حارثة رضي الله عنه قال: ذبحنا شاة فجعلناها سفرتنا، أو في سفرتنا، والسفرة طعام يتخذه المسافر وأكثر ما يحمل في جلد مستديرة، فنقل اسم الطعام إليه وسمي به. فالسفرة في طعام السفر كاللهنة للطعام الذي يؤكل بكرة.

وفي حديث السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: صنعنا لرسول الله –صلى الله عليه وسلم- ولأبي بكر رضي الله عنه. سفرة في جراب أي طعاماً لما هاجر هو وأبو بكر رضي الله عنه. غيره السفرة التي يؤكل عليها سميت سفرة لأنها تبسط إذا أكل عليها[1].

والسفر اصطلاحا هو الترحال والتنقل في بقاع الأرض وهو عكس الاستقرار. ومنه جاءت كلمة السفارة والسفراء والسفير وللسفر أسبابه كما أن له فوائد ذكرها

---

[1]) اللسان ، ابن منظور، 2024/3 – 25.

القرآن الكريم في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) [1].

علاقة الأسفار بالشعر الجاهلي والاستمتاع

عندما يكون الحديث عن السفر، فإن ذلك يدل على عموم الحياة الجاهلية؛ إذ ن مبدأ التنقل كان هو الدعامة التي تقوم عليها الحياة الجاهلية.

بالإضافة لوصف الإبل والخيل والصحراء وغير ذلك، أي كل ما يتحدث عنه الشعر الجاهلي، لابد أن تكون له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالمحور الذي تدور حوله الحياة الجاهلية، ألا وهو عدم الاستقرار والتنقل الدائم.

أغراض السفر

بما أن السفر من الركائز التي تقوم عليها الحياة الجاهلية فقد كان من الطبيعي أن تتعدد الأغراض مع إيراد بعض النماذج المؤكدة لوجود كل غرض على حده.

أولاً: التجارة

اتسمت الحياة في العصر الجاهلي بالبداوة مقارنة بالحضارات الأخرى التي أحاطت ببيئتهم الصحراوية فكان من الطبيعي أن يكون هناك سفر دائم بين الحضارات المتباينة لقيام مبدأ التبادل التجاري، فقد عرفت شبه الجزيرة العربية بكثرة قوافلها التجارية كتلك التي تتجه إلى اليمن شتاء وإلى الشام صيفا[2]. حتى يتم ما نسميه الآن بالاستيراد والتصدير. قد كانت رحلتا الشتاء والصيف من أكبر السفريات التجارية الموسمية وأهمها "والرحلتان المذكورتان هما من قوافل قريش أشرف القبائل العربية وسيدتها، والرحلتان من أكبر القوافل التجارية، وقد كانت القافلة الواحدةمنها تتألف من أكثر من ألف بعير"[3] وقد أكد أهمية هاتين الرحلتين

---

1) سورة الملك، آية 15.
2) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ت: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الإيمان، المنصورة مصر، ط1، ج2، 1417هـ - 1996م.
3) تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، جواد علي، دار العلم للملايين بيروت، مكتبة النهضة، ط2، بغداد ، 1976م.

ورودهما في القرآن الكريم في قوله تعالى: (لإِيـلاَفِ قُـرَيْـشٍ إِيـلافِـهِـمْ رِحْلَـةَ الـشِّتَـاءِ وَالـصَّيْـفِ) [1].

وقصة إتجار الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم- في مال السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها قبل البعثة تدل على أهمية التجارة والتنقل بين البلدان، كذلك صحبته صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب للتجارة منذ صباه دليل قاطع اشتغال القرشيين بمهنة التجارة.

هذا بالإضافة إلى رحلات الحج التي كانت تأتي سنوياً من كافة البقاع إلى البيت الحرام، كانت موسماً للتجارة بين الزائرين، فقد كانوا "يتهيأون للحج من دخول شهر شوال، فيصلحون أمورهم، ويحضرون ما يحتاجون إليه من لوازم السفر، فإذا أراد أحدهم تجارة أو كسباً ذهب إلى الأسواق حتى يهل شهر ذو الحجة[2]. فتشكلت بذلك الأسواق التجارية التي يفد إليها التجار لتبادل المنافع كسوق عكاظ) [3]. وعكاظ قرية بين نخلة والطائف كانت تقوم بما سوق تجارية عامة. قال الدكتور جواد على في ذلك: "كان الجاهليون يستعدون للحج عند حضورهم موسم سوق عكاظ، فإذا انتهت أيام السوق وأراد منهم من أراد الحج ذهب إلى ذي المجنة فأقام بها إلى هلال ذي الحجة ثم ارتحل عنها إلى (ذي المجاز)، ومنه إلى (عرفة) فإذا كان يوم التروية تزود بالماء وارتفعوا إلى عرفة. هذا بالنسبة للتجار الذين كانوا يأتون هذه المواضع للتجارة) [4].

والحج عند الجاهليين أيضاً للبيت الحرام، فهم يحجون إلى أصنامهم التي كانت موجودة داخل البيت وهي كثيرة منها على سبيل المثال: (ود، سواع، يغوث، ويعوق، ونسرا. وأكبرها هبل واللات والعزة) فقد وجد يوم فتح مكة أكثر من ثلثمائة صنم حطمها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كلها بيديه الشريفتين.

والجاهلي يجد متعة في كل الأسفار، وبخاصة سفر الحج، والدليل على ذلك الاستعداد له من راحلة وزاد للسفر وحفظ الأشعار، ويذاع في سوق عكاظ كل في

---

[1]) سورة قريش، آيات ، 1، 2.
[2]) المفضل ، جواد علي، 35/7.
[3]) المصدر نفسه، ص 371.
[4]) المصدر السابق، 353/6.

مجاله شعراً أو نثراً أو خطب أو وصايا، فقد ذكرت خطبة قس بن ساعدة الأيادي في سوق عكاظ وقد كانت من أجود الخطب تدل على العظة والاعتبار، وتثبيت أشياء لابد منها في الخطب إلى اليوم. وقس هذا من الموحدين ولو أدرك الإسلام لأسلم.

بهذا نجد أن التجارة كانت تشكل اتصالاً إما داخلياً بين القبائل المختلفة أو خارجيا بين العرب والروم أو الفرس، وهذا الاتصال الذي أحدثته التجارة يؤكد أنها كانت غرضاً من الأغراض التي من أجلها كان السفر.

قال تعالى: (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق* ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير)[1].

والجاهليون يستمتعون برحلة الحج وعند وصولهم البيت الحرام كذلك يستمتعون بالطواف بالبيت من أجل أصنامهم ويتبركون بها كي تقربهم إلى الله زلفى وكما يستمتع المقيم بمكة يستمتع أيضاً بموسم الحج، فنجد القرشيين لثرائهم من التجارة واتصالهم بالأمم المتحضرة كانوا يحكمون مكة حكماً أدق وأنضج من هذا النظام البدوي السائد، فقد وضع قصي في القرن الخامس الميلادي أساس هذا النظام الجديد فجمع شتات القرشيين، ووحد كلمتهم، وأخذ ولاية البيت الحرام، وجدد بناء الكعبة، وبنى دار الندوة. وقسم المهام ومنها[2]:

أ/ **السفارة:** وهي لبنى عدى ونهض بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكانت إليه السفارة في الجاهلية والتوسط بين قريش وغيرها في الحرب والسلم معاً.

السقاية: في بني هاشم ويقوم بها العباس رضي الله عنه. (والسقاية في الحياض التي كانوا يملأونها بالمياه ويحملونها بشيء من التمر والذبيب والشعير ليشرب منها الناس إذا وردوا مكة).

---

[1]) سورة الحج، آيات 27، 28.

[2]) العقد الفريد، ابن عبده ربه، 249/1.

ب/ الرفادة: هي الطعام الذي كان يضع للحجاج على سبيل الضيافة فهؤلاء يستمتعون أشد الاستمتاع بسقاية الحاج ورفادته من أكل وشرب. فالكرم من اسمى عادات العرب ومفاخرهم. فجاء الإسلام وأقر ذلك، كما عظم فريضة الحج وجعلها الركن الخامس من أركان الإسلام. وإلى اليوم فإن سفر الحج أو رحلة الحج فهي أكثر الأسفار تعلقاً بالذهن واستمتاعاً بها وتشوقاً لها سنوياً بأي وسيلة من وسائل المواصلات – والدليل على ذلك وجود أحدى سور القرآن الكريم باسم تلك السفرية، سورة الحج.

ثالثاً: التكسب بالشعر

استحدث بعض الشعراء ظاهرة لم تكن موجودة في الشعر الجاهلي من قبل، وهي كثرة السفر والطواف بين البلدان لمدح ملوكها رغبة في نيل عطاياهم من: إبل وجياد وإماء وقيان وغير ذلك، فكان الشاعر منهم كلما احتاج إلى المال ارتحل ليبتذل نفسه في سؤال الملوك، فيمدحهم لينال منهم ما يروم، حتى أصبح التكسب بالشعر مهنة ثابتة لبعض الشعراء، وأول من سلك الطريق لهذا النوع من التجارة هو الأعشى (فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلدان)[1]، فقد كان الأعشى مسرفا في شرب الخمر واللهو والمجون ومع ذلك كان (شديد التبذير لا يبخل على صحبه ورفاقه من الفتيان يجتمعون إليه في منزله فيأكلون ويشربون الخمر) [2]. لذلك كان الأعشى في حاجة دائمة للمال فأخذ يطوف البلدان يمدح ملوكهم لينال العطايا والهبات فمدح الملوك والتكسب بالشعر إذن عنده وسيلة لغاية ينشدها واستمتاع غير مباشر للوصول للذة أخرى ألا وهي شرب الخمر وهو وأصحابه. (فراح يطوف بلاد العرب بين: الشام، والعراق، واليمن قاصراً الملوك والأشراف فيمدحهم وينال عطاءهم) [3]. فإن اجتمع لديه المال استنفذه في لذاته وعاود السفر مرة أخرى. حتى أنه وصل إلى كسرى، فقد ذكر ابن قتيبة أن كسرى سمعه يوماً ينشد[4]:

---

1) العمدة، ابن رشيق، 81/1.
2) الأعشى، ديوانه، ص 23.
3) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.
4) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، 180/1.

أرقت وما هذا السهاد المؤّرقُ   وما بي من سقم ومابي معشَقُ

فطلب كسرى أن يفسروا له ما قال فقالوا له: إنه سهر من غير سقم ولا عشق. فقال كسرى: إن سهر من غير سقم ولا عشق فهو لص!! وهذا الخبر يدل على وصول الأعشى إلى كسرى الفرس. إن كثرة الأسفار عند الأعشى وسؤاله الملوك بمدحه إياهم جعلت مؤلفي الأدب يعتبرونه أول من سأل بالشعر[1].

هكذا فقد كان الأعشى كثير الترحال والأسفار طلباً لجمع المال فهو القائل:[2]

وقـ ـد طفت للمـ ـال آفاقـه   عمـان حمص فاوريشلـ ـ ـم

أتيت النجـ ـاشي في أرضـه   وأرض النبيط وأرض العجـم

فبحران فالشرق من حميـ ـ ـر   فأي مرام لـ ـ ـه لـ ـم أرم

ومعن بعد ذاك إلى حضرموت   فأوخيت همي وحينا أهـ ـ ـم

لهذا كان الأعشى مؤسساً لغرض جديد للسفر، وهو غرض التكسب بالشعر لينفقه على لذاته من خمر ولهو فيستمتع به في حياته، وقد سار على دربه كثير من الشعراء، فهو رافع لواء التكسب بالشعر، فكل من أجل غايته يتجر به.

ثالثاً: الطرد[3]

كان الطرد أو الإبعاد أو النفي من أساليب العقاب الرادعة عند الجاهليين فنجدهم يطردون من القبيلة من يخالف التقاليد فيخرجونه من مضارب الخيام. والمطرود من أكثر الناس سفراً وتجوالاً بين القبائل وكثير منهم يجد المتعة في ذلك التنقل.

رابعاً: الفرار

إذا كان الطرد من الأغراض المؤدية للسفر والترحال –ذلك لقيام المطرود بفعل غير مقبول، وبذلك يحكم عليه بالطرد من القبيلة- فقد يقوم الفرد بنفس الفعل غير المقبول ويدرك أن سادته عملوا بذلك الفعل، وينزلون عليه أشد العقاب، فتدخل

---

[1]) العمدة، ابن رشيق 81/1.

[2]) الأعشى، الديوان، ص 48.

[3]) الطرد: الإبعاد، ويقال رجل مطرود وطريد، أنظر: ابن منظور، لسان العرب، مج4، مادة (طرد)، ص 62   265,

الرهبة والخوف قلبه، فيفضل الفرار من القبيلة، وبذلك أصبح الفرار من السباب التي تؤدي إلى السفر والإرتحال والتنقل بين القبائل.

ونجد أن النابغة خير من يمثل هذا الغرض من الارتحال والسفر فقد اتصل النابغة الذبياني بالنعمان بن المنذر بن قابوس ملك الحيرة فمدحه، ونال عطاءه وصار مقرباً منه.

قال يمدح النعمان بن المنذر[1]:

فإنك كالليل الذي هو مـ ـدركي   وإن خلت إن المنتأي عنك واسع[2]

خطاطيف حجن من حبال متينة   تمد بها أيـ ـد إليك نـ ـ ـوازع[3]

ولكن مع مرور الوقت ساءت العلاقة بينهما، "النعمان بن المنذر والنابغة، فهدر الأول دم الثاني.

واختلفوا في سبب توتر العلاقة بينهما، فذكر قوم أن النابغة هجا النعمان[4] وقيل: السبب أن النعمان قال للنابغة – وكانت المتجردة امرأة النعمان موجود- صفها لي في شعرك، فوصف جميع أعضاء جسمها حتى بطنها وروادفها وكل عضو في جسمها. فقال المنخل- وهو أحد ندماء النعمان وعشيق المتجردة[5]- ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلا من جرب، فوقر ذلك في نفس النعمان، ولما بلغ ذلك النابغة خاف غضب النعمان ففر هارباً إلى غسان فمدحهم ونال جوائزهم ورعى مصالح قبيلته لديهم[6].

فغضب النعمان بن المنذر من ذلك لوجود العداوة بينه وبين الغساسنة، فأرسل النعمان للنابغة يخبره أنه لو صار إلى قومه لكان ذلك خيراً له[7]. وفي أثناء ذلك كان النابغة يكتب إعتذاراته للنعمان بن المنذر وينفي عنه ما يقال من هجائه له.

---

1) النابغة، ديوانه، ص 57.

2) أي: لا مفر له من وجه النعمان.

3) خطاطيف: جمع خطاف: وهو عبارة عن جديدة هجناء، أي معوجة في جانبي البكرة، فيها محور، نوازع: جوازب.

4) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، 99/1.

5) المصدر نفسنه، ص 100.

6) النابغة (زياد بن معاوية بن ضباب)، ديوانه، تقديم وتبويب وشرح د. عليأبو ملجم، ط1، دار مكتبة الهلال، بيروت، ص7، 1991م.

7) الشعر والشعراء، 101/1.

خامساً: الصعلكة

الصعلكة أو الفقر من الأشياء التي تؤدي إلى السفر والارتحال. فيجدون في ذلك المتعة بالتمرد. على حياة القبيلة. والصعاليك منهم شعراء مشهورين كالشنفرى وتأبط شراً وغيرهم كما أسلفنا في باب سابق ولهم رابطة باسمهم، ولهم صفات يعرفون بها كطول الجسم، وسرعة العدو والجري. وتقوم حياتهم على السفر والترحال، والسلب والنهب وفي ذلك يجدون المتعة والدليل على ذلك أشعارهم التي قيلت في السلب والنهب، وحتى في بعض المناطق من بلادنا نجد الهمباتة وهذه الهمبتة يجدون فيها المتعة والفخر، والدليل أنهم غير محتاجين.

وأغراض السفر أو الارتحال التي ذكرناها سابقاً إنما هي نماذج قليلة مقارنة بتلك الأغراض التي كان يقوم من أجلها السفر كالسفر كالعبيد، وطلب الثأر أو الهروب منه، وارتحال القبيلة عن أرضها للجدب.

بعض العادات والمعتقدات المرتبطة بالسفر:

1/ الرتم: من عادات الجاهليين عند السفر أن يعقد المرتحل عند رحيله شجرتين أو غصنين يعقدهما غصن على غصن، فإذا ظلت امرأته على عهده ولم تخنه وجد الغصن- عند مجيئه من السفر-معقودا كما تركه، وإذا وجد قد إنحل فقد خانته عند غيابه عنها[1].

2/ قيافة الأثر: عرفت قيافة الأثر بأنها الإستدال بالإقدام والحوافر والخفاف، والقيافة اختص بها قوم أرضهم ذات رمل، وإذا هرب منهم هارب وارتحل عنهم تتبعوا آثار أقدامه حتى يقبضوا عليه، والقائف[2] يستطيع أن يفرق بين أقدام الرجل من المرأة والشاب من الشيخ[3].

ومن أشهر القصص التي وقعت فيها قيافة الأثر قصة خروج النبي –صلى الله عليه وسلم- في رحلته من مكة إلى المدينةمهاجراً، فقد تتبع القائف أثار النبي –صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ووصل به المنتهى إلى

---

[1]) اللسان، مادة (رتم) ، 157/3، ثم انظر: معجم البلدان، معجم البلدان، ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبيدة ياقوت بن عد الله)، تصحيح وترتيب؛ أحمد الأمين الشنقيطي، ج4، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1324هـ 1906م، ص 225.

[2]) القائف: الذي يعرف الآثار. ابن منظور، لسان العرب، ج5، مادة (قوف)، ص 3776.

[3]) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها.

غار ثور، ثم ذكر أن الآثار انتهت. حيث مدخل الغار. ولم تصدقه قريش لوجود نسيج العنكبوت وبيض الحمامة وكان ذلك حماية من الله عز وجل للرسول –صلى الله عليه وسلم- وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

3/التطير[1]**:** كانت العرب تتطير بأشياء كثيرة كالعطاس، وسبب ذلك التطير أن دابة تسمى العاطوس يتطيرون بها، أي يتشاءمون منها.

قال طرفة بن العبد[2]:

لعمري لقد مرت عواطس جمة ومرقبيل الصبح ظبي مصمع

وكانوا كذلك إذا أرادوا السفر يخرجون يغلس[3] والطير لا زالت في أوكارها. وقد يتطيرون كذلك من الغراب الأسود في سفرهم قال النابغة[4]:

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسود

4- الوداع: يودع الناس بعضهم بعضا قبل السفر، والمسافر يودع أهله ليخلفهم خافضين، وهم يودعونه تفاولاً بالدعة التي يصير إليها إذا سافر. وأصعب لحظات الوداع –عند الجاهليين- وداع المحبوبة إذ أنهم لا يستطيعون تحمل هذه اللحظات. كقول الأعشى[5]:

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجـ ـل

ولحظات الوداع دائما ما تنتهي بالبكاء وتأسفا على رحيل المحبوبة كقول امرئ القيس[6]:

كأن غداة البين يوم تحمـ ـوا لدى سمرات الحي ناقف حنظل[7]

وقال الصفي الحلي:

تنقل فلذات الهوى في التنقـ ـ ل ورد كل صافٍ لا تقف عند منهل[8]

---

1) التطيّر: التشاؤم، انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص 2736.
2) طرفة بن العبد، ديوانه، ص 95.
3) الفلس: أول الصبح حتى ينتشر في الآفاق. ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص 3281.
4) النابغة، الديوان، ص 139.
5) الأعشى، الديوان، ص 278.
6) أمرؤ القيس، الديوان، ص 9.
7) غداة البين: صبيحة الفراق، تحملوا: ارتحلوا ، السمرات:جمع سمرة وهي شجرة الطلح، لدى: عند، الناقف: من نقف الحنظل شقه عن حبه والناقف تدمع عيناه لمرارة الحنظل.
8) ورد: أقصد وأم:
المستظرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد بن الفتح الأبشيهي، شرحه ووضع هوامشه د.مفيد محمد قميحة، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص 303، بدون (ت).

ففي الأرض أحباب وفيه منازل   فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل
ولا تسمع قول امرئ القيس أنه   مضل ومن ذا يهتـدي بمضلـل

كذلك السفر قد يكون لابد منه إذا ضاقت الأرض بصاحبها وتنكرت له وقيل في ذاك:

إذا البلاد تغيرت عن حالهـا   فدع المقام وبادر التحويـ ـ ـلا
ليس المقام عليك فرضا واجبا   في بلدة تدع العزيز ذليـ ـ ـلا

كما يقولون فلان لا يضع العصا عن عاتقه كناية على كثرة السفر والترحال وهذا هو الذي وجد في السفر متعته.

وللسفر فوائد عدة مهما كانت المشقة ويقول في هذا

تغرب عن الأوطان في طلب العلا   وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفريج هم، واكتساب معيشـ ـ ـة،   وعلم، وآداب، وصحبة ماجـد
وإن قيل في الأسفار ذل ومحنـة   وقطع الفيافي واكتساب الشدائد
فموت الفتى خير له من حياتـ ـه   بدار هوان بين واشٍ وحاسـد
الكحل نوع من الأحجار أجمعـه   وصار يحمل بين الجفن والحدق

وفي الأثر: سافروا تغنمو، ويقال الحركة ولود والسكون عاقر ومما جاء في الحنين إلى الوطن: فمحبة الوطن مسئولية على الطباع مستدعية أشد الشوق إليها، روي أن أبان قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبان كيف تركت مكة؟ فقال: تركت اذخر وقد أعذق واللمام وقد أورق، فأغرورقت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بلال رضي الله عنه:

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة   برادٍ وحولي أذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه محنـة   وهل يبدد لي شامةٌ وطفيل

وقيل من علامات الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقة وإلى مسقط رأسها مشتاقة.

ذم السفر: ومما جاء فيه ذم السفر، قيل لرجل السفر قطعة من العذاب، فقال : بل العذاب قطعة من السفر، وقال بعضهم:

كل العذاب قطعة من السفـر		يا رب فارددنا على خير الحضر[1]

[1]) المصدر السابق، باب ما جاء في الأسفار والاغتراب وما قيل في الفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه.

المبحث السادس

الشعـــر

إن الظروف التي أحاطت بحياة العرب في الجاهلية، هيأت جواً مناسباً لحدوث الخصومات والمنازعات ونشوب الحروب والقتال.

ولكن هذا لا يمنع أن تكون للجاهلي أوقات يخلو فيها إلى نفسه، يعزف على أوتاره أنشودة حب نشأ على نبع ماء قصده ليروي عطشه، ويسقى قطعانه، فيلتقي مع فتاة ترعى غنمها، أو ترد الماء فيرتويان بندى الحب. ويكون لهذه العاطفة ذكريات تساعد على ابقائها حية تحدد مع المواسم.

ومن هنا كان لابد أن يكون للجاهلي ساعات من الفراغ يجد فيها وقتاً للذة والمتعة والسرور، مع الموسيقى والغناء والرقص، وإنشاد الشعر، وقص الحكايات عن الشراب واللهو ولعب الميسر والعبث والتغزل، ووصف الظعائن.

قيمته

كل ما قالت العرب من شعر لم يأت من فراغ مهما كان غرضه، مدحاً، أو فخراً أو هجاء فهو ذو قيمة كبيرة لدى القبيلة يرفع من شأنها ويحط من أعدائها.

الشعر في الجاهلية كما قال عنه أبو هلال العسكري "ديوان العرب يصور آمالها وآلامها، ويصف حياتها بكل ألوانها ومشاهدها أو دعوة وقائعهم ومفاخرهم، وذكروا فيه أحسابهم وأنسابهم ودونوا فيه آثارهم وأيامهم وذكرياتهم. والقصيدة عند العرب هي أبقى على الدهر من كل عمر، وأخلد من كل أثر، ولا ريب أن هذه سنة العرب في تخليد مآثرهم[1].

يقول ابن سلام الجمحي: "وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم، ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون..."

كل أمة تعتمد على استيفاء مآثرها، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وكل ذلك هو ديوانها[2].

---

[1]) أدبنا العربي في عصر الجاهلية، حسين الحاج حسين، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، ط2، 1410هـ - 1990م، ص159.

[2]) المرجع نفسه، ص 160.

كان للشعر سحره، وروعة تأثيره في نفوس العرب في الجاهلية، وكان الشاعر صوت القبيلة، ولسان حال القوم، والزائد الحامي الذمار والمدافع عن الأحساب والأنساب والشرف الناطق بالحجة والبرهان، والداعي إلى الخير في كل نازلة.

هذا أعطى الشعراء مكانة وقيمة كبيرة بين أفراد القبيلة، وحسبك من مكانة الشعراء والشعر عندهم، إنه لما بعث الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم- بالقرآن الكريم المعجزة والمحكم في تأليفه أدهش قريش ما سمعوه، فقالوا: ما هذا إلا سحر. وعن النبي –صلى الله عليه وسلم-: إنه شاعر نتربص به ريب المنون[1].

ومن مظاهر تقديرهم الشعر كانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل المجاورة وهنأتهم فصنعت المآدب، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنع في الأعراس، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبع أو فرس تنتج[2].

ونجد من الشعراء عدد خلدت ذكرهم كتب الأدب حتى اليوم دون غيرهم من أصحاب المال والسلطان.

قال دعبل: "كان أمرؤ القيس من أدباء الملوك، وكان من أهل بيته وبني أبيه أكثر من ثلاثين ملكاً فبادوا وباد ذكرهم وبقى ذكره إلى يوم القيامة. وإنما أمسك ذكره شعره"[3].

وكان لكل قبيلة شاعرها يزود عنها، ويناضل عن شرفها ويساجل خصومها وينازلهم في كل مجال، وكانت العرب أمة يسحرها البيان وتروعها البلاغة، ويعجبها الشعر الجيد البليغ، وعند خصومها، يشفع فتقبل شفاعته.

كان الشعر عظيم المكانة، سامي المنزلة في نفوس الناس وكان لأهله هيبة أي هيبة وإجلال أي إجلال، فقد رفع كثيرا من الناس ما قيل فيهم من الخمول

---

1) المرجع السابق ، والصفحة ذاتها.

2) المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

3) المرجع نفسه والصفحة.

والإطراح، حتى افتخروا بما كان يعيرون به، ووضع جماعة من أهل السوابق حتى عيروا بما كانوا يفتخرون به ودنى وقرب جماعة، كانوا بعيدين عن العز[1].

لقد أنشد الحارث بن حلزة قصيدته:

آذانتنا ببينها أسمـاء   رب ثاو يمل منه الثواء[2]

بين يدي عمرو بن هند، وكان ينشده من وراء سبعة ستور – وكان به برص- فما زال يرفعها حجابا حجابا لحسن ما يسمع حتى لم يبق بينهما حجاب ثم أدناه وقربه.

فمن رفعه ما قيل فيه من الشعر بعد الخمول، المحلق، وذلك عندما قدم الأعشى مكة، وتسامع به الناس، وكان للمحلق امرأة عاقلة فقالت له: إن الأعشى قدم مكة وهو رجل مفوه ما مدح أحد إلاّ رفعه، ولا هجا أحد إلا وضعه. وأنت رجل ذو بنات فلو سبقت الناس إليه تدعونه إلى الضيافة لرجوت لك حسن العاقبة، فسبق إليه ونحر له وسقاه وبالغ في إكرامه، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته:

أرقت وما هذا السهاد المؤرق   وما بي من سقم وما بي من تعشق

والمحلق واقف مع الناس يستمع وهو لا يدري ماذا يريد الأعشى بقوله، إلى أن قال:

نفى الذم عـن آل المحلـق جفنـه   كجابية الشيـخ العراقي تفهـق[3]

ترى القوم فيهـا شارعين وبينهـم   مع القوم ولـدان من النسل دردق[4]

لعمـري لقـد لاحـت عيـون كثيرة   إلى ضوء نـار البقاع تحـرق

تشـب لمقـرورين يصطليانهـا   وبات على النار النـدى والمحلـق

وترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه   كما زان متن الهندوانـي رونـق

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته، فلم تمس واحدة منهن إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف[5].

---

1) الأدب العربي في الجاهلية والإسلام، ص 231.

2) شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، ص 368.

3) الجفنة: هي أعظم ما يكون من الفصاع. والجابية: الحوض الكبير الذي يضع فيه الماء.

4) الدردق: الأطفال، شارعين: متناولين.

5) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، ص 231.

نجد أن عنترة لم يلحق بنسب والده إلا بعد أن قال الشعر وافتخر بقومه حتى باتت تهابهم العرب. وعبيد ابن الأبرص الذي لم يكن معروفاً وقد كان فقيراً فخلد ذكره بعد أن قال الشعر.

والنابغة الذبياني أنشد الشعر كبيراً وقبلها لم يكن صاحب صوت ولا معرفة، وزهير الذي كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه ولا يعاظل ولا يقول السوقي من الشعر، ظل محل احترام حتى أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد حكم له بذلك.

عليه يمكن القول إن الشعر كان ذا قيمة لدى العرب وخاصة المعلقات التي كتبت بماء الذهب وعلقت على الكعبة لقيمتها ومكانتها وتعود تسمياتها في السموط القلائد وهذه من النفائس، ذلك شأن الشعر ومكانته الاجتماعية والأدبية وقيمته وتأثيره في حياة العرب وبخاصة المعلقات.

تعريفها في اللغة

علّقَ الشيء بالشيء، وعليه ومنه جعله معلقاً به، أعَلقَ القوس جعل له عِلاقة تُعلّق بها، وعلّق الصائد: علّق الصيد بحبالته.

العِلاقّة: الجمع علائق: ما تَعلّق به القِدر ونحوها ويقال: عِلاقة السيف، والسوط، والقوس، وما تَعلّق بالأشجار من ثمر.

والمعلقة: مؤنث والمعلق: وهي المرأة التي فقدت زوجها فهي لا متزوجة ولا مطلقة ومنها المعلقات[1].

علقتْ منه كل معلّق: أي أحبها وشُغِفَ بها، يقال عِلِقَ بقلبه علاقة: كل شيء وقع موقعه، والعلاقة: الهوى والحب اللازم للقلب، ويقال عِلِقها علقاً، بها علوقاً وتَعلّقها وتعلق بها، وعلق بها تعليقاً: أحبها وهو معلّق القلب، قال الأعشى:

علقتها عرضاً وعلقت رجلاً غيري   وعلق أخرى غيرها الرجـ ـلُ

---

[1]) المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت ط27، 1984، ص 256.

ويقال علقتُ فلانة علاقة: أي أحببتها، وعلقت هي بقلبي: تشبثت به، والعلاقة: ما علقت به الشيء ومنه، وتعلق الشي: علقه من نفسه والمعلقة: متاع الرامي[1].

والمعلقات من العلق، جمع أعلاق وعلوق: وهي النفيس من كل شيء تعلق القلب به.

أما لفظة معلقة بالمعنى المتعارف عليه قديماً وحديثا لم ترد في القرآن الكريم، ولا في الحديث الشريف، وإن وردت بمعنى آخر، قال تعالي: (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً)[2].

المعلقة من النساء هي التي تركها زوجها فهي لا متزوجة ولا مطلقة[3].

في الاصطلاح

هي قصائد طوال اختيرت من الشعر الجاهلي وذلك لجودتها ومتانتها وجمال أسلوبها.

تسميتها وعددها

وتسمية المعلقات وعددها ففيه اختلاف كبير، فإن ابن الكلبي وابن عبد ربه، يسميانها معلقات، وابن الأنباري وابن قتيبة يسميانها القصائد السبع، أو السبع الطوال، والمفضل الضبي وابن رشيق يسمونها السموط أو القلائد، وهؤلاء جميعاً يتفقون على أنها سبع معلقات: لامرئ القيس، وطرفة بن العبد، زهير ابن أبي سلمى، ولبيد بن ربيعة، وعمرو كلثوم، وعنترة بن شداد والحارث بن حلزة[4].

لكن أبا زيد القرشي وافق إجماع الرواة على أنها سبع لكنه يخرج الحارث بن حلزة، وعنترة بن شداد، ويضيف النابغة والأعشى في حين أن التبريزي يجمع بين رأي المجمعين ورأي القرشي ثم يضيف إليهم عبيد بن الأبرص فيصبح عددها عشراً.

---

1) اللسان، مادة أعلق، ص 61.
2) سورة النساء، آية 129.
3) المنجد في اللغة والأعلام، ص 256.
4) شرح المعلقات العشر، أحمد الأمين الشنقيطي، دار الكتاب العربي ، بيروت، 1988م، ص 9.

وأول من أشار إلى لفظ معلقات هو ابن الكلبي وذلك في معرض قوله: "إن أول شعراً علّق في الجاهلية شعر أمرؤ القيس، علق على ركن من أركان الكعبة..."

ولكن ابن عبد ربه فصل القول فيه فقال: "حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له، إن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب على القباطي[1] المدرجة وعلقتها على أستار الكعبة فمنه يقال مذهبة امرئ القيس، ومذهبة زهير، والمذهبات السبع وقال يقال المعلقات"[2]. والمعلقات سبعة قصائد من أشهر الشعر الجاهلي جعلت في الطبقة الأولى من "جمهرة أشعار العرب"[3].

ومن هذا نخرج إلى أن الراجح هو المذهبات؛ لأنها كتبت بما الذهب، وإن تسميتها انتزعت من تعليقها على الكعبة.

وقد أيد خبر بن عبد ربه، ابن رشيق القيرواني، وابن خلدون وعبد القادر البغدادي في حين أنكره النحاس وابن الأنباري وبعض المحدثين وحجج المنكرين عديدة منها:

1- إن الخبر وصل مبهما غامضا لم يبين كيفية التعليق ولا زمانه، ولا الملوك الذين أمروا بتعليقها.
2- إن الشعر الجاهلي بلغ مبلغاً فلماذا لم تعلق إلا هذه القصائد علماً أن الجيد منها كثير وإن تلك الأشعار لو علقت لبقيت معروفة ولم يختلف أحد في عددها أو رواية أبياتها.

يرى بعض المتقدمين من أدباء العرب أن هذه القصائد التي جمعها حماد الرواية سميت المعلقات لأنها علقت على الكعبة تعظيماً لأمرها وتنبيها على خطرها، ودلالة على مكانتها من الفضل، ومنزلتها من الرفعة، وجلالة الشأن ونفاسة القيمة.

هذا وقد رأينا فيما نقلنا من أقوال المعارضين لخبر التعليق حملة عنيفة عليه، والأمر أهون من أن تحمل عليه هذه الحملة.

---

[1]) القباطي: جمع قبطي، نسبة إلى قبط مصر، هي ثياب كانت تنسج في مصر.
[2]) شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، ص 7.
[3]) المنجد في اللغة العربية والأعلام، ص 675.

فالعرب كان من عاداتهم إذا أرادوا أن يوثقوا أمراً أو يؤكدوا عهداً كتبوا به كتابا وعلقوه في جوف الكعبة تعظيما لشأنه، أليسوا عاهدوا على مقاطعة بني هاشم... وكتبوا بذلك وثيقة وعلقوها في جوف الكعبة توكيداً لهذا الأمر[1].

والذي نستطيع أن نخلص إليه أن هناك قصائد منتقاه أجمع الرواة على فحولها ورفعة قيمتها عن جميع ما أثر عن العرب من شعر، وأنهم سموا هذه القصائد بالطوال أو المعلقات أو المذهبات، أو السموط[2].

وعند الإطلاع عليها تلحظ قوة السبك وجودة العبارة، سمو الأسلوب والتصوير الرائع.

فأما من ناحية عددها، هل هي سبعة قصائد أم عشر قصائد فهناك خلاف كبير، وما يمكن أن نقول أن ابا زيد القرشي وافق إجماع الرواة على أنها سبعاً ولكنه أخرج عنترة والحارث، وأضاف النابغة والأعشى وهذا يدل على أن اتفاق الرواة على عددها وأصحابها ليس دقيقاً وفي رأي أن إضافة الأعشى والنابغة بديلين لعنترة والحارث وإكمال العشرة بدخول عبيد بن الأبرص هو رأي راجح خاصة أن ما أثر عن أشعار النابغة والأعشى من قوة وجزالة يقوي ذلك. وعليه سوف نتحدث في هذا المبحث عن الشعر ومتعته

طبقات الشعراء

حاول الشعراء من قديم أن يحكموا بين الشعراء، وأن يقدموا بعضهم بعضا، ولقد قضى جماعة منهم لامرئ القيس بالشهرة والتقدم نظراً لأوليته وسبقه، وقضى غيرهم للنابغة اعتماداً على ديباجته واستوائه. بينما تعصب آخرون للأعشى. وقالوا: إنه أكثرهم طويلة جيدة وفضل بعضهم زهيراً لكثرة حكمه، ولأنه لا يعاظل ولا يتبع حوشي الكلام ولا يمدح أحداً بغير ما هو فيه.

ولكل واحد من هؤلاء نظرته من الناحية التي ترتاح إليها نفسه ويتعلق بها إعجابه.

وقد قسم أبو عبيدة معمر بن المثنى شعراء الجاهلية إلى ثلاثة طبقات:

---

[1]) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، عبد الحميد محمد المسلوت، الجامعة الليبية، ط1، 1973م.

[2]) السموط: من القلائد: ما يعلق على الصدر.

1- أمرؤ القيس، زهير، والنابغة.

2- طرفة، لبيد، والأعشى.

3- عنترة ، عمرو بن كلثوم، وحاتم الطائي.

ويقسم بعض العلماء الشعراء من حيث عصورهم إلى أربع طبقات:

1- الجاهليون: وهم الذين عاشوا في الجاهلية ولم يدركوا الإسلام مثل: امرئ القيس، ولبيد وزهير.

2- المخضرمون[1]: وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام مثل: النابغة، الحطيئة، وحسان بن ثابت.

3- الإسلاميون: وهم الذين نشأوا في الإسلام إلى آخر عهد الدولة الأموية.

4- المولدون: وهم الذين نشأوا بعد ذلك حين فسدت السلائق واختلجت الألسن، وضعفت الطبائع من كثرة الاختلاط وشدة المداخلة للأعاجم[2].

قال أبو عبيدة: بلغني أن رجلاً من أهل البصرة أنه حج قال: فإنني لأسير في ليلة مضيئة، إذا نظرت إلى رجل شابٍ راكب على ظليم قد ذمه بخطامة وهو يذهب عليه ويجئ وهو يرتجل ويقول:

هل يبلغنيهم إلى الصباح   هقل كأنه رأس حجاج

قال فعلمت أنه ليس بأنسي، فاستوحشت منه فتردد علي ذاهباً وراجعاً حتى آنست به، فقلت من أشهر الناس يا هذا؟

قال الذي يقول:

وتبرد برد رداء العروس   بالصيف رقرقت فيه العبيرا

قلت من يقوله؟ قال الأعشى ثم ذهب به.

ويقول صاحب الأغاني أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال: قال لي: يحيى بن الجو إلى رواية بشار: نحن حالة الشعر في الجاهلية والإسلام ونحن أعلم الناس به، أعشى بن قيس بن ثعلبة أستاذ الشعراء في الجاهلية.

---

1) المخضرمون: يقال ماء خضرم: إذا تناهى في الكثرة والسعة، وسمي الرجل المخضرم مخضرماً إذا شهد الجاهلية والإسلام كأنه استوفى الأمرين.

2) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، ص 312.

قال الشعبي: الأعشى أغزل الناس في بيت، وأخنث الناس في بيت، وأشجع الناس في بيت.

فأما أغزل في بيت فقوله:

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهوينا كما يمشي الوجى والوحل

وأما أخنث بيت فقوله:

قالت هريرة لما جئـت زائرها ويلي عليك وويلي منك يـ ـا رجـ ـل

وأما أشجع بيت فقوله:

قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنـا أو تنزلون فإنـ ـا معشـ ـر نـ ـ ـزل

أخبرني الحسن بن علي أن حماد الرواية سئل عن أشعر العرب قال:

الذي يقول:

نازعتم قضب الريحان متكئـاً وقهوة مزة راووقها خضـ ـ ـلُ

ويقصد الأعشى[1].

يقول صاحب الأغاني:

زهير هو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء وإنما اختلف في تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه، فأما الثلاثة فلا اختلاف فيهم وهم امرئ القيس، وزهير، والنابغة الذبياني.

قال الجوهري: عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة مسيرة إلى الجابية: أين ابن عباس، فأتيته.. ثم قال: هل تروي لشاعر الشعراء؟ قلت ومن هو؟ قال الذي يقول:

ولو أن حمداً يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلـ ـد

قلت ذاك زهير قال: فذاك شاعر الشعراء، قلت: وبم كان شاعر الشعراء؟ قال: لأنه لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه.

قال الأصمعي: لا يعاظل بين الكلام أي يداخل فيه، ويقال: يتبع وحشي الكلام، ووحشي الكلام والمعنى واحد[2].

---

1) الأغاني ، أبي الفرج، 130/9.

2) المصدر نفسه، 336/10.

ومن هذا نخلص إلى أنه ليس هناك معايير محددة ومتفق عليها لتفضل شاعر على الآخر، بل كان الحكم معظم العلماء والنقاد يرون أن شعراء الجاهلية عموماً هم الطبقة الأولى في الشعر العربي ثم يليهم شعراء العصور الأخرى.

عليه لا يمكن أن نتجرأ ونحكم لشاعر جاهلي ووضعه في طبقة أعلى وآتي بآخر في طبقة أخرى دون أي معايير وموازنات أدبية.

والشاعر الجاهلي يستمتع بقول الشعر في كل أغراضه من غزل ووصف وفخر ومدح حتى الهجاء يجد فيه المتعة سواء بتقدير الناس له أو بالترويح عن نفسه. والجاهلي لا يتحرج في أي قول فنجده في شعره وفي وصفه يصف وصفاً يستحي غيره من قوله، ويزعمون أن للشعر شيطان يأتي لهم به، لذلك يقولون: شيطان الأعشى وشيطان أمرؤ القيس وشيطان عنترة وغيرهم، كما زعموا أن هذه الشياطين تسكن في وادي عبقر في الجزيرة العربية. لذلك عندما جاء الإسلام حرم الشعر الفاحش الذي يكشف عن العورات، وحبب الرسول صلى الله عليه وسلم في الشعر الإسلامي الذي يدعو إلى الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة. ومن أشهر شعراء عصر النبي الكريم –صلى الله عليه وسلم- وخلفائه رضي الله عنهم، حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وعبد الله بن رواحة، شعراء الجهاد. "جهاد الكلم" فنزل قول الله عز وجل: (والشعراء يتبعهم الغاون* ألم تر أنهم في كل ود يهيمون* وأنهم يقولون ما لا يفعلون* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)[1].

وفي حديثنا عن اهتمام العرب بشعرهم وشعرائهم لابد أن نحط رحلها عند الملوك والأفراد، فهم ليسوا بمعزل عن أبناء القبيلة في استماعهم للشعر والعناية به واختيارهم لما جاد من شعر تلك الفترة، واهتمامهم به حتى بلغ ذروته عند الملوك الذين كانوا له إذن واعية ذواقة للأدب يعشق بها الشعر ويطرب له، ويأمر بحفظ هذه الأشعار في خزائنه، وابن رشيق من الذين كان لهم سهم رفيع في تلك الكتابة:

[1]) سورة الشعراء، آيات 224، 225، 226، 227.

(كان الملك إذا استجيد قصيدة الشاعر يقول علقوا لنا هذه لتكون في خزائنه، هذا دليل واضح على تدوين الشعر في الجاهلية وإن كان عشره.

وأهمية الشعر والشاعر أكدتها مجادلتهم للرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم- فوصفوه بأنه شاعر تتربص به ريب المنون، وكذلك وصفوا القرآن بأنه شعر؛ وذلك لأن شعرهم كان على قدر من الجودة، والفصاحة، والبلاغة، وكذلك كان القرآن الكريم بديع اللفظ كريم المعاني، حسن النظم، غير أنه ليس من قول البشر. وكل هذا يدل على مكانة الشعر، ولكنه صلى الله عليه وسلم- ما كان شاعراً، والذكر الحكيم قد حكم بذلك في قوله تعالى: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين)[1]. ونفى الشاعرية عن الرسول –صلى الله عليه وسلم- لا يقلل من قيمة الشعر، وإلا كانت أميته قللت من قيمة الكتابة، التي ورد ذكر أهميتها في القرآن الكريم في قوله تبارك وتعالى: (ن والقلم وما يسطرون) [2] وكذلك في قوله: (إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق* إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم* علم الإنسان ما لم يعلم)[3].

ومن كل ما سبق من قول نخلص إلى أن تهاني القبائل بمولود الشاعر، وتعليق الشعر على أستار الكعبة، وروايته من أقارب الشاعر وقبيلته، وتدوينه من الملوك، ووضعهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالشاعر في معرض المجادلة، كل ذلك دليل صادق لأهمية الشعر عند العرب يجعل تصويره للحياة العربية صادقاً وأميناً. وهذا هو الجانب الأكبر لدى الاستمتاع للشاعر الجاهلي، بجانب الترويح النفسي.

وخير مثال لذلك أمرؤ القيس عندما كان مع أبيه ذات ليلة في جلسة شرب، إذ مر الساقي بالكأس فقال أمرؤ القيس[4]:

استقيا حجراً على علاتـ ـه   من كميت لونُها لون العلقْ

[1]) سورة يس، آية 69.
[2]) سورة القلم، آية 1.
[3]) سورة العلق،آيات 1/5،4،3،2.
[4]) أمرؤ القيس، الديوان، ص 194.

فغضب أبوه منه وزجره ونهاه عن قول الشعر وإلا فيقتله، فامتنع أمرؤ القيس وأصبح لا يقول الشعر إلا سراً، وهذا دلالة لمتعته بالشعر وعندما اشتد به شيطان الشعر، تنقل بشعره بين الأحياء، ولولا تمتعه بالشعر لما خلد ولو فضل حياة الملوك لما ذاع صيته، فبالشعر خُلد وبه ُأرخ للشعر.

فقد بينا فيما سبق كيف كانت الطبيعة بمنزلة الأستاذ التاريخي الذي يرجع إليه أكثر الفصل في اهتداء الإنسان إلى كثير من معارفه الضرورية الأولى، وما كان العربي إلا إنساناً كغيره من أجناس البشر، له حس وفيه عاطفة بين جنبيه نفس متأثرة تحب الجمال، وقد طال أصفاؤها لهذه الأغاني الطبيعية المترددة في أسجاع الطيور وحنين الإبل وتناوح الرياح، فما هو إلا أن حكى صداها وشدا معها وصار وتراً آخر من أوتارها، دعته تكاليف العيش في تلك البادية القاحلة إلى قطع المسافات وهو على ظهر راحلته في مثل أرجوحة الطفل، ترقصه تلك الإيقاعات المتوالية التي أخذ يلقي على ضروبها من الحانه الساذجة حداء لناقته، وأنيساً له في وحشته، إلى أن هدته تلك النفس الشاعرة على لون من الكلام المؤلف الموزون على هذه المقاطع المتساوية. فتنازعته حينئذٍ الألسنة استجلاء لموقعه، واسترواحاً للراحة من التغني به، وأوشك أن يكون صناعة آخذة كسائر الصناعات، وقد ساعد على ذلك ما في هذه النفوس العربية من لطافة الفطرة وصفاء القريحة، وقوة الاستعداد فقد كانت البادية على استعداد تلك الشاعرية، فهي –وإن خلت من الجمال المصنوع- غنية بالجمال المطبوع. فهناك يبرز القمر وضاح الجبين بساماً ويبعث أشعته الفضية للساهر والسامر فيخاب لبه، وهناك تلمع النجوم سافرات، والسكون الرهيب الباعث على التأمل، والبراح الفسيح المكتشف والحرية المطلقة، وكل ذلك يولد في نفس البدوي والانطلاق في التعبير والبوح بما في الضمير(1)، فيجد في ذلك متعته الروحية.

ولم يكن الشعر في ذلك العصر ترفاً لا يتعاطاه إلا قلة من الناس، بل كان الوسيلة الوحيدة للتعبير الأدبي –وكانت قصائد الشعراء- وهي لم تدون بمداد-

---

1) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، ص 165.

تطير عابرة الصحراء أسرع من الرياح، وتحدث أثرها العظيم في قلوب من يسمعونها. فيتغنى بها كل العرب، وأن يفوقوا فيه سائر الأمم، وأن يقوله منهم الرجال والنساء والسادة والصعاليك والرعاة واللصوص، إذ لم يعرف عنهم أنهم يميلون إلى الفلسفة أو ينشطون لتعلم العلوم أو مزاولة الصناعات، فقد كان اهتمامهم مصروفاً إلى هذا الفن الجميل من الكلام. وفيه يجدون اللذة والمتعة في التغني به.

والشعر الجاهلي هو السجل الوحيد الذي خلفه العرب الجاهليون ولعل هذا هو السبب في القول المشهور: (الشعر ديوان العرب)[1].

---

[1]) الطبيعتان الحية والصامتة، ص 32.

المبحث الأول

جمال اللغة وخصائصها

(السلاسة – المرونة والجودة)

كانت اللهجات كثيرة؛ لأن العرب شعوب وقبائل وبطون وعشائر، وفصائل متشعبة كما أسلفنا الذكر، وكان لكل قبيلة لهجة تميزها وبذلك كثرت اللهجات العربية وظهر الاختلاف بينها.

ولكنه كان في الفروع، واللهجات لا في أصل اللغة ذاتها، وكان هذا أثراً للبيئة والمعيشة والحياة والجو. ولكن لم تدون هذه اللهجات، لكن بقي ظلها في اللغة العربية. نحو(أنطى) في (أعطى).

وقد مرت هذه اللغة بأطوار هذبت ألفاظها ومعانيها. فقد كان لاجتماع القبائل واختلاطهم بعضهم ببعض أثر واضح في تهذيب اللغة ورقيها. ولا شك أن الحروب والتجارة والحج كان لها أثر كبير في اختلاط القبائل بعضها ببعض، وكذلك هجرة القبائل، واختلاط العدنانيين بالقحطانيين. وأيضاً الحج من بين هذه العوامل له أثر كبير في تهذيب اللغة. ولقد كان القرشيون على قسط من المعرفة والرقي الفكري، وفيهم ذوق، ولهم ملكات ناضجة. فكانوا يميزون بين اللهجات والألفاظ ويقتبسون من لهجات القبائل اعذبها، ومن ألفاظهم أسلسها وأفصحها. فهذه اللغة القرشية المضرية كانت بمثابة لغة المستعمر في البلاد المستعمرة.

ومن الاعتبارات الجديرة الذكر تأثر الملكات الأدبية بطبائع الأقاليم الجغرافية. فالإنسان تعلمه البيئة التي يعيش فيها على صورتها. فلو أن أحداً من رواة عصر التدوين تعمد أن يخرج من جلده ويفر من طبعه للعصر الجاهلي لما استطاع ذلك(1).

---

[1]) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، محمد هاشم عطية، ص

1/ أثر البيئة في المفردات

أ/ الطبيعة الجامدة

عند التمعن في الجرس الصوتي للمفردات، التي تعني ظواهر محددة في بيئة الجاهلي الطبيعية، نحس بأن الجاهلي في وصفه للألفاظ شديد التأثر بما يبـدو لـه بإحدى الحواس، من ظواهر تغلب على المادة التي وضع لها اللفظ، أو الكائن الحي الذي وضع له الصوت المعبر عن حقيقته. فأتت الألفـاظ الـصلدة ذات الجـرس الرنان، والقعقعة التي تصك الأذن، في جانب الظواهر الجافة والتي تمثل الجفـاف في الوسط الطبيعي الذي هو فيه.

فنجد مثلاً عند امرئ القيس الألفاظ الآتية تعكس جانباً مـن جوانـب البيئـة الطبيعية مثل (صخر وجلمود) فنجد هذه الأصوات وكأنها صدى لصوت منبعث من طرق مسمياتها فأصغى البدوي للصدى ثم وضع الصوت متأثراً بهذا الصدى فـي الألفاظ التي أتت في قوله:

مكر مفر مقبل مدبـر معاً   كجلمود صخر حطه السيلُ من علِ[1]

وعبر لبيد العامري عن مظهر الجفاف الطبيعي بلفظ (جبل) في قوله:

بمشارق الجبلين أو بمحجر   فتضمنتها فـــردة فرخامهـا

فإن الألفاظ التي استخدمها لبيد، ليعبر عن مظهر الصلابة في بيئته الطبيعية هي: (جبل، رخام، وعندما تمعن النظر في أصوات الألفاظ التي عبر بهـا هـؤلاء الشعراء عن مظهر من مظاهر الطبيعة الصلدة، نجد هذه الأصوات لا تخلـو مـن تأثر بما هو محسوس في تلك المادة مثل (جندل، جلمود، مرداة، جبل، فـردة)؛ لأن هذه الأصوات مكونة من أغلب حروف الشدة، لذلك فإن شدة الطبيعة أثـرت فـي اختيار الشاعر بهذه الأصوات (الشاعر وليد البيئة) والتي تغلب عليها صفة الـشدة، وتتحقق في جميعها صفة الانفجار. من هنا نستطيع القول فـي أن مفهـوم كلمـة (صخر) في هذا الوسط لا تعني معنى الشدة والصلابة، لهذا فإن أكثر أصوات هذه الكلمات كانت مفهومة ورخوة كنتيجة طبيعية لإحساس الـشاعر بتلـك الظـواهر،

---

[1]) شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص 30.

ولنفس السبب عندما أراد التعبير عن معنى الشدة والقوت، وأضاف إليها لفظاً مـن الألفاظ التي تدل على هذين المعنيين مثل (مرداة صخر، وجلمود صخر) ليحقق أنه من النوع الذي منحته الطبيعة الصلابة والشدة.

ولما كان الرخام أملس معنى الملاينة[1] فإن مظهر اللين والنعومة المحسوس لدى الجاهلي أثر في اختياره لأصوات الرخاوة والتوسط، مع توسط حـرف المـد الجوفي ليضفي على الأصوات هدوء انسياب الأصوات الجوفية.

وبناء على هذا التأثر بالبيئة الطبيعية، فإن زهيراً أطلق على القطعـة مـن الرمل أصوات يتحقق فيها الرخاوة مع التوسط وليونة المد فقال (حومانة) في قوله:

أمن أم أوفى ومنة لم تكلمي　　بحومانـة الـدراج فالمتثلـم

وعنترة العبسي استخدم للبيئة الطبيعية الخرساء لفظ (الحـزن) واسـتخدمه عمرو بن كلثوم مقابلاً للفظ (السهول) فإذا كانت الحزون أو الحزن تقابل الـسهول فإن لا يخفى علينا تأثر الجاهلي بهذا الفرق فأتت أصوات كلمة (حـزن وحـزون) جهرية في جملتها. وأصوات كلمة (سهل) يغلب عليها الصوت الهامس.

ب/ البيئة الطبيعية المتحركة

أما أثر البيئة الطبيعية الحية في الألفاظ، فإننا نلمسه في ألفاظ مثل (حنظـل واسحل) فهذا الجزء من الطبيعة يمثل الحركة فلابد من أن تمثل النفس له يختلـف سابقه فإذا وازنا بين الكلمات الآتية حنظل واسحل فإننا نجد الصوت الجهري يغلب على كلمة حنظل.

كل هذا يوحي بتأثر نفسية الجاهلي بتفاوت الصلابة واللـين فـي مـسميات الكلمات التي وردت في قول امرئ القيس:

وكان غداة البين يوم تحملـوا　　لدى سمرات الحي ناقف حنظل

تخطو برخص غير شتن كأنه　　أساريع ظبي أو مساويك أسحل

---

[1]) فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، ط5، 1996م، ص 176.

وازن بين الأصوات في كلمة (سيل) وكلمة جلمود فإن الهمس والرخاوة في صوتي (السين والياء) يعكسان هدوء نفسية المتكلم إزاء هذا المظهر الطبيعي حـين قال:

مكـر مفـر مدبـر معـ ـاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

2/ أثر البيئة الطبيعية في لغة التعبير عن الملاهي

للبيئة الطبيعية أثر واضح في التعبير لدى الشعراء الجاهليين، فكان لحيـوان الصحراء مثل: الظباء، وبقر الوحش، القدح المعلى من تعبير الشعراء ومادة لخيالهم فمثلاً أمرؤ القيس يقول[1]:

تصد وتُبدي عـن أسيل وتتقي بنظارة من وحشٍ وجرة مطفلِ

وجيدٍ كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هي نصتـ ـه ولا بمعطـل

وأيضاً يشبه لبيد بن أبي ربيعة نساء ظعنهم بالعين والظباء الحانيـة علـى أطفالها بقوله[2]:

زجلاً كأن نعاج توضح فوقها وظباء وجرة عطفاً أرامهـ ـا

وعنترة بن شداد يهب عبلة جمال إلتفاته ولد الغزال وسحر عينيـه ورونـق شفتيه حيث قال:

وكأنما إلتفت بجيدِ جدايـ ـة رشا من الغزلان حر أرثـ ـم

كذلك استخدموا ما في البيئة الطبيعية من نبات وأشجار لتوضح المعاني التي يريدون التعبير عنها، فأمرؤ القيس يوضح جمال ساق محبوبته بساق نبات البـردى الندى قائلاً[3]:

وكشح لطيف كالجديل مخصر وساقٍ كأنبوب السقي المدلل

وأوضح تكاثف شعر محبوبته بصورة عذق النخلة الذي إلتف بعضه علـى بعض حين قال:

وفرع يزين المتن أسود فاحـم كقنـو النخلـ ـة المتعثكـل

---

[1]) شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص 21.
[2]) المصدر نفسه ص 88.
[3]) المصدر نفسه ص 22.

وطرفة بن العبد وضح جمال ابتسامة حبيبته وبياض أسنانهاوسط اسـتدارة الفم اللمى بزهرة الأقحوان التي تفتحت أكمامه الخضراء الندية عن نور براق أبيض حين قال:

وتبسم عن ألمى كأن منـ ـوراً   تخلّل حر الرمل دعصٍ له نَدِي

كما وضح استواء ونعومة وليونة أطراف محبوبته بمظهر شجر القـشر أو الخروع لما فيها من استواء ونعومة فقال[1]:

كأن البرين والدماليج علقـتْ   على عشْرٍ أو خروع لم يخضد

كذلك استخدم الشعراء الجاهليين حيوانات البيئة الطبيعية للمتع مقياساً لسرعة العدو.

فأمرؤ القيس جعل النعامة أحد ألوان لوحته الجميلة التي رسمها لفرسه حين قال[2]:

له أيطلا ظبي وساقا نعامـ ـة   وإرخاء سرحانٍ وتقريب تتفُـل

كما يجعل لبيد في استمتاعه بفرسه أقصى سرعة له والتي تصيب عرقهـا، وخفت عظامها، وهي سرعة النعام كأعلى مدى محسوس في السرعة، فقد زاد عليه في قوله:

رفعتها طرد النعام وفوقـ ـ ـه   وإرخاء سرحانٍ وتقريب تتفـل

وأمرؤ القيس عندما أراد أن يوضح سرعة فرسه وجد البيئة الطبيعية التـي أسعفته بصورة محسوسة في السرعة أحس بأنها تشفي نفسه من التعبير عما يريد، وذلك لمشهد من الطبيعة هو صورة الجلمود الذي أخذه السيل من غنة الجبل وحطه في لحظة تحت أقدامه حين قال:

مكر مفر مقبل مدبـ ـ ـر معا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

كما استخدموا مظاهر البيئة في تحديد الزمن الذي يستمتعون به، فمن ذلك أن أمرؤ القيس استطاع أن يحدد اللحظة التي يكر فيها الصيد، وهي مغـادرة الطيـور لأوكارها حيث قال:

---

[1]) شرح المعلقات السبع، الخطيب التبريزي، ص 59.

[2]) المصدر نفسه، ص 33.

وقد اغتدى والطير في وكناتِهـا بمنجـردٍ قيـد الأوابـد هيكـل

ومن هنا نستطيع أن نقول أن الشعراء الجاهليين امتزجوا ببيئتهم الطبيعية من حيوان ونبات، فكانت مادة لكلماتهم، وألواناً جميلة للوحاتهم الغنية التـي رسـموها للتعبير عما يجيش في صدورهم:

أثر البيئة الاجتماعية في لغة التعبير عن الملاهي

إن التطور الذي طرأ على وضع شبه جزيرة العرب، سياسـياً، واقتـصاديا ركز قيادة العرب قبل الإسلام في يد قبيلة قريش التي استفادت من الوضع السياسي الذي كان يدور في المنطقة، والذي أذهب قوة عرب الجنوب.

لكل ما تقدم في فصول سابقة الذكر، فإن مركز الثقل السياسي، والاسـتقرار الاقتصادي جعل من قبيلة قريش قبلة العرب، فوجدوا في منطقة مكة وما يتبعها من قرى الغذاء الروحي، والاستقراء المادي، وحماية الممتلكات، والأمن مـن الجـور والتعدي، الذي يتمثل في مبادئ دار الندوة وتقاليد الأشهر الحرم، وضمانات القوافل التجارية.

لكل هذا كانت لغة الثقافة، في هذا المجتمع الجديد، ولغة المؤتمرات الثقافية، في الأسواق التجارية ولغة الدفاع عن حقوق القبائل أمام مجالس الملوك هي:

اللغة القرشية التي شرفت ودعم استقرارها بنزول القرآن الكريم. ولما كانت اللغة مرآة تنعكس عليها حالة المجتمع، وما عليه من حضارة وتقدم، وما يسير عليه في مختلف حالاته، الاجتماعية والروحية والفكرية، فإن لغة الـشعراء الجـاهليين عبرت عن كل جانب منها.

ولنقف مع هؤلاء الشعراء بمختلف انتماءاتهم القبلية، لنتبين ما كان بينهم من اتفاق في وسيلة التعبير عن مجتمعاتهم الصغيرة التي ينتمون إليها.

فتطور المجتمع يستلزم توسعاً في مفردات اللغة، لتعبر عما يجد في المجتمع من ظواهر بسهولة ويسر.

فإن لغة الشعراء الجاهليين اشتملت على عدة وسائل لتوسيع مفردات فمنهـا مثلاً:

الاشتقاق

وزهير وجد نفسه في حاجة للتعبير عن مكانة اللهو والنظر بطريقة تـوحي بحدث مرتبط بمكان محدد، فاشتق من (نظر، والهى) الثلاثي اسمي مكان على وزن مفعول فقال: (ملهي، ومنظر) واقتضى المعنى أن يعبر عن الحدث (لطف) و(أنق) بصيغة تفيد دوام معناه للذات المقصودة بالصفة، فوجد في اللغـة صـيغة (فعيـل) موضوعة لهذه الحاجة فقال (لطيف) و(أنيق) وهذه الأناقة وذلك اللطـف يجـذبان الناظرين، فاقتضى الموقف التعبير، بكلمة تفيد اسـتدامة النظـر لتبيـان محاسـن العذارى فأتى باسم الفاعل (توسم) فقال: (المتوسم) ولكل هذه المشتقات فـي قـول زهير بن أبي سلمى[1]:

وفيهن ملهى لطيف ومنظـر أنيقٌ لعين ناظرة المتوسـمِ

كذلك إذا نظرنا لقول عنترة الآتي[2]:

تستبيك بذي عذوب واضـح عذب مقبله لذيـذ المطعـم

نجد المشتقات في كلا الشطرين. وانظر إلى قول ابن كلثوم الآتي[3]:

وثدياً مِثْل حق العاج رخصاً حصاناً من أكُف اللامسينـا

وبجانب هذا الاشتقاق العام، هناك اشتقاق من أسماء الأعيان فأمرؤ القـيس اشتق من اسم الرحل (مرحل) ليدل على الثوب الذي رسمت فيه الرحال في قوله[4]:

خرجتُ بها أمشي يجر وراءنا على أثرينا ذيل مرطٍ مرحـل

واشتق من اسم الخلخال كلمة (المخلخل) ليدل بها على موضع الخلخال حين قال[5]:

هصرن بفودي رأسها فتمايلت على هضيم الكشح ريا المخلخـل

واشتق من اسم المذيل (المذيل) في قوله[6]:

فعن لنا سرب كأن نعاجـه عذارى دوارٍ في ملاء مذيـل

---

1) شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص 71.
2) المصدر نفسه، ص 125.
3) المصدر نفسه، ص 110.
4) شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص 18.
5) المصدر نفسه ، ص 19.
6) المصدر السابق، ص 34.

وطرفة اشتق من اسم كلمة (مجسد) ليدل على الثوب الملتصق بالجسد حيث قال[1]:

ندامای بیض كالنجوم وقينـةٌ تروح علينا بين برد ومجسد

وهذه إشارة إلى باب الاشتقاق في لغة المتع عند الشعراء الجـاهليين، تـدل على وسيلة من وسائل التوسع اللغوي التي سهلت لكل شاعر التعبير عمـا يجـيش بصدره، وما فيه من دلالة على مراحل التطور التي اقتضتها هذه اللغة.

كذلك من وسائل التوسع اللغوي التي سلكها الشعراء الجاهليين فـي مـتعهم للتعبير عن متطلبات حياتهم المتطورة بالمجاز.

فإن التطور اللغوي قد حدا بالشاعر أن ينقل ألفاظ اللغة من موضوعها الذي حده لها الاصطلاح اللغوي، إلى معنى جديد اقتضاه التعبير عـن حالـة شـعورية خاصة، لا يستنفدها إلا هذا النقل.

فمثلاً أمرؤ القيس عندما أراد التعبير عما وجده من متعة بعنيزة محبوبتـه، أحس بأن اللفظ الحقيقي، أقل بكثير عما ناله منها؛ (جعلها شجرة لها جني، فجعل ما يصيب من رائحتها وقلبها، بمنزلة ما يصيب من رائحة الشجرة وثمرها) [2] فقـال عندما جادلته في دخوله عليها في الخدر على ظهر البعير:

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعديني عن جناك المعلـل

وكذلك عندما أراد التعبير عن أثر العيون الدامعة في قلبه (حـسب أن لفـظ عينين لا يستنفد الشحنة الشعورية التي يجيش بها عن نفسه، فبدل لفظ العينين بلفظ السهمين ليفهم معنى جديداً وهو جرح القلب وليس مجرد تأثر بدموع العينين حـين قال:

وما ذرفت عيناك له إلاّ لتضربي بسهميك في أعشار قلبك قلـب

كذلك عندما أراد التعبير عن رقة المـرأة وصـفائها، وحاجتهـا للرعايـة والإحاطة، أدرك أن لفظ المرأة، مهما وصف فإنه سـيكون عـاجزاً عـن عكـس

---

1) المصدر نفسه ، ص 56.

2) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص 38.

الصورة التي أراد الشاعر رسمها لرقة محبوبته فنقل لفظ (بيضة) بكل ما يحتاجه من حيطة وحذر لمحبوبته فقال[1]:

وبيضة خدرٍ لا يرام خباؤُها   تمتعتُ من لهوٍ بها غير معجل

وطرفة عندما أراد التعبير عن جمال محبوبته أيضاً، وتحديد محاسنها أحس بأن إضافة لفظ الجمال إلى العنق، والسمرة إلى الشفتين والسعة والبياض إلى العينين، لا يشفي غليله، فلم تهد أنفاسه إلا بنقل اسم الغزالة بأحسن صفة فيها، ليحل محل المعشوقة، وكذلك البقرة الوحشية في أجمل لحظات تفتح عينيها فقال:

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن   مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد

خذول تُراعى ربرباً بخميلة   تناول أطراف البرير وترتدي

وعنترة أيضاً لم يكتف بصفة معينة من صفات البقرة الوحشية، وإنما أخذ لفظ الوحشية برمته فصار لفظ (الشاه) عندهم يعني لفظ المرأة، لجمال الصيد، الذي شاركته فيه المرأة الجاهلية.

يا شاة ما قنص لمن حلت له   حرمت على وليتها لم تحرم

ومن وسائل التوسع اللغوي (أن تستعير اللغة ألفاظاً أجنبية لا توجد عندها وهو ما يسميه علماء اللغة العربية الأقدمون: (المعرب والدخيل) [2] ومن تلك الكلمات الدخيلة التي ترسبت في قاع اللغة العربية نتيجة لاختلاط المجتمع الجاهلي بالحضارات المجاورة كلمة (هيكل) التي حللها الأستاذ الجليل الدكتور ظاظا: هيكل في اللغة السومرية: تعني بيت كبير، وقد وردت عند أمرئ القيس مؤدية معنى الكبير الفخم عندما قال واصفاً فرسه الذي يستمتع به في رحله صيده الممتعة:

وقد اغتدى والطير في وكناتها   بمنجرد قيد الأوابد هيكل

ومنها كذلك كلمة (كميت)، وقال عنها أيضاً: (وكلمة كميت معناها في اللغة العربية الداكن اللون –ورد مصغر في اللغة وليس له جمع- وقد لوحظ أن كلمة

---

[1]) شرح المعلقات السبع، ص 16.

[2]) محاضرات فقه اللغة، حسن ظاظا، طلبة الدراسات العليا، آداب 1971م.

كميت: في اللغة الفرعونية معناها: اللون الداكن وأطلقها الفراعنة علماً على مصر. بمعنى الأرض السوداء، تمييزاً لها عن الصحراء الشاحبة اللون المحيطة بها) [1].

وقد وردت هذه الكلمة عند امرئ القيس معبراً عن اللون الداكن في وصف فرسه أيضاً عندما قال:

كميت يزل اللبد عن حال متنه   كما زلت الصفواء بالمتنزلِ

أما معرب الكلمات التي اكتسبتها اللغة في المجتمع الجاهلي نتيجة لصراع اللغة العربية مع لغات الأمم المتحضرة في ذلك الزمان كلمة (السجنجل) التي يقول عنها الدكتور ظاظا: (السجنجل) مرآة رومانية لها ست زوايا يأتي بها الرومان إلى بلاد العرب (sixangular) فنطقتها العرب (سجنجل) [2].

وقد استخدم أمرؤ القيس هذا اللفظ في وصف نحر حبيبته البراق عندما قال:

مهفهفة بيضاء غير مفاضة   ترائبها مصقولةٌ كالسجنجل

وكلمة (المسك) قال جرجي زيدان: (ففي اللغة العربية كلمات هندية مثل مسك وإن عدها الثعالبي فارسية، ودال ابن جني على أصالتها العربية بأنها مشتقة من أمسكت الشيء، كأن المسك رائحته يمسك الحاسة عليه، ولا يبعد بها صاحبها عنه، وفي هذا تمحل لأن الكلمة سنسكريتية أصلها مشكا) [3] استعملها أمرؤ القيس عندما تعرض لتوضيح دلالات محبوبته فوضح أن ضوء الشمس يتسكب عليها، وهي لا زالت تميس وسط المسك في فراشها حين قال:

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها   نؤوم الضحى لم تنطق عن تفضّلِ

إن هذه الألفاظ المعربة، وتلك الألفاظ الدخيلة، توضح مدى انفتاح المجتمع علىغيره من شعوب ذلك الزمان، وتؤكد أيضاً حيوية اللغة العربية، ودخولها في صراع مستمر مع غيرها من اللغات، وفي هذا الصدد يقول الأستاذ ظاظا: (اللغات يتضح بعضها على البعض، ويستعير بعضها من بعض حيث لا تجد لغة نقية تماماً، إلا إذا كانت قد عاشت كل حياتها بمعزل عن حضارة البشر.

---

[1]) محاضرات الدكتور حسن ظاظا، سنة 1971 – 1972م.
[2]) محاضرات الدكتور حسن ظاظا.
[3]) تاريخ آداب اللغة، جورجي زيدان، ج1، ص 41.

واللغة العربية لم تكن قط معزولة عن الأمم المجاورة لها حتى في الجاهلية الأولى التي لا نعرف عنها الشيء الكثير) [1]

ومن وسائل التوسع اللغوي، الترادف، فإننا نجده عند امرئ القيس مثلاً، فقد استعمل كلمتين للدلالة على حيوان واحد:

فعندما أراد وصف جيد صاحبته شبهه بجيد الريم، وعندما وصف فرسه شبه خصره بخصر الظبي. فاللفظان واحد كما يتضح في قوله[2]:

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش   إذا هي نصته ولا بمعطل
وله أيطلا ظبي وساقا نعامة   وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

واللغة كما يقول الدكتور عبد الواحد: (مشكل بالشكل الذي يتفق مع اتجاهات الأمة العامة ومطامحها ونظرها إلى الحياة.) [3]

أما روح العفة والحرص على الشرف من خلال المتع، فإن أثره ظهر في اللغة حتى في حالة الغزل، فإن الشاعر يميل دائماً إلى الإيحاء بدلاً عن الألفاظ الصريحة مثلاً قول عمرو ابن كلثوم حتى في حديثه عن ذوات الروايا، التي لا تمانع في الاختلاء بالرجال، لم يكن فاحشاً في حديثه عما يحدث في حالة الاختلاء، فساقته حشمة وعفة اللغة التي هي صدى لحشمة المجتمع، أن يحنح إلى الحديث عن المفاتن فقال[4]:

تريك إذا دخلت على خلاءٍ   وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعي عيطل أدماء بكر   هجان اللون لم تقرأ جنينا
وثدياً مثل حق العاج رخصاً   حصاناً من أكف اللامسينا
ومتنى لديه سمقت طالت   روادفها تنوء بما ولينا
ومأكمة يضيق الباب عنها   وكشحاً قد جنيت به جنونا

---

1) انظر : المعرب من الكلام العربي، ص 148.
2) محاضرات الدكتور حسن ظاظا.
3) اللغة والمجتمع، عبد الواحد علي عبد الواحد، ص 15.
4) شرح القصائد العشر ، الخطيب التبريزي، ص 326 – 328.

نجد الشعراء الجاهليين في متعهم التزموا بالعفة، وحتى أمرؤ القـيس الـذي اعتبر مقيداً أمام تلك اللغة المحتشمة فذكر اسم (اللهو) كناية عن الملامـسة حـين قال:

وبيضة خدرٍ لا يرام خباؤها تمتعتُ من لهو بها غير معجل

وأكثر ما فعلته لغة هذا المجتمع من التعسف ما قاله أمرؤ القيس الذي أجرته اللغة أيضاً أن يعير بالفظ (طرقت) مكان اللفظ الصريح، لكنه وصل إلـى درجـة أقرب ما تكون إلى التصريح في هذا المجتمع فواجهه المجتمع، وأطلق عليـه، مـا أطلق من ألفاظ الخروج عن أدب الجماعة في قوله[1]:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضـع فألهيتها عن ذي تمائم محول

إذا ما بكي من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحـول

نستطيع أن نقول بعدها هذا التحفظ للغة الجاهليين إنها لغة جد محتشمة إذا ما قورنت بغيرها من اللغات[2]. في زمانها وباللغة العربية نفسها في عصور النهضة والعصر الحديث، رغم ما اتبعه القرآن الكريم من تنمية اتجـاه الحـشمة الفطـري بألفاظ مثل: (الرفث) و(باشروهن) في قوله تعـالى: (أُحِـلَّ لَـكُـمْ لَـيْلَـةَ الـصِّيَـامِ الـرَّفَـثُ إِلَـى نِـسَائِـكُمْ هُنَّ لِـبَـاسٌ لَـكُـمْ وَأَنْـتُمْ لِـبَـاسٌ لَـهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنـكُـمْ كُنْـتُمْ تَـخْتَـانـوُنَ أَنْفُـسَكُمْ فَـتَـابَ عَلَـيْكُمْ وَعَفَـا عَنْكُمْ فـالآنَ بَـاشُروهنَّ وابْـتَغُوا مَـا كَـتَبَ اللهُ لَـكُمْ وَكُلُـواْ وَاشْرَبُـواْ حَتَّى يَـتَـبيّنَ لَـكُـمْ الخَـيطُ الأبْـيَضُ مِـن الخَيْطِ الأسْوَدِ مِـن الْـفَـجْرِ ثُـمَّ أَتِـمُوُّاْ الـصِّيَـامَ إِلى الـلـيْل وَلاَ تُـبَـاشُروهِنَّ وَأنْـتُمْ عَـاكِفـونَ فِـي المَـسجِدِ تِـلْكَ حُدُودُ اللهِ فَـلَـاَ تَـقْرَبُـوهَـا كَـذَلِـكَ يُـبَـيّنُ اللهُ آيَـاتِــهِ لـلـنَّـاسِ لَـعَـلّـهُمْ يَـتَقُـونَ)[3].

و(أقضى) في قوله عز وجل: (وَكَـيْفَ تَـأخُذُونَـهُ وَقَــدْ أَقْــضَى بَـعْضُكُمْ إلى بَـعْضٍ وَأخذْنَ مِـنكُمْ مِّـيثـاقـاً غَلِـيظا)[4].

---

[1]) شرح القصائد العشر ، الخطيب التبريزي، ص 326 – 328.
[2]) اللغة والمجتمع، عبد الواحد علي عبد الواحد، ص 15.
[3]) سورة البقرة،آية 187.
[4]) سورة النساء، آية 21.

وشيوخ الكلمات التي تدل على معاني كلية يوضح خط سير هذه المجموعـة وانتقالها من المدركات الجزئية إلى الألفاظ ذات المدلول الكلي مثل: لفظ: الطيـر، اسم جنس علم يدل على كل أنواع الطيور، كما في قول امرئ القيس:

وقد اغتدى والطير في وكناتها   بمنجرد قيد الأوابد هيكـ ـل

ولغة العرب من أغنى اللغات كلماً وأعرقها قدماً، وأوسعها لكل ما يقع تحت الحس، أو يجيش في الخاطر، من تحقيق العلوم، أو سن القوانين، وتصوير الخيـال –وهي على ترتيب أوضاعها وتناسق أجزائها لغة قوم أميين، ولا عجب إن بلغـت تلك المنزلة، من بسط للثروة، وسعة للأفق والمدى، إذ كـان لهـا عوامـل نمـو، ودواعي بقاء ورقي، وما رواه لنا أئمة اللغة نتيجة امتزاج الشعوب التي سكنت شبه جزيرة العرب[1].

فمثلاً معلقة امرئ القيس قد بدأها بذكر الأطلال التي يقول فيها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلِ   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح، فالمقراة لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمـال

ترى بعر الآرام في عرصتهـ ـا   وقيعانها كأنـ ـه حب فلفـ ـل

وقوفاً بها صحبي على مطيهـم   يقولون لا تهلك أسى وتجمـل

وإن شفائي عبرة مهراقـ ـ ـ ـة   فهل عند رسم دارسٍ من معول

كدأبك من أم الحويرث قبلهـ ـا   وجارتها أم الرباب بمأسـ ـ ـل

وقوله: قفا نبك فيه ثلاث أقوال في اللغة:

الأول: إنه خاطب رفيقين له، وهو لا يعرف الالتماس أو الالتفات.

والثاني: أن يكون حاطب رفيقاً واحداً، وثناه، لأن العرب تخاطب الواحد مخاطبـة الاثنين، قال الله تعالى: (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)[2].

مخاطباً مالك. وأبد ذلك الزجاج

---

[1]) جواهر الأدب ،ج2، ص 13.

[2]) سورة ق ، آية 24.

والثالث: إنه أراد قفن بالنون فأبدل اللاف من النون وأجرى الوصل مجرى الوقـف، وأكثر ما يكون هذا في الوقف[1].

الألفاظ

أما من حيث اللفظ فهو كما ترى تغلب عليه الجزالة، ويكثر فيـه الغريـب، وخاصة عند تعاطي الوصف للشيء من حيوان وجماد وطير ونبات، وهو أيضاً لفظ معرف لا ترى فيه لحناً.

وهذا كان طبعاً، والمعروف إنه لم يؤثر عن أحد من أهل هذه الجاهلية لحن يذكر، ومن ألفاظ الألفاظ أنها كانت في الغالب تستعمل في معانيها الحقيقية، إلا مـا كان في باب الوصف والغزل وبعض الممادح من التشبيهات البارعـة والمـصورة وبعض الكنايات الرائعة الحسن كمثل قول امرئ القيس[2]:

تضحى فتيت المسك فوق فراشها نئوم الضحى لم تنطق عن تفضل

في "نئوم الضحى" وإن كانت نؤمة الضحى قد أصبحت لا تعجب أهل هـذا العصر النشيط المتحرك بعجلة السرعة، إلا أنها مع ذلك كانت ولا تزال تدل علـى مقدار النعمة والفراغ.

وكذلك لم يكن لهم في لفظهم من دخيل أعجمي إلا مـا عرفـوه مـن قبـل وخلطوه بأوضاع لغتهم إبان التكوين.

أما الخيال: فقد كان واسع من واقع بيئتهم التي عاشوا فيها. فمثلاً كلمـة (ربـرب) التي تعني القطيع من البقر والظباء وعبر ذلك[3]. إنها محاكاة لصوت أقدام القطيـع أثناء سيره، فإن صوت المشي يكون (رب، رب، رب) حين قال طرفة بن العبد:

وفي الحي أحوى يرفـد المرد شادن مظاهر سمطى لـؤلـؤ وزبرجـــد

خـــذول تراعى ربرباً بخميلـــــة تناول أطراف البربـــر وترتـــدي

---

1) شرح القصائد العشر، ص 20.

2) ديوان امرئ القيس، ت: أبو الفضل إبراهيم، ص 17.

3) شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، ص 138.

المبحث الثاني

جمال اللغة وبلاغتها

(التشبيه – الاستعارة – والمجاز)

الخمر

كان الجاهلي محباً للخمر ولهوها، رغم صعوبة ظروف الحياة التي يعيشها، ونحن نعلم أن الصحراء موطنه ليست موطناً للزراعة حتى يتمكن من زراعة العنب والكروم والمعاصر الأخرى التي تصنع منها الخمر، هـذا مما عـدا الأراضـي الصالحة لغرس العنب والنخيل في مناطق مثل: اليمن والطائف، والمدينـة، ووادي القرى.

فالجاهلي كان يبزل كلما في وسعه في سبيل الحصول عليهـا والاسـتمتاع بشربها، فهي بيت الكرم، حيث ينفق فيها بسخاء غير محدود، ويفاخر في شـربها، ولها طقوس ومجالس تحفها القيان، وهن يضربن على الصنج والعود وفي هذا يقول لبيد:

بصبوح صافية وجذب كرينة بمؤتـر تأتالـه إبهامهـا

حيث يصف الخمر المعتقة الصافية تقدم إليه في جو فرايحي يحفه الطـرب والنشوة.

فحين تبلغ النشوة قمتها يهون كل غالٍ ونفيس وحتى وإن كانت المطيـة أو الراجلة التي يستقلها سواء كانت ناقة أو فرس، وربما كان ثمن الخمرة دنانيراً كمـا يقول عنترة:

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم

ويعني بالمشوف المعلم هنا الدنانير. وقد كان الجاهليون يمدحون الشارب إذا اشترى جميع ما عند التاجر من خمر.

أما لونها: فقد تفننوا في وصفها ووصفوها، من كميت أو دم الـذبيح، أو دم الغزال، كما شبهوها صافية كعين الديك، وربما ذكروا الذي عـصرت منـه فـي تشبيهاتهم، قال متمم ابن نويرة[1]:

ولقد سبقت العاذلات بشربـة ريا وراووقي عظيـم مترع

جفن من الغربيب خالص لونه كدم الذبيح إذا يشـن مشعشـع

فهو يصفها بأنها من العنب الأسود وهو أجود أنواع العنب حيث صب عليها الماء، فهي خمر معتق، خمر سلاف، ولونها يشبه لون دم الغزال المذبوح أي أنـه أحمر قاتم اللون.

أما طعمها: فقد ذكروا ذلك فهي تلذع اللسان، وتنفح كالمسك، وتسل غمامة المذكوم ووصفوا أوانيها من زقاق وأباريق وكؤوس وقداح، كمـا وصـفوا النـديم والسامر وباقات الرياحين، وما يصيبون من الشعراء على الشراب.

فالجاهلي حينما يشرب الخمرة يجد فيها طيب العيش ولذة الحيـاة، حيـث تطرد عنه الهموم، وتفرج عنه الكرب؛ فلذا قـد تـسابقوا فـي وصـفها وأجـادوا تشبيهاتها، فقد شبهت بالآتي:

دم الذبيح، صافية كعين الديك، بعد أن ذكروا العنب الذي عـصرت منه، فهي من العنب الأسود، متى ما مزجت بالماء صفا لونها، فصارت بلون الدم، فها هو متمم ابن نويرة يشربها مع فتية لبسوا بها بعد أن صار لهم الهم لباس وقناع حيث يصف ذلك بقوله[2]:

ألهو بها يوماً والهي فتيـة عن بثهم إذا لبسوا وتقنعـوا

وهذا الحادرة الذبياني يصف الخمرة وتأثيرها وحالة السكارى في معاقرتها، فإذا هي عتيقة قديمة، شبه لونها بدم الغزال قائلاً[3]:

فسمي ما يدريك أن رب فتية باكرت لذاتها بأدكن متـرع

محمرة عقب الصبوح عيونهم يجري هناك من الحياة ومسمـع

---

[1]) المفضليات، ش : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط1، قصيدة 9، أبيات 28، 29.
[2]) المفضليات، المفضل الضبي، قصيدة 9، الأبيات 28، 29، 30.
[3]) المصدر نفسه، ص 46، قصيدة 8، أبيات 16، 17، 18، 19.

متبطحين على الكنيف كأنهم   يبكون حول جنازة لم ترفـ ـ ـع

بكروا علي بسحرة فصبحتهم   من عانق كدم الغزال مشعشـ ـع

ومن عادة الجاهليين إذا أرادوا أخذ ثأر حرموا على أنفسهم شرب الخمـرة تحفيزاً لهممهم، فلا تشرب إلا بعد أخذ الثأر، وتواضعوا أن يجـدوا طعمهـا فـي رضاب الحبيبة ونكهتها في فمها، فحيناً تنعت بأنها شقراء وحمراء، وترفـع حينـاً بالمصفاة، وأحياناً تعزق بالقدح.

فتشبه بالمسك في طيب نكهتها[1]:

وما قهوة صهباء كالمسك ريحها   تعلّ على الناجود طوراً وتقدح

ومن وضعهم لها أنها تحبس في الدن كأنها (سبئ) وقد جعل عليـه الطـين حتى يمنع دخول الهواء حيث تلمع الاستعارة في (سباها)، وهذا يقودنا إلى أن تجارة الخمرة تبدو محرمة ولا يتجر بها إلا اليهود[2].

ثوب في سباء الدن عشرين حجة   يطان عليها قرمد وتـ ـ ـروح

سباها رجال من يهـود تباعدوا   لجيلان يدنيها من السوق مربح

وينعت طيب هذه الخمرة بالقوة فهي كرضاب حبيبته قائلاً: [3]

بأطيب من فيها إذا جئت طارقاً   من الليل بل فوها ألذ وأنصـح

أما ابن الطبيب فإنه قد وصف مجالس الشراب بكل ضـروبه، مـن خمـر وسماع وساق وفراش، فهو يذهب في الصباح مبكراً قاصداً الخمارة، والديك يصيح. وبرفته صديق حميم كريم، فأتكأ على فرش مذركش تنقش عليه صوراً من الـدجاج والأسود وهما بداخل غرفة صغيرة فيها مصباح، حيث هناك دن من الخمر وإبريقاً وأكليلاً من الريحان وقطعة من كيس مشكوكة في سفود يسعي بها خـادم نـشيط، فاصطبحا كميتاً من طيب الراح صدفا مزاجا، وغنت بهما آنـسة جيـداء، حـسنة الصوت في شعر جميل فأطربتهما، مخلعاً عليهما ما يرتديان من البرود والسرابيل.

---

[1]) المفضليات، ص 242. الناجور، المصفاة، صهباء: حمراء، أو شقراء.

[2]) المصدر نفسه والصفحة.

[3]) المصدر نفسه والصفحة.

ويغدو إلى الخمارين في خيلاء يشبه صدر السيف في مـضائه أو حـسنه، تغذية أريحية السخاء كأنها ريح الشمال قائلاً[1]:

إلى التجار قاعداني بلذتـ ـه ‏‏ ‏ رخو الآزار كصدر السيف مشمول

وربما استعمل الشاعر الكناية حيث يصف الفرش التـي إتكـأ عليهـا مـع صاحبه، فيها ضرب من الوشيء، والبسط والألوان المختلفة ليبـين فيهـا صـوراً مختلفة[2].

حتى إتكأنا على فرشٍ يزينها ‏ ‏ من جيد الرقم أزواج تهـ ـاويل

ويستخدم كلمة (فرق) ليدل على أنه أخذ من وجه الخير والمعروف، والخرق في الأصل تعني "القطعة" أو الثقب، وهنا استعملت بمعنى "المخترق" في فنون الخبر والمعروف.

خرق يجد إذا ما الأمر جدبه ‏ ‏ مخالط اللهـ ـو واللـ ـذات ضليـ ـل[3]

ويشبه اللون المقطوع الرأس بجذم الحوض قد أهلكه عـراك الإبـل عنـد ازدحامها، فبقيت منه بقية.

لنا أصيص كجذم الحوض هدمه ‏ ‏ وطء العراك لديه الزق مغلـ ـول[4]

وقد استعار لفظة "أكليل" للطيب، والطيب لا يرى ولا يلمس وإنما يشك، فقد جسده بأن جعل منه إكليلاً قائلاً[5]:

والكوب أزهر معصوب بقلتـ ـه ‏ ‏ فوق السباع من الريحان إكليـ ـ ـل

وشبه الجرة الضخمة المثقوبة التي توضع فيها المياه المبردة بوسط الحمـار الوحشي في شكلها وتكورها بقوله[6]:

مبرد بمزاج المـ ـاء بينهمـ ـا ‏ ‏ حب كجوز حمار الوحش مبـ ـزول

---

1) المفضليات، ص 143.
2) المصدر نفسه، ص 144.
3) المفضليات ، ص 144.
4) المصدر نفسه والصفحة ذاتها، أصيص: دن مقطوع الرأس.
5) المصدر نفسه والصفحة. السباع : كل ما طلي من جص أو ضين.
6) المفضليات، ص 144.

ما تفعله الخمرة بشاربها

الخمرة تبعث في الشاربين نشوة وزهواً، فتخرجهم من دنيـاهم إلـى دنيـا جديدة، يرون أنفسهم فيها ملوكاً ويزدادون شجاعة كما أسلفنا فـي قـول المنخـل اليشكري:

فإذا سكرت فإنني ربّ الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإنني راعي الشويهة والبعير

فالخمرة تحدث في شاربها رعدة، فهي معتقـة كأنهـا وإن كانـت صـرفاً ممزوجة بالماء لسهولتها، ولا يلهى الجاهلي عن سكره سوى غناء القيـان الجميـل فهي في تنوعه شبه بالأصباغ التي تزوق بها السقوف[1].

ثم اصطحبت كميتاً قرقفاً آنفـا من طيب الراح واللذات تقليل
صرفاً مزاجاً وأحيانـاً يعللنـا شعر كمذهبه السمـان محمول

كما استعار الشاعر كلمتي "تذري وحواشيه" للصوت، وهي أصلاً تـستعمل للثوب، استعار كلمة "تصفدها" بمعنى تعطيها[2].

تذري حواشيه جيداء آنسـة في صوتها لمساع الشرب ترتيل
تغدو علينا تلهينا وتصفدهـا نلقى البرود عليها والسرابيـل

كما يصف صورة الشاربين، والزبد يطفو على الكون، بجانب ربع الكـبش مشكوكاً في السفود يشوى:

والكوب ملآن طاف فوقه زبد وطابق الكبش في السفود مخلول

وها هو ربيعة بمن مقروم، يشبه نفاخات التي تعلـو الخمـرة عـن المصب بحباب الماء ترتفع فتعطي صوتاً يشبه صوت من ارتوى بها، حيث استعار كلمة "الفريد" وهي أصلاً للطيور[3].

سخامية صهباء صرفاً وتارة تعاور أيديهم شواء مضهبـا
ومشحونة بالماء ينزو حبابها إذا السمع الفريد منها تحببـا

---

[1]) المفضليات، ، ص 144.
[2]) المصدر نفسه، ص 145.
[3]) المفضليات ، ص 403.

فالشاعر حذق الموصوف "الخمرة" وأبقى على الصفات البارزة التي تدل أما على لونها أو لينها أو غير ذلك، وهي سحامية وصهباء وهنا باعدت الـصفة عـن الموصوف، ويستعير لهما لفظة "ترقرق" أي تذهب وتجئ في المصفاة يمزجها خادم م........ واضعاً على فيه فرقة يشدها إذا أراد أن يشتكي القوم لئلا يخرج فيه شيء فيصل إلى القدح.

فالجاهلي يشرب الخمرة صرفاً أو ممزوجة بالماء أو بالعسل والمـاء قـال حسان بن ثابت[1]:

كأن سبيئة مـن بيت رأس   يكون مزاجها عسـل ومـاء

1/ الأعشى والخمرة

انفرد الأعشى عن غيره من معاصريه في وصف الخمرة، أدمـن شـربها ووصفها، فقد كان له السبق في وصفها والطرب لها.

كذلك أبدع الأعشى في وصف الخمرة، وكل ما اتصف بها مـن قريـب أو بعيد، وهو لا يجد حرجاً في إدمانها يفني في سبيلها ما له.

أما ترينا حفاة لا نعال لنـا   أنا كذلك ما تحـذي وننتعـل[2]

ويصف لنا الندامى الذين كان يجالسهم على الشرب، أحياناً يقود صبياً فيتبعه منقاداً، وأخرى يصاحبه الرجل النشيط ذو الحدة والغضب الذي يحب الغزل[3]:

وقد أقود الصبي يوماً فيتبعني   وقد يصاحبني ذو الشدة والغزل

والندامى يعرفون بعضهم بعضا، فيتبادلون أحسن الأحاديث وأظرفها فاستعار الأعشى "قضب الريحان" للدلالة على الرائحة الطيبة التي تفوح منهم، ويصف فعل الخمرة في أجسام الندامى، مدمن الخمرة ينسى بكأسه الثانيـة كأسـه الأولـى، ولا يستفيقون من سكرتهم إلا ويخاطبون الساقي بكلمة هات وسواها قائلاً[4].

لا يستفيقون منها وهي دائمة   إلا بهات وإن غلوا وإن نهلوا

---
1) ديوان حسان، ص 14.
2) ديوان الأعشى، ص 4.
3) المصدر نفسه، ص 34.
4) الأعشى، الديوان، ص 5.

ولعل الأعشى كان يطوف الحواضر ويشهد فيها مجالس اللهـو والـشراب ويسمع غناء الغيان على الصبح والعود، حيث نراه استعار كلمة "مستجيب" بمعنـى العود، وهي أصلاً تستعمل للإنسان أو الحيوان، فإذا بهـذا العـود وذاك الـصبح يتجاوبان، وإذا بالمغنية ترجع الأصوات، وعليها من الثباب فصلتها قائلاً:

ومستجيب لصوت العود تسمعه إذا ترجع فيه القينة الفصـل[1]

والغناء والطرب يخلق جواً من المتعة والنشوة بتلك الأنغام الحلوة الجميلـة التي تغمر ذلك المكان، فقد استعار الشاعر كلمة "ينطق" للعود قائلاً[2]:

وقد أقطع اليوم الطويـ ـل بقينـة مساميح تسقى والخباء مـروق

إذا قلت "غني الشرب" قامت بمزهر يكاد إذا دارت له الكف ينطـق

ويصف صفاء الخمرة ونضارتها إذا سقط فيها قذى تراه عالياً عليها مع أنه يكون في أسفلها، وإذا ذاقها شارب فإنه يستلذ من طعمها[3].

تريك القـ ـذى من دونها وهي دونه إذا ذاقهـا من ذاقها يتمنطـق

وعن فعلها بالنفس وشاربها وتحريك جوانحه بعد أن تهز مشاعره وتحـرك إحساسه بارعادها:

فقـام فصب لنـا قهـوة تسكننـا بـعـد إرعادهـا[4]

حيث استعار كلمة "رعاء" ليدل على قوتها، واهتزاز الجـسم منهـا، فهـي حمراء ضاربة للسواد، إذا روقت بعد الأرباد، فانكشف عنها الرغوة، وإذا مزجـت ظهرت حمراء، فيشبهها في تجمعها وطول بقائها في الدن بحوصلة صغير النعـام والرغاء"

كميت تكشف عن حمـرة إذا طرقت بعد أزيادهـا[5]

كحوصلة الرغاء في دنهـا إذا صوبت بعد إقعادهـا

---

1) المصدر السابق، والصفحة.
2) المصدر نفسه، ص 26.
3) المصدر نفسه، ص 27.
4) المصدر نفسه، ص 33.
5) الأعشى، الديوان، ص 33.

حيث حذف الاسم الموصوف "الخمرة" وأبقى على الصفة الكميت ويشبه الأعشى الندامى الشباب بمصابيح الدجى، وتظهر النعمة عليهم، كما يبدو الفرح عليهم.

في شباب كمصابيح الدجى ظاهر النعمة فيهم والفرح[1]

وهولاء الشباب كرماء، وهم لا يصدون نياقهم بخلاً بألبانها.

لا يسخون على المال وما عودوا في الحي تصرار اللقح[2]

ومما لا يدع مجالاً للشك أن الأعشى كان صاحب لهو ومجون وعبث، وأنه وصف الخمرة شغفاً بها، فأحسن وصفها، وكانت له مجالس قصف وطرب ولذة ومجون، فيها الندامى، والساقي والقيان، فوصفها جميعاً وأحسن وصفها.

2/ أمرؤ القيس والخمرة

من المعروف أن امرأ القيس قد نشأ نشأة أبناء الملوك وهو الملقب بالملك الضليل، حيث عاش حياة لهو ومجون وترف، فقد وصف الخمرة ومجالسها في حوار لذيذ يكشف لنا عن مغامراته وقصصه.

وقد تميز أمرؤ القيس بإدخال المسك على الخمرة لتطيب رائحتها، أو حب الفلفل لتشتد حرارتها قائلاً[3]:

كأن مكاكي الحواء غدية صبحن سلافاً من رحيق مفلفل

فهو يرى كأن هذا الطير قد سقى الخمرة صباحاً في هذه الأودية، وقد جعلها لشدة أصواتها ونشاطها وتغريدها، لأنها شربت ذاك الشراب المفلفل الذي يحذي اللسان ويسكر.

وترى هنا من خلال التشبيهات التي أتى بها أمرؤ القيس أثر البداوة من حيث إظهار صور التشبيه وألوانه المستمد من الطبيعة، وأن المشبه به لا يشمل على وجه تام للمشبه، وإنما فيه ناحية خفية تجمعه بالمشبه.

---

[1]) المصدر السابق، ص 36.

[2]) المصدر نفسه، والصفحة.

[3]) أمرؤ القيس، الديوان، ص 63.
مكالي: طير، السلاف: الحمر

فأمرؤ القيس يغدو باكراً يحتسي الخمرة وهي معتقة يجلبها التجار من بلاد بعيدة فيشبه نكهتها بطيب ريق الحبيبة وحلاوة شفتيها فيقول[1]:

إذا ذقت فاها قلت طعم مدامة   معتقة مما تجئ به الشجر

وأحياناً يصفها بالسبيئة، وهي استعارة؛ لأن الكلمة تستعمل أساساً للمرآة التي تسبئ في الحرب[2]:

كأن التجار أصعدوا بسبيئة   من الخص حتى انزلوها على يسر

3/ زهير والخمر

شرب زهير الخمر مع ندمائه، فوصف مجالسها وما يتعلق بذلك من مأكل ومشرب وطرب وغناء، وقد استعار لفظة "تمشت" وهي أصلاً تستعمل لمن تدب فيهم الحياة، وإنما استعمل المجاز في قوله "حميا الكأس" أي كأس من خمرة[3]:

وقد أغدوا على قتية كرام   تشاوى واجدين لما تشاء

لهم راح ورادوف ومسك   تعل به جلودهم وماء

يجرون البرود وقد تمشت   حميا الكأس فيهم والغناء

وزهير من الشعراء الذين كرموا الخمرة، حيث شبه بهاريق صاحبته قائلاً[4]:

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت   من طيب الراح مما بعد أن عتقا

4/ طرفة والخمرة

نشأ طرفة في بيت غني وكرم فانصرف إلى اللهو والخمر ينفق بغير حساب، يبذل بكل ما يملك حتى أنفق ما لديه ونفذ ما عنده، وصار عديماً، فسخطت عليه أسرته وأبعدته عنها طريداً فقال[5]:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي   وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلها   وأقررت إفراد العبير المبعد

---

1) ديوان امرئ القيس ، ص 99.
2) اصعدوا: أذهبوا، سبيئة، الخمرة تحمل من بلد لآخر.
3) ديوان زهير، ص 11.
4) المصدر نفسه، ص 39.
5) ديوان طرفة ، ص 9.

فتألمت نفسه الأبية وهجر أهله لأنه كان يرى أن النفس الأبيه تـأبى الـذل والإهانة، وإن معاقرة الخمر من الفتوة، وقد وصف طرفة مجلس لهوه مـن خمـر وندمان وقيان، ويصف القينة:

إذا رجعت في صوتها خلت صوتهـا تجاوب آظـار على ربـع ردى

فهو يشبه صوتها بصوت نوق تتجاوب مع أحد أولادها وهو هالك.

فشعر طرفة تميز بالألفاظ التي تبعثها النفس على سجيتها سهلة حيناً وتـارة خشنة، والفطرة في وصفه تمثل أصدق تمثيل بصراحته وسذاجة عقائده.

5/ لبيد والخمر:

لبيد صاحب لهو وطرب، يشرب الخمرة، ويغلي ثمنهـا، ويفـاخر بـشربها ويخبر حبيبته بلياليه التي يقضيها وسط الندامى[1]:

بل أنت لا تدرين كم من ليلـةٍ طلقٍ لذيذ لهوهـا وندامهـا

ولبيد يشرب الخمرة صباحاً وهي صافية على أنغام العود، تـضرب علـي أنغام العود، تضرب عليه امرأة جميلة قائلاً:

وصبوح صافية وجذب كرينة بموثر تأتالُـه إبهامهـا

وترى أن لبيد قد استعار للخابية صفة البكارة حيث قال "فض" ختامهـا، وإن كانت بكارة مصطنعة، واستعار ثانية لجأ إليها الشاعر في وصف الخمرة وهي أنه استعار لفظة "يد" إلى الشمال وهو بمعنى ريح الشمال ذلك ليعبر عن البـرد الـذي يلفح الوجوه بأنه ريح شمالية:

أعلى السباء بكل أدكن عاتـقٍ أو جونة قدحن وفض ختامهـا

وعداة ريح قد وزعـتُ وقرة قد أصبحتْ بيد الشمال زمامها

إذن هؤلاء الشعراء صورة ولوحة متكاملة لامة ذات وطن وعقيـدة ولغـة، وتاريخ كامل شامل يكشف النقاب عن حاضرٍ معاش ومستقبل يرتقب.

---

[1]) ديوان لبيد، ص 11.

قضية الشك في الشعر الجاهلي

وأختتم هذا الفصل بالتلميح إلى معركة أدبيها دارت أحداث مـشاهدها فـي مطلع القرن العشرين هي:

أن بعض الكتاب حاول أن يشك في بعض الحقـائق التـي أثبتهـا البحـث والتطور المعرفي؛ لا محال مجرد الشك فيها.

ومن هذه المحاولات محاولة المستشرق (مرجليوت) فـي بعـض مقالاتـه، وكذلك الدكتور طه حسين والذي كان شارحاً لفكرته في كتاب الأدب الجاهلي فـي طبعته الثانية والطبعات التي تليها، والشعر الجاهلي للحياة العربية(1).

لكن أثبت البحث العلمي الحديث، والتحقيق المعرفي على أيدي أساتذة أجلاء أن هذا التشكيك معركة في غير معترك كما يقولون، وحتى اليوم أصـبح الـشعر الجاهلي من المسلمات الأولية في الشعر. وأن قضية الشك لم يعد لها وجود لهذا، لا يوجد ما يبرر تكرار هذه القضية.

---

1) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، ص 352 – 428.

نتائج البحث

إن الدراسة التي خرج بها الباحث من هذا السبح الطويل في هـذا الميـزان الأدبي، بينت أن الأدب الجاهلي ما يزال نبعاً ثراً ينتظر كثيراً من المائحين لإرواء السرحة والروضة الأدبية في عصرنا الحاضر، وإبراز الصورة الجميلة التي كـان عليها العصر الجاهلي من شعر فإنه فيض لا ينضب مهما تكاثر عليـه المتـاحون وتطاولت وتضاربت أشطان دلائهم. ومن هذه الدراسة توصل الباحث إلى النتـائج الآتية:

1- اعتزاز الجاهليون بكرمهم الفياض، لإيمانهم الشديد بهذه القيمة الإنـسانية، خاصة في وقت الشتاء.

2- الكرم صفة أصيلة في الإنسان وما زالت معروفة حتى الآن.

3- رغم كثرة الأشعار التي نظموها في كرمهم، إلا أن كرمهم يخلو تماماً مـن أسماء من أحسنوا إليهم. وبذلك يكون الجاهلي ارتقى بذلك في سلم الإنسانية أعلى الدرجات.

4- فخر الجاهليين بالكرم إنما كان فخراً من حيث أنه قيمة إنـسانية، وأشـادوا بكرمهم لتكون الإشادة دافعاً للاقتداء بهذا السلوك الإنساني، وحافزاً للفـوز بهذه الفضيلة.

5- كان للشاعر الجاهلي تأثيراً واسعاً في مجرى الحياة اليومية؛ لأن القصيدة – عصرئذٍ- صورة الإعلام والانتماء.

6- الشاعر الناطق الرسمي باسم القبيلة – يهبها فكرة وقته مسجلاً بذلك أعلـى درجات الوفاء والانتماء.

7- آمن الشاعر الجاهلي برسالته الإنسانية، فقدم لمجتمعه أعمالاً إيجابية صائغاً بذلك فكراً إنسانياً رامياً، يزخر بالخير.

8- الشاعر الجاهلي مربى وموجه، وداعي وحامل رسالة.

9- حب الشاعر الجاهلي لوطنه جعله يفرد أجنحته على قبيلة يدافع عن أمنها.

10- خضوع الجاهلي لقانون الثأر في العلاقة بين القبائل. فهو القانون السائد

عندهم.

11- حياة الجاهلي أغلبها حربية تقوم على سفك الدماء.

12- الاحتفال البهيج بقدوم الفرس، والمهرة، وأن اقتناء الفرس دليل على الثراء.

13- اعتماده التام على الفرس والناقة، جعله لصيقاً بهما مما خبره ببيطرة الحيوان.

14- الخمر عند الجاهلي عامل مساعد لنمو الكرم والسخاء.

15- الجاهلي حضري مدني في التعامل مع الخمرة من كاسات وساقيات ومغنيات.

16- تشرب الخمر في أي وقت، لكن تفضل في الصباح الباكر.

17- اقتصرت هذه المتعة على الرجال فقط فالنساء العربيات الجاهليات لن يشربن الخمر.

18- أغلب الملاهي كان يمارسها الرجال، إذ أن المرأة متعة في حد ذاتها، بالنسبة للرجل.

19- رغم غياب الوازع الديني، إلا أن مدمن الخمر منبوذ في المجتمع، كما أن هناك من امتنع عن شربها.

20- لم يتغير أصل المواد التي تصنع منها رغم اختلاف الطريقة.

21- لهو الميسر اختص به الأغنياء.

22- الاستمتاع بالميسر غالباً ما يكون ليلاً.

23- إن السكن في البادية وكثرة الأسفار يزيد من الارتباط بمظاهر الكون والطبيعة والتأمل فيها.

24- إن السفر ساعد على خلق علاقة شاعرية مرهفة. فكان الناتج نصاً شعرياً مرهفاً منعوتاً بالصدق.

25- إيمان الجاهلي بالسعي وراء الرزق تفرضه عليه ممارسة السفر والتنقل.

26- رغم التدرج الزمني لم يطرأ تغيير أو تعديل في المفهوم الاصطلاحي لكلمة السفر. بل نجد التغيير يطرأ على وسائل المواصلات.

27- من خلال حكم النابغة على شعر الخنساء نجد أن المرأة الجاهلية جيدة الشعر بل أحياناً قد تفوق شعر الرجل الجاهلي، رغم ذلك لم تظهر المرأة كشاعرة من كبار الشعراء إلا في إطار ضيق جداً في العصر الجاهلي.

28- نجاح الجاهلية في توطيد لغة التحدث في الأسواق، وانضواء كل فئات المجتمع تحت لواء اللسان القرشي.

خاتمة

الحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات، والصلات والسلام على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم- وبعد.

نحمد الله حمداً كثيراً على توفيقه لي في كتابة هذا البحث، والذي نحسب أنه تناول موضوعاً مهماً في حياة المجتمعات العربية والإسلامية ألا وهو ضـروب الملاهي.

أما المجتمع الجاهلي فقد نظر لهذه الملاهي نظرة خاصة وشفافة وفي بعض منها بحذر شديد كالمرأة مثلاً فهي محط الفخـر والاعتـزاز عنـدما تكـون أم الأبطال ويبذل من أجلها كل غالٍ ونفيس عندما تصاب بأذى كأن تسبئ أو تأسر، وكذلك الثأر وغيره من الملاهي.

لذا رأينا شعراء العصر الجاهلي قد تناولوا في شـعرهم الملاهـي مـراتٍ ومرات. ولم تخل قصيدة من ذكر الملاهي إذ أن حيـاتهم قائمـة علـى تلـك الملاهي.

وها هي رحلتي المتواضعة مع الملاهي في العصر الجـاهلي قـد انتهـت، ويسرت لي الإطلاع على هذا التراث الأدبي العظيم وفهم القليل اليـسير منـه. وأعانتني على تلمس طريق أعتقده صحيحاً لفهم الملاهي في تلك الفترة من حياة العرب من خلال وثيقة تاريخية واجتماعية مهمة ألا وهي الشعر.

كما أتمنى أن يجد فيه القارئ ما يجعله يحمد الجهد ويغفر الذلة والخطأ فكل كتاب راداً ومردود عليه كما قال سيدنا مالك –رضي الله عنه- إلا كتاب واحـد وهو القرآن الكريم.

وفي الختام نسأل الله أن يوفقنا لما فيه الخير وأن يجعلنا من الـذين يتبعـون هديه في اللهو المباح والتمتع بحلاله. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرست الآيات القرآنية:

السورة	الآية	رقمها	الصفحة
البقرة	(احل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علـم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب علـيكم وعفا عنكم...الخ)	187	206
البقرة	(يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهمـا إثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما...الخ)	219	74 ، 136
البقرة	(الله ولي الذين آمنـوا يخـرجهم مـن الظلمات إلـى النـور والـذين كفـروا أولياؤهم الطاغوت.... الخ)	257	9
آل عمران	(يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)	154	9
النساء	(ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وسـاء سبيلا)	21	206
النساء	(وإن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيما)	23	66
النساء	(إن يدعون مـن دونـه إلا إيناثـاً وإن يدعون إلا شيطانا مريدا)	117	44
النساء	ولم تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل وتـذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما)	129	186

74	90	(يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس مـن عمـل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون)	المائدة
10	199	(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عـن الجاهلين)	الأعراف
79	60	(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومـن رباط الخيـل ترهبـون بـه عـدو الله وعدوكم...الخ)	الأنفال
108	71	(فأجمعوا أمركم وشركاءكم)	يونس
108	64	(فأجمعوا كيدكم ثم أئتوا صفاً وقد أفلـح اليوم من استعلى)	طه
44	35	(وإذ قال إبراهيم ربي أجعل هـذا البلـد أمناً وجنبني وبني أن نعبد الأصنام)	إبراهيم
27	57	(ويجعلون لله البنات سبحانه ولهـم مـا يشتهون)	النحل
27 ، 69	58	(وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظـل وجهـه مسوداً وهو كظيم)	النحل
27	59	(يتوارى من القوم من سؤ ما بشر بـه أيمسكه على هونٍ أم يدسه في التراب إلا ساء ما يحكمون)	النحل
27	31	(ولا تقتلوا أولادكم خشية من إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً)	الإسراء
154	5	(فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربـت وأنبتت من كل زوج بهيج)	الحج

الحج	(وأذن في الناس بالحج يـأتوك رجـالاً وعلى كل ضامر يأتين مـن كـل فـج عميق)	27	175
الحج	(ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات.... الخ)	28	175
النور	(ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفـين من زينتهن)	31	62
الفرقان	(وعباد الرحمن الـذين يمـشون علـى الأرض هوناً وإذا خـاطبهم الجـاهلون قالوا سلاماً)	63	8
الشعراء	(والـشعراء يتـبعهم الغـاؤن ..... أي منقلب ينقلبون)	224-227	191
الأحزاب	(وقرن في بيوتكن ولا تبـرجن تبـرج الجاهلية الأولى)	33	7
سبأ	(لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال... الخ)	15	14
يس	(وما علمناه الشعر وما ينبغي له إلا ذكر وقرآن مبين)	69	192
الأحقاف	(واذكر أخا عاد إذ انذر قومه بالأحقاف ...... الخ)	21	13
ق	(القيا في جهنم كل كفار عنيد)	24	207
الرحمن	(فيهما فاكهة ونخل ورمان)	68	154

الملك	(هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلـوا مـن رزقـه وإليـه النشور)	15	173
القلم	(ن والقلم وما يسطرون)	1	192
نوح	(وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا)	23	45
التكوير	(وإذا الموءدة سئلت * بأي ذنب قتلت)	9-8	27
الغاشية	(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت)	17	54
الفجر	(إرم ذات العماد)	7	13
العلق	(إقرأ باسم ربك الـذي خلـق * خلـق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم* الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم)	5-1	192
قريش	(لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الـشتاء والصيف)	2-1	173

المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم

2- إبراهيم عبد الرحمن – الشعر الجاهلي وقضاياه الفنية والموضوعية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.

3- الأبشيهي (محمد بن أحمد بن منصور) – المستطرف في كل فن مستظرف، شرح مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ - 1993م.

4- إحسان النص – العصبية وأثرها في الشعر الأموي، دار اليقظة العربية (د-ط-ت).

5- أحمد أمين وآخرون – فجر الإسلام، القاهرة، (د.ط.ت).

6- ،، ،، ،، – المفصل في تاريخ الأدب العربي، مكتبة الآداب، القاهرة، (د.ط.ت).

7- أحمد الشائب – تاريخ النقائض في الشعر العربي، النهضة المصرية، ط3، 1966م.

8- أحمد الهاشمي – جواهر الأدب في إنشاء لغة العرب، شرح وتعليق يحيى مراد، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 1426هـ - 2005م.

9- أحمد محمد الحوفي – الحياة العربية من الشعر الجاهلي، دار القلم، بيروت،(د.ط.ت).

الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك) – الأصمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ط3، 1964م.

10- الأعشى (أبو ميمون) ديوانه، دار صادر، بيروت، ط2، 412هـ - 1992م.

11- الألوسي (محمود شكري الألوسي البغدادي) – بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمد بهجت، القاهرة، ط3، (د.ت).
12- امرؤ القيس (جندب بن حجر) – ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1993م.
13-،، ،، ،،، - الغزل في العصر الجاهلي، دار القلم، بيروت، (د.ط.ت).
14- ابن الأنباري (أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن الأنباري) – شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، 1963م.
15- الإمام البخاري (أبو عبد الله الحسن بن اسماعيل) – صحيح البخاري، 9 مجلدات، مكتبة الثقافة الدينية، (د.ط.ت)، القاهرة، 1345هـ.
16- البغدادي (عبد القادر بن عمر) – خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة العامة للكتاب، 1979م، د.ط، مطبعة أخرى بولاق، ط1، 1405هـ - 1915م.
17- بهيج مجيد قنطار – الطبيعتان الحية والصامتة في الشعر الجاهلي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1986م.
18- تأبط شراً – شعر تأبط شراً، تحقيق سليمان داؤد الوعوطي، د.ط، 1973م.
19- التبريزي (يحيى بن علي الخطيب التبريزي) – شرح اختيارات المفضل، تحقيق فخر الدين قباوة، دار صادر، بيروت. 1987م.
20- التبريزي (يحيى علي الخطيب التبريزي)- شرح القصائد العشر، تحقيق محمد محي الدين، مكتبة محمد علي، القاهرة، ط2، 1964م.
21- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) – البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطري، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني، د.ط، 1968م.
22- ،، ،، ،، - الحيوان، الحلبي، ط2، (د.ت).

23- جرجي زيدان – تاريخ آداب اللغة العربية، راجعة شوقي ضيف، ط الهلال، مصر، د.ت.
24- جواد علي – تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، ط3، 1980م.
25- الإمام الجوهري (اسماعيل بن حماد الجوهري) – تاريخ اللغة العربية وصحاح العربي، تحقيق أحمد عبد الصبور عطار، القاهرة، د.ط، 1979م.
26- حاتم الطائي – ديوانه، شرح وتحقيق أكرم البستاني، مكتبة دار صادر، بيروت، د.ت.
27- ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل بن علي حجر) – الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق محمد علي، بيروت، د.ط ، 1962م.
28- حسان بن ثابت الأنصاري – ديوانه، تحقيق وتعليق وليد عرفات، دار صادر، بيروت (د.ط.ت).
29- حسن شحاتة – أسس علم الاجتماع، النهضة المصرية، ط2، 1955م.
30- حسن ظاظا – محاضرات فقه اللغة، طلبة الدراسات العليا آداب، 1971-1972م.
31- حسين الحاج حسن – أدب العرب في العصر الجاهلي، (د.ط.ن.ت).
32- حسين الحاج حسن – أدبنا العربي في العصر الجاهلي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ، ط2، 1410هـ - 1990م.
33- الحميري (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري) – الروض المعطار من خير الأقطار، تحقيق حسان عباس، لبنان، ط2، 1984م.
34- حنا الفاخوري – تاريخ الأدب العربي ، (د.ط.ن.ت).
35- أحمد محمد الحوفي – الحياة العربية من الشعر الجاهلي، دار القلم، بيروت (د. ط. ت).
36- ،، ،، ،، - الغزل في العصر الجاهلي، دار القلم، بيروت، (د. ط. ت).
37-،، ،، ،،، - المرأة في الشعر الجاهلي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1963م.

39- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون) – المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، المطبعة الأميرية، بولاق، ط3، 1320هـ ز
40- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد) – وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق محمد محي الدين (د.ط.ن.ت).
41- الخنساء – ديوانها، شرح وتحقيق ثعلب أحمد أبو أحمد العباسي بن يحيى الشيباني، دار صادر، بيروت، (د.ط.ت).
42- درويش الجندي – ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده، دار النهضة، مصر، د.ط، 1970م.
43- دريد بن الصمة – ديوانه، شرح وتحقيق محمد خير البقاعي، ط1، 1981م.
خالد الزواوي – تطور الصورة في الشعر الجاهلي، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية 2005م.
44- ذو الرمة (غيلان بن عقبة) – ديوانه، تحقيق كارهنري وجيس مكارتني، كامبرج ، (د.ت)، 1337هـ - 1929م.
45- الرازي (محمد بن أبي بكر الرازي) – مختار الصحاح، عني بترتيبه محمود خاطر بك، وزارة المعارف، القاهرة، (د.ط)، 1939م.
46- ابن رشيق (أبي الحسن بن رشيق القيرواني) – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، (د.ت).
47- الزمخشري (محمود بن عمر) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل وجوه التأويل، دار الفكر للطباعة والنشر، (د.ط،ت)
وأخرى: المكتبة التجارية، القاهرة، د.ط، 1365هـ.
48- الزبيدي (محي الدين أبو فيض)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق على بشرى، دار الفكر، بيروت، د.ط، 1414هـ، 1994م.
49- زهير أبي سلمى – ديوانه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1964م.

50- الزوزني (أبو عبد الله الحسن بن محمد) – شرح المعلقات العشرة، دار الثقافة، بيروت، 1964م.
51- سيد حنفي – الشعر الجاهلي، (د.ن.ط.ت).
52- شوقي ضيف – الشعر وطوابعه الشعرية على مر العصور، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
53- شوقي ضيف – العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط3،1960م.
54- شوقي ضيف – الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف مصر، 1943م
55- طرفة بن العبد – ديوانه، دار صادر، بيروت، 1980م.
56- طرفة بن العبد – شرح وتحليل ديوانه، علي الجندي، الأنجلو المصرية، (د.ت).
57- طه حسين – تاريخ الأدب العربي، ط الاتحاد، 1969م.
58- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي) – قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، دار المعارف، مصر، 1970م.
59- عباس بيومي – الهجاء الجاهلي، مؤسسة شباب الجامعة، د.ط، 1962م.
60- عبد الباسط محمد حسن وآخرون – أصول علم الاجتماع، البيان العربي، د.ط، 1958م.
61- ابن عبد ربه (أبي عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسي) – العقد الفريد، شرح وتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة، 1359هـ - 1940م.
62- عبد الحميد محمد المسلوت – الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، الجامعة لليبية، ط1، 1973م.
63- عبد العزيز سالم – تاريخ العرب في العصر الجاهلي، (د.ط.ت).
64- عبد الله الطيب – الحماسة الصغرى، بيروت، ط2، 1969م.
65- عبد الله الطيب – المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر، ط4، 1991م.

66- عبود مارون – أدب العرب، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1979م.
67- عفيف عبد الرحمن – الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً، دار الفكر للنشروالتوزيع، عمان، ط1، 1987م.
68- علي عبد الواحد وافي – فقه اللغة، لجنة البيان العربي، ط5، 1962م.
علي عبد الواحد وافي – اللغة والمجتمع.
69- علي الهاشمي – المرأة في الشعر الجاهلي، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، 1993م.
70- عمرو بن الأهتم – تحقيق مسعود محمود، مؤسسة الرسالة، د.ت، 1984م.
71- عمرو بن كلثوم – ديوانه، شرح عمر الفاروق، دار العلم، بيروت، (د.ط.ت).
72- عنترة بن شداد – ديوانه، تحقيق عبد المنعم شلبي، المكتبة التجارية، القاهرة (د.ت).
73- عنترة بن شداد – ديوان، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، 1966م.
74- أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسن) – الأغاني، دار الكتب وزارة الثقافة والإرشاد، مصر، ط1 ، 1963.
75- فليب حتي – تاريخ العرب "مطول" ترجمة بروكلمان عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر، (د.ط)، 1959م.
76- فليب حتي – تاريخ العرب، مطابع الغندور، ط4، 1959م.
77- القالي – الأمالي، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ط.ت).
78- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة) – الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1966م.
79- ابن قتيبة – عيون الأخبار، القاهرة، د.ط، 1930م.

80- القرشي (أبو زيد محمد بن الخطاب) – جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق محمد علي البجاوي، دار اليقظة الفجالة، مصر ، 1967م.
81- القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري) – الجامع لأحكام القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ط1، 1988م.
82- القلقشندي – صبح الأعشى، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1966م.
83- كارل بوركلمان – تاريخ العرب، تحقيق عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر، ط1، 1959م.
84- ابن الكلبي – أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، دار الكتاب، مصر، (د.ط.ت).
85- لبيد بن ربيعة العامري – ديوانه، تحقيق إحسان عباس، الكويت، 1962م.
86- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد المبرد) – الكامل في اللغة والأدب، تحقيق أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ط3، 1418هـ - 1997م.
87- محمد أحمد جاد المولى وعلي البجاوي – أيام العرب في الجاهلية، الحلبي، مصر، 1942م.
88- محمد حبيب البغدادي – المنمق في أخبار قريش، تحقيق خورشيد سيد أحمد، ط1، 1405هـ - 1915م.
89- محمد عبد الحليم وآخرون – بلوغ العرب في شرح لامية العرب، دار الحديث، (د.ط.ت).
90- محمد فؤاد عبد الباقي – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار إحياء الكتب العربية، د.ط، 1364هـ.
91- محمد عبد المنعم خفاجة – الحياة العربية في العصر الجاهلي، طبعه ونشره محمد توفيقها مكتبة الحسين التجارية، مصر، ومطبعة حجازي القاهرة، 1949م.

92- محمد عثمان علي – في أدب ما قبل الإسلام (دراسة وصفية وتحليلية)، دار الأوزاعي، بيروت، ط2، 1984م – 1086م.
93- محمد النويهي – الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة، القاهرة،(د.ط.ت).
94- محمد هاشم عطية – الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، دار الفكر العربي، مصر، د.ط، 1417هـ - 1997م.
95- مرزوق بنصنيتان بن تنباك – الضيافة وآدابها في الشعر العربي القديم، الفرزدق التجارية، الرياض، ط1، 1414هـ - 1993م.
96- المرزوقي (أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن) – شرح ديوان الحماسة، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1411هـ - 1991م.
97- مطاع صفدي وأيليا حاوي – الشعر العربي، شركة خياط للكتب والنشر، بيروت، 1970م.
98- المفضل الضبي (محمد بن يعلي) – المفضليات، شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف مصر، ط10، 1992م.
99- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين ممد بن مكرم) – لسان العرب ، تحقيق عبد الله علي كبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي: دار المعارف (1990م).
100- موهوب أحمد الجواليقي – المعرب من الكلام الأعجمي، تحقيق أحمد محمد شاكر، طهران، 1966م.
101- الميداني – مجمع الأمثال، تحقيق أبو الفضل أحمد النيسابوري، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1961م.
102- النابغة الزبياني: (زياد بن معاوية بن خباب) – ديوانه، تحقيق أكرم البستاني، دار صادر، بيروت، (د.ط.ت).

103- ناصر الدين الأسد – مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار الجيل، بيروت، (د.ط.ت).
104- نوري حمودي القيس – الفروسية في الشعر الجاهلي، منشورات دار اليقظة، بغداد، 1964م.
105- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري) – نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد جابر عبد العال، مراجعة إبراهيم مصطفى، 1404هـ - 1984م.
106- ابن هشام (عبد الملك بن هشام) – السيرة النبوية، دار المعرفة، بيروت،د.ت.
107- ابن هشام (عبد الملك بن هشام) – السيرة النبوية ، دار الجيل، بيروت، 1411هـ.
108- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبيدة ياقوت بن عبد الله) معجم البلدان، تصحيح وترتيب: أحمد أمين الشنقيطي، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1324هـ - 1906م.
109- يحيى الجبورتي – الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 1418هـ - 1007م.
110- يوسف خليف – الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1959م.

لمجلات والدوريات:

111- دائرة المعارف الإسلامية، أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي، وعبد الحميد يونس راجعها محمد مهدي علام، دار الفكر.

فهرس الموضوعات: